ليف تولستوي

قصص مختارة



ترجمة: غائب طعمة فرمان

ليف تولستوي

قصص مختارة

ترجمة: غائب طعمة فرمان



ليف تولستوي
قصص مختارة



Author: Lev Tolestoi
Title: Stories
Translator: Ghaeb T. Faraman
Cover designed by: Roula Majed
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2010
Second Edition: 2015

المؤلف: ليف تولستوي
عنوان الكتاب: قصص مختارة
ترجمة: غائب طعمة فرمان
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2010
الطبعة الثانية : 2015



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

ليف تولستوي حين يقص...

الكاتب الروسي العظيم ليف نيكولايفيتش تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) مشهور في العالم أجمع كمؤلف روايات «الحرب والسلم»، و«آنا كارينينا» و«البعث». وقد استطاع الكثيرون من معاصري تولستوي أن يقيموا أهمية هذه المؤلفات عن حق، ومن هؤلاء الروائيان الشهيران إ. س. تورغينيف، وف. م. دوستويفسكي والناقد البارز ف.ف. ستاسوف.

كما قيم روايات تولستوي كتاب مشهورون من كتاب الغرب: فلوبير وزولا، وأناتول فرانس، ورومان رولان، وبرنارد شو، وتوماس مان، وأرنست همنغوي، وآخرون من رجال الأدب البارزين.

ويقول الباحثون في تراث تولستوي أن القوة الإبداعية الرئيسية لهذا الكاتب تتركز في رواياته العظيمة، وتبرز فيها خصائص فنان الكلمة العبقري هذا بكل امتلائها وقوتها. وهذا صحيح. ولكن لا يجوز أن ينسى أن مع تولستوي الروائي كان «يتعايش» ويبدع تولستوي القصاص والراوي والكاتب المسرحي وكاتب الأطفال والمقالات الإشهارية والمربي.

كان ف. ا. لينين يقدر إبداع تولستوي تقديراً رفيعاً بشكل استثنائي. فقد رأى في تولستوي «كاتباً عبقرياً» «أعطى» في حياته

الطويلة «عدداً من أروع الأعمال الفنية التي وضعته في عداد الكتاب العظام للعالم أجمع». ويؤكد ف. إ. لينين على أن مؤلفات تولستوي من بين أفضل مؤلفات الأدب العالمي وإبداعه عبر عن العصر الذي سبق الثورة في حياة روسيا بقدر من الصدق والقوة، جعله «خطوة إلى الأمام في التطور الفني للإنسانية جمعاء»*.

وفي الأشهر الأولى بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عهد لينين إلى رفاقه المسيرين لشؤون التعليم الشعبي بأن ينشروا، بأقرب وقت ممكن، مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين، - ومن بينهم - و«في المقام الأول» ليف تولستوي وفي الوقت ذاته عبر عن رغبته في أن يكون تحت متناول القراء إبداع «تولستوي كله» وأن تنشر كل مؤلفات الكاتب، التي منعتها الرقابة في روسيا القيصرية.

وقد تطلبت توصية لينين هذه في نشر «تولستوي كله» من الباحثين السوفييت في إبداع الكاتب سنوات كثيرة من العمل الدؤوب، فقد كان من الضروري مقابلة كل سطر من كل عمل بالمخطوطات، وإزالة كل تشويهات الرقابة، وكل أخطاء الناسخين ومصففي الحروف المطبعية وما سهوا عنه. ونتيجة لهذا العمل ظهرت المجموعة الكاملة لمؤلفات الكاتب في تسعين مجلداً من القطع الكبير. وكان ظهورها حدثاً ذا أهمية أدبية كبيرة في وطن الكاتب وفي خارجه. واليوم وكقاعدة تنجز ترجمات أعمال تولستوي إلى اللغات الأجنبية، بالاعتماد على نصوص هذه المجلدات التسعين التي تعتبر واحدة من أوثق الطبعات. وبظهورها

---

* لينين . المؤلفات الكاملة . الطبعة الروسية ، المجلد ١٧ ، ص٢٠٩ ، المجلد ٢٠ ، ص١٩ .

ظهرت إمكانية تعريف القارئ الأجنبي أيضاً على إبداع تولستوي على نحو أوسع. ولعل من بين الأعمال التي تنشر في اللغة العربية لأول مرة قصته المبكرة «غارة» وروايته القصيرة «بوليكوشكا» التي استجاب فيها لإلغاء نظام القنانة في روسيا.

وإلى جانب هذين العملين يضم كتابنا هذا القصة الفلسفية لتولستوي الشاب «ثلاث ميتات» ثم «أسير القفقاس» التي وضعها الكاتب لكتابه المدهش «الأبجدية». وبعد ذلك تأتي رواية تولستوي القصيرة «الذراع» التي كتبها في وقت متأخر، والتي تذهل بجرأتها غير الاعتيادية في التناول الفني. فإن شخصيتها الرئيسية، بطلها، حصان عجوز «يفكر» و«يناقش».

وهكذا يضم كتابنا خمسة أعمال أولها «غارة» كتبت في بداية الخمسينات من القرن الماضي، وآخرها «الذراع» كتبت بعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ. ومع أن كل واحدة تتميز عن الأخرى بالمحتوى، وباللغة، وبطرائق رسم الشخصيات، إلا أن من المستحيل خلطها بأعمال أي كاتب روسي أو أجنبي. فإنها جميعاً أعمال تولستوية نموذجية سواء في الطرح الجريء لأهم قضايا الحياة الإنسانية، أو في مساعي الكاتب الملحاحة لإيجاد طريق إلى حقيقة، يمكن أن تعترف بمصداقيتها، على حد التعبير المحبب لتولستوي، «الغالبية العظمى من الإنسانية» لتسلحها الروحي ويمكن أن تسير فيه.

خذوا، على سبيل المثال، قصة «غارة». فالانطباع الذي تخلفه القراءة الأولى لها هو أنها مجرد واحد من الحوادث المميزة لحرب القفقاس التي امتدت عشرات السنين، والتي اشترك فيها تولستوي الشاب، بعد

أن حصل في معركة كتلك التي تصفها القصة على تعميده القتالي الأول. ولكن حالما تقرأ القصة بإمعان أشد، حتى يتوضح أن محتواها أبعد من حدود «الأوتشرك» العسكري الاعتيادي أو الريبورتاج.

ويتضح من مسودات «غارة» المحفوظة أنها كتبت في البداية على شكل يوميات. وكان هذا الشكل يعيق المؤلف الشاب، فنبذه، وقرر أن يعطي «وصفاً للحرب» أكثر سعة وشمولاً، كما جاء في يوميات تولستوي.

ومن الفصل الأول من «غارة» يتضح أن من بين الأفكار الرئيسية في هذا العمل هو: كيف تحدد الشجاعة الحقيقية للإنسان في الحرب؟

إن المتطوع الشاب الذي تجري القصة على لسانه يكتشف في الأسابيع الأولى من وجوده في الجيش العامل أن فيه أشخاصاً شجاعتهم ليست حقيقية، بل تظاهرية نابعة من الغرور والطمع، والرغبة في كسب الحظوة، وغير ذلك من «الصفات الوضيعة»، بينما هناك أناس غير قليلين يمتلكون الشجاعة الحقيقية النابعة من صفات مختلفة تماماً، أهل للاحترام الرفيع.

في قلب هذه القصة «غارة» التي هي أول عمل لتولستوي عن الحرب شخصية ضابط عامل في الجيش الروسي، هو الرائد العجوز خلوبوف الذي قضى ثمانية عشر عاماً في حالة من الخطر الدائم.

ويقول المؤلف عن سلوكه في المعركة: «لقد كان في شخص الرائد القليل جداً من الغموض، إلا أنه كان ينطوي على الكثير من الصدق والبساطة، حتى أذهلني تماماً، فوجدتني أقول لنفسي دون إرادتي» «ذلك هو الشجاع عن حق».

لم يكن في هذا الرائد العجوز الأشيب أي ميل للتباهي بالثبات.

وما كان يستطيع تحمل العبارات المصطنعة الفخامة عن الجسارة المستميتة لأي من الضباط الشبان الذين كانوا يحبون، حسب ملاحظة خلوبوف الدقيقة، أن يدسوا أنفسهم فيما لا يدعون إليه..

ويقول المؤلف إن الرائد خلوبوف مجبول على «صفة خاصة وعالية للشجاعة الروسية» وقد أفصح الرائد عن فحواها بالكلمات التالية: «الشجاع من يتصرف كما يقتضي».

ويختلف تماماً تصرف الضابط ألانين الفتي الرومانسي المزاج، والملازم روزنكرانتس الذي كان «مغروراً إلى أعلى درجة» يحب إدهاش الآخرين بالأحاديث الغريبة، والتصرفات غير المتوقعة.

وكلاهما يدفع ثمن شجاعته التظاهرية: ألانين بحياته، وروزنكرانتس بعد محبة واحترام أي شخص له.

تصور «غارة»، وهي الأولى من قصص تولستوي الحربية أناساً ينتمون إلى وسط الضباط الذي فيه كان الكاتب الشاب قد بدأ خدمته العسكرية في القفقاس، أما الجنود فقد صوروا في ملامح أكثر عمومية. ومن بين الشخصيات النموذجية يصور تولستوي الحرب في القفقاس في قصته التالية: «حطب الغابة». فقد ركز الكاتب انتباهه فيها على الكيفية التي يظهر فيها الإنسان الروسي الاعتيادي البسيط رجولته وشجاعته، أثناء تأدية واجبه العسكري.

لقد كان تولستوي منذ صباه وحتى أواخر عمره يعتبر خلق إنسان العمل الروسي لا يقتصر على الاستعداد الدائم للدفاع عن أرض الوطن، بل ويتعدى ذلك إلى حبه الأصيل للسلام، ورغبته في أن يعيش في

صداقة ووئام مع جميع الشعوب الأخرى، وتلك واحدة من أروع صفات هذا الخلق.

وقد تجلت هذه الفكرة بقوة كبيرة في قصته المبكرة «غارة» أيضاً، وتطورت في كامل إبداعه سواء في أعماله الفنية، أو أعماله الإشهارية. وفي آخر الفصل السادس من قصة «غارة» تتردد هذه الكلمات بعمق:

«أيعقل أن الناس يشعرون بالاكتظاظ في العيش في هذه الدنيا الرائعة، وتحت هذه النجوم التي لا تسبر؟ وهل يمكن حقاً أن يبقى في نفس الإنسان شعور الحقد والانتقام ونوازع القضاء على بني جنسه؟ يبدو لي أن كل ما في قلب الإنسان من شر لا بد أن يختفي في تماسه بالطبيعة بهذا التعبير الأعظم فصاحة عن الجمال والخير...».

وقد كتب تولستوي الشاب هذه الكلمات قبل أكثر من مائة وثلاثين عاماً. ولكن ما أحوج الناس إليها في الأرض كلها في هذه اليوم أيضاً، حيث الطبيعة، كما في ذلك الزمن أيضاً، تعبق «جمالاً وفاقياً وقوة»، بينما يسرع المسعورون بالحرب اليوم في أن يفعلوا كل شيء لا لمجرد إبادة أناس معينين وأقطار معينة، بل لمحق الحياة كلها من وجه الأرض...

إن موضوع الموت ما يزال أحد «المواضيع الخالدة» التي اهتم ويهتم بها الفن والأدب. وكما هو الحال في كل عمل من أعمال تولستوي الشاب حيرت قصة «ثلاث ميتات» النقد وقراءها الأوائل حيرة كبيرة جعلت المؤلف يكاشف بعضهم موضحاً معنى عمله هذا.

في ربيع ١٨٥٨ عرض محتوى القصة في رسالة لقريبته أ.أ.تولستايا بالشكل التالي: «كانت فكرتي أن ثلاثة مخلوقات في

طور الاحتضار: سيدة وفلاحاً وشجرة. السيدة تافهة وحقيرة، لأنها ظلت تكذب طوال حياتها، وهي تكذب لدى احتضارها. والمسيحية، كما تفهمها، لا تحسم بالنسبة لها قضية الحياة والموت. فلماذا تموت إذا كانت راغبة في أن تعيش؟... إنها تافهة وحقيرة. والفلاح يحتضر بهدوء وذلك بالضبط لأنه غير مسيحي. فإن له ديناً آخر، رغم أنه، بحكم العادة، كان يزاول الشعائر المسيحية. إن دينه هو الطبيعة التي كان يعيش معها. وكان نفسه يقوم بقطع الأشجار، ويبذر الجودار، ويحصده، وينحر الخراف، مثلما يولد الخراف لديه، ويولد الأطفال، ويموت الشيوخ، وهو يعرف معرفة اليقين هذا القانون، ولا يتنصل عنه أبداً، كما تفعل السيدة، بل ينظر إليه في عينيه... والشجرة تموت بهدوء، ونقاء وجمال. لأنها لا تكذب، ولا تتظاهر، ولا تخاف، ولا تأسف. تلك هي فكرتي التي لا توافقين عليها، بالطبع، ولكن لا جدال فيها».

وقد قدم الناقد المشهور د. ي. بيساريف تحليلاً مفصلاً ودقيقاً للقصة، وقد قيم مهارة تولستوي الفنية، وقدرته ونفاذه العميق إلى سايكولوجية الإنسان، وتصوير عالمه الداخلي تقييماً عالياً.

لم يوجه هذا الناقد الثاقب، لدى انغماره في تحليل النزعة السايكولوجية لتولستوي، الاهتمام اللازم إلى أن في هذا العمل الفلسفي السايكولوجي يتردد بقوة أعلى مما في قصص الكاتب وروايته القصيرة السابقة صوت المؤلف معلناً بدقة استثنائية عن موقفه الشخصي من الموت: إن الذي يحتضر بكرامة من بين المخلوقات الأحياء هو من «لا يكذب، ولا يتظاهر، ولا يخاف ولا يأسف»...

في رواية تولستوي القصيرة «بوليكوشكا» يمس تولستوي أيضاً

موضوع الموت. ولكن الموت الذي تصوره هذه الرواية، موت الفلاح القن الخادم بوليكي المستعبد، المنسي، الذي عانى الكثير من أنظمة القنانة لا ينطبق على أية ميتة من الميتات الثلاث، الموصوفة في قصة «ثلاث ميتات». فإن «طيبة» السيدة هي التي تقتل بوليكي، ومهما يكن في ذلك من معاضلة. فقد أشفقت هذه السيدة عليه (كان له خمسة أولاد!) ولكي تنقذه من الخدمة العسكرية الإجبارية، عهدت إليه بـ «مهمة» ظهر أنها ليست في مقدور فلاح جاهل أمي. فأضاع بوليكي نقود السيدة، ووضع يديه على نفسه، على حد التعبير المتداول في القرية القديمة، أي شنق نفسه.

ذات مرة قال تولستوي عن «منحاه» الإبداعي: «أنا لا أحب الكتابة بتشك». وحين قرأ تورغينيف «بوليكوشكا» كتب عن الأثر الذي تركته في نفسه هذه الرواية القصيرة: «... إنه لمخيف جداً. ولكن هناك صفحات مدهشة حقاً! حتى لتنفذ البرودة إلى عمودنا الفقري، رغم سمكه وغلظته. إنه فنان، فنان!»*.

وأكثر ما يثير الدهشة في هذه الرواية القصيرة هو نفاذ الكاتب إلى أعمق أعماق نفسية الفلاح الروسي القن. إنه معذب، تعيس، يعيش، كما يقولون، حياة الجوع والبرد. ولكنه احتفظ بنفسه حية. وهو لم يضع حبل المشنقة في رقبته رعباً من غيظ السيدة فقط، بل كان يفكر أيضاً على نحو مضن في أنه، وهو الفلاح البائس في القرية، أولي مثل هذه الثقة، ولم يستطع الاضطلاع بها...

---

* ا . س . تورغينيف . المؤلفات والرسائل الكاملة في ٢٨ مجلداً . الطبعة الروسية . الرسائل ، المجلد ٥ ، موسكو ولينينغراد ، ١٩٦١ ، ص ٢١٦.

وقصة «أسير القفقاس» كتبها تولستوي كواحدة من «القصص الحقيقية» التي كانت تحدث أحياناً أثناء حرب القفقاس. كانت المجلات والصحف أثناء حرب القفقاس التي امتدت أكثر من عشرين عاماً تنشر بترحيب قصصاً عن الضباط والجنود الروس الذين أسرهم الجبليون، لا سيما إذا كانت هذه القصص مكتوبة من قبل أناس وقعوا في الأسر.

وكان تولستوي قد التقى بأناس من مثل هؤلاء، وسألهم بالتفصيل عن حياتهم في الأسر.

كانَ تولستوي يدين الحكومة القيصرية بشدة على القساوة التي استخدمتها في الحرب لضم القفقاس. فقد كانت القوات القيصرية تخرب وتحرق القرى، مثيرة كراهية القبائل الجبلية لها.

وفي الوقت ذاته يقف تولستوي ضد التناحر القومي، وضد أولئك الذين يسعرون شعباً على شعب آخر.

يروي تولستوي في «أسير القفقاس» كيف أسر تتار نوغاي الضابط الروسي الشجاع جيلين، وأخذوه إلى القرية. وكان أهل القرية ينظرون إلى الأسير مثلما ينظرون إلى «وحش يعض»، على حد تعبير تولستوي. وكان أحد الجبليين، وهو رجل عجوز، «ما إن يرى جيلين حتى ينخر، ويشيح بوجهه»، وكاد يطلق الرصاص على الأسير، لأنه اقترب من كوخه. لقد صرعت الحرب سبعة من أبناء هذا الشيخ، وقتل هو الثامن بيده، حين انضم هذا الابن إلى الروس. وكان هذا العجوز «الفارس الأول الذي قتل الكثير من الروس، وكان غنياً».

بينما كان الجبليون البسطاء يعاملون جيلين معاملة أخرى، وصاروا يقدرونه على طبعه المرح المحب للعشرة، وعلى ذكائه.

والشابة دينا، بطلة القصة، كانت أيضاً تخشى جيلين في البداية، وبعد ذلك أنقذته، حين كان الإعدام يهدده بعد محاولة هروبه الفاشلة. واستطاعت عاطفة الشفقة والحب إزاء إنسان طيب غير متهم بشيء أن تقهر الرعب في نفس دينا. فأطلقت جيلين من الأسر مجازفة بحياتها.

في أحيان كثيرة تسمى «أسير القفقاس» بقصة «جيلين وكوستيلين». وبالفعل كان الضابط كوستيلين مرافق جيلين ورفيقه. وهو إنسان ضخم ثقيل الحركة جبان سبب وقوع جيلين في الأسر. وبسببه أيضاً فشلت محاولة الأسيرين الأولى في الهروب من القرية.

وإذا ما قارنا أفعالهما، وسلوكهما في اللحظات الحرجة، وطبائعهما، وحتى المظهر الخارجي لهذا وذاك نرى بسهولة أن كل عواطف الكاتب إلى جانب جيلين البسيط، النزيه، الشجاع، الصلب عند الملمات، الذي يواجه المخاطر بجرأة.

وقد كتبت «أسير القفقاس» بفن مذهب. فهي تحتوي على ستة فصول قصيرة، لا يزيد كل فصل منها على عشر صفحات صغيرة.

ولكن ما أكثر ما تضمنته. تتبدى أمام أبصارنا لا وقائع حرب القفقاس وحدها، بل وحياة قرية جبلية أيضاً. القليلون من فناني الكلمة يستطيعون أن يصفوا الطبيعة، كما استطاع أن يصفها تولستوي. فالطبيعة في أعماله تعيش حياة واحدة مع الناس.

و«يختتم» كتابنا بالرواية القصيرة «الذراع» تلك القصة التي كتبها تولستوي بعد فترة وجيزة من وقوع التبدل في نظرته إلى العالم. في «الاعتراف» الذي نشر في عام ١٨٨١ أعلن الكاتب بصلابة عن انفصاله عن طبقة النبلاء التي كان ينتمي إليها من حيث المولد والتربية، وانتقاله إلى جانب الشعب العامل في الأرض - إلى الفلاحين الروس.

يقول تولستوي في «الاعتراف»: «حدث معي انقلاب كان يتهيأ في داخلي منذ زمن بعيد، ورموزه كانت تعيش في نفسي. وما حدث معي أن حياة وسطنا ـ وسط الأغنياء والمتعلمين ـ ليست فقط نفرتني بل وفقدت كل معنى... » «وأفعال الشعب العامل، خالق الحياة، هي عندي القضية الحقيقية الوحيدة... لقد تخليت عن حياة وسطنا، بعد أن عرفت أنها ليست حياة... » إن الكاتب العظيم وجد مثاله في «حياة الشعب العامل البسيط الذي يصنع الحياة، وفي تلك الفكرة التي يعطيها لها».

وقد انعكست في إبداع الكاتب التغيرات الجذرية التي حصلت لأفكاره. وفي تلك السنين بالذات يصير: المحتج اللاهب، والفاضح المتقد، والناقد العظيم، كما يسميه ف. إ. لينين، وهو يقيم إبداع تولستوي المتأخر. وفي إبداع الكاتب في هذه المرحلة المتأخرة ظهرت بقوة مميزة الجوانب القوية والضعيفة لأفكاره التي عكست «التناقضات الصارخة» لأيديولوجية طبقة الفلاحين البطريقية الروسية التي سمى تولستوي نفسه «محاميها» في سنوات الثورة الروسية الأولى.

ورواية «الذراع» القصيرة مهمة بشكل خاص لأنها كتبت بطريقتين للتناول: فقد كتبت الصيغة الأولى منها قبل عشرين عاماً من «الاعتراف»، وأرجأت زمناً طويلاً.

وفي عام ١٨٨٥ فقط عاد تولستوي إلى هذا العمل الذي بدأه منذ زمن طويل، وأجرى عليه تغييراً جذرياً. فقد شدد الكاتب في الصيغة الجديدة لهذه الرواية القصيرة تشديداً كبيراً على فضح مالكي «الذراع» الذين عذبوه بلا رأفة، وأودوا بحياته في آخر الأمر. ورواية «الذراع» شأنها شأن الأعمال المتأخرة الأخرى لتولستوي موجهة ضد «شر الحياة»

الذي كان تولستوي يعتبره الشر الرئيسي، وهو الملكية الخاصة ليس فقط للمعامل والمصانع، والغابات والحقول، بل وللمخلوقات الحية أيضاً.

ويقول الذراع: «فقد كنت أبقع، وكنت، مخصياً، وكان الناس لا يتصورونني ملك الرب، وملك نفسي، مثل أي كائن حي».

وفي الصيغة النهائية لهذه الرواية القصيرة شدد بشكل حاد على الأصل «الفلاحي» (الموجيكي) للذراع. فهو يحكي عن نفسه لخيول الرعيل الشابة: «نعم، أنا ابن مهذب الأول ويابا. أنا قروي الأول في شجرة النسب. وليس هناك حصان أرفع دماً مني في العالم».

وفي كلمات الذراع وأفكاره عن مالكيه تتجسد الكراهية «الموجيكية» وعدم الإدراك الساذج المتأصل في وعي الفلاحين البطريقيين للأسباب الحقيقية في أن يكون في العالم الذي يعيش فيه الذراع من كتب عليهم الكدح والذلة، وآخرون يعيشون حياة مبتذلة لا هم فيها ولا عوز.

وفي الإمكان أن نقول عن الذراع، ونحن نتابع أفكاره ومشاعره، إنه ينظر إلى الحياة والناس وكأنما كتبت عليه حياة فلاح عجوز حكيم. فقد منحه الكاتب إمكانية أن يرى عن قرب حياة ومعيشة أناس من الطبقات الميسورة تبدو أمام الذراع مرضى يعانون أشكالاً مختلفة من «الاضطراب العقلي».

إن قدرة مؤلف هذه الرواية القصيرة في النفاذ إلى الأحاسيس المعقدة العميقة لحصان مخصي مخذول من قبل القدر والناس، وتصويرها في الرواية أدهشت حتى تورغينيف الفنان السايكولوجي المرهف. وقد سجل معاصروه ما حكاه عن إحدى نزهاته الصيفية مع تولستوي غير بعيد عن بيت ضيعة تولستوي في ياسنيا بولانا.

في المرعى من الجهة المقابلة صادفهما حصان عجوز منهوك. ويقول تورغينيف متذكراً: «اقتربنا من الحصان، من ذلك المخصي التعيس، فأخذ تولستوي ينظر إليه، ويردد، في الوقت ذاته، ما كان يجب أن يشعر به هذا الحصان ويفكر فيه، حسب رأيه.

فأصغيت إليه مصادقاً، إنه لم يكتف في أن يضع نفسه في موضع هذا المخلوق التعيس، بل ووضعني أنا أيضاً، لم اصطبر وقلت: «اسمعني، يا ليف نيكولايفتش، لا بد أنك كنت حصاناً في وقت ما».

ونحن لا نعرف ماذا رد تولستوي على تورغينيف آنذاك، ولكنه فيما بعد، بعد ربع قرن كتب «الذراع»، وقد قص «قصة حصان» لا على تورغينيف وحده في هذه المرة، بل على الملايين العديدة من قرائه.

ونشير في الختام إلى أن تولستوي كان، في الفترة المتأخرة في حياته، ينظر إلى كل عمل جديد من أعماله كـ «رسالة جامعة» موجهة إلى العديد من الناس. ونحن على ثقة من أن «الرسائل الجامعة» المتضمنة في هذا الكتاب ستجد قراءها الصاغين الشرفاء.

ك. ن. لومونوف

غارة
قصة متطوع

-١-

في الثاني عشر من تموز دلف في باب مخبئي الواطئ النقيب خلوبوف في كتافيتيه متقلداً سيفه ـ وهذه بزة لم أره فيها منذ وصولي إلى القفقاس.

ـ جئتك من العقيد مباشرة ـ قال لي وهو يرد على نظرتي المتسائلة التي استقبلته بها ـ غداً ستغادر كتيبتنا.

سألت:

ـ إلى أين؟

ـ إلى «ن. ن»، المكان الذي عين لتجمع القوات.

ـ ومن هناك قد يجري زحف؟

ـ ربما.

ـ إلى أين؟ ماذا تظن؟

ـ ماذا أظن؟ أنا أقول لك ما أعرفه. أمس ليلاً وصل تتري مرسل من الجنرال، يحمل أمراً يقضي بمغادرة الكتيبة على أن تأخذ معها من البقسماط ما يكفي ليومين. ولكن إلى أين، ولماذا، وهل لوقت طويل؟

لا أحد يسأل مثل هذه الأسئلة، يا عزيزي. لقد أمرنا بأن نغادر. وهذا يكفي.

ـ على أية حال، إذا كنا سنأخذ من البقسماط ما يكفي ليومين، فمعنى ذلك أن القوات لن تبقى أكثر من ذلك.

ـ ولكن ذلك لا يعني شيئاً...

فسألت بدهشة:

ـ وكيف ذلك؟

ـ هكذا، ببساطة! عندما رحلنا إلى دارغي، أخذنا من البقسماط ما يكفي لأسبوع، ولكننا مكثنا هناك شهراً تقريباً.

صمت برهة، ثم سألت:

ـ وهل يمكن لي أن أذهب معكم؟

ـ إذا كانت مسألة إمكان، فذلك ممكن. ولكنني أنصحك بعدم الذهاب. فلماذا عليك أن تجازف؟..

ـ اسمح لي ألا أتبع نصيحتك. فقد قضيت شهراً كاملاً هنا، لمجرد انتظار سنوح الفرصة لأشهد قتالاً. بينما تريد لي أن أفوت هذه الفرصة.

ـ تفضل، تعال. ولكن أليس من الصائب حقاً أن تبقى هنا؟

أفضل أن تنتظرنا، وتقضي وقتك في الصيد. أما نحن فسنخرج والله معنا. إن في ذلك خيراً! ـ قال بلهجة مقنعة جداً، حتى إنني، في الوهلة الأولى، تصورت بالفعل أن في ذلك خيراً. ومع ذلك فقد قلت بحزم: لن أبقى مهما يكن من شيء.

ـ ماذا تريد أن ترى هناك؟ ـ تابع النقيب إقناعي ـ تريد أن تعرف أي معارك تحدث؟ إذن اقرأ «وصف الحرب» لميخائيلوفسكي ـ

دانيليفسكي. فهو كتاب ممتاز. وفيه وصف تفصيلي لكل شيء. أين كان يرابط هذا الفيلق أو ذاك، وكيف تجري المعارك.

أجبت:

ـ بالعكس، هذا لا يهمني.

ـ ماذا إذن؟ لمجرد أنك تريد، على ما يبدو، أن ترى كيف يقتل الناس؟... دعني أقول لك، في عام اثنين وثلاثين، كان هنا شاب لم يكن في سلك الخدمة، من الإسبان، على ما يبدو لي.

خرج معنا في مسيرتين في ممطار أزرق... ومع ذلك لم يسلم وقتل. لا أحد يندهش من شيء هنا، يا عزيزي.

ورغم ما آلمني من سوء تفسيره لمقصدي لم أتجشم عناء تغيير رأيه. سألته:

ـ وهل كان ذاك شجاعاً؟

ـ الله يعلم. كان دائماً يسير في المقدمة. وأينما وقعت مناوشة تجده هناك.

قلت:

ـ إذاً، فهو شجاع.

ـ لا، ليس من الشجاعة أن يتطفل على ما لا يدعى إليه.

ـ فما هو الشجاع عندك؟

ـ الشجاع؟ الشجاع؟ ـ كرر النقيب كمن يطرح عليه هذا السؤال لأول مرة، ثم قال بعد تفكير: الشجاع هو من يتصرف كما ينبغي.

وتذكرت أن أفلاطون يعرف الشجاعة بأنها معرفة ما ينبغي الخوف منه، وما لا ينبغي ورغم ما في تعريف النقيب من عمومية وإبهام، فقد

فكرت في أن الفكرة الأساسية لدى الرجلين ليست مختلفة بالقدر الذي يمكن أن تبدو عليه، بل وإن تعريف النقيب أوضح من تعريف الفيلسوف الإغريقي، لأنه لو كان في مقدوره أن ينطق بفصاحة أفلاطون لقال، بالتأكيد، إن الشجاع هو من لا يخاف إلا ما ينبغي الخوف منه، وليس ما لا داعي للخوف منه.

أحببت أن أوضح فكرتي للنقيب فقلت:

ـ أجل، يبدو لي أن في كل خطر خياراً، والخيار المتخذ تحت تأثير الشعور بالواجب، مثلاً، هو الشجاعة، أما الخيار المتخذ تحت تأثير شعور وضيع فهو الجبن، ولهذا لا يجوز أن يوصف بالشجاعة من يجازف بحياته مدفوعاً بالغرور أو الفضول أو الجشع. وبالعكس، لا يجوز أن يوصف بالجبن من ينثني عن الخطر تحت تأثير الشعور الصادق بالالتزام العائلي أو لمجرد الاقتناع.

عندما كنت أتكلم كان النقيب ينظر إلي وعلى وجهه تعبير غريب. وقال وهو يحشو غليونه:

ـ هذا لا أستطيع أن أبرهنه لك. ولكن عندنا طالب عسكرية يحب أن يتفلسف. فتحدث معه. إنه يقرض الشعر أيضاً.

لم أكن قد تعرفت على النقيب إلا في القفقاس، إلا أنني كنت أعرفه وأنا في روسيا. إن أمه، ماريا أيفانوفنا خلوبوفا، وهي مالكة أرض صغيرة، تعيش على بعد فرسخين من ضيعتنا. وقد زرتها قبيل سفري إلى القفقاس. فسرت العجوز سروراً عظيماً لأنني سأرى ولدها باشنكا (وهو الاسم الذي تسمي به النقيب العجوز الأشيب) و ـ كرسالة حية ـ أستطيع أن أقص له عن صحتها وأحوالها، وأسلمه إرسالية

صغيرة منها. قدمت ماريا ايفانوفنا لي فطيرة لذيذة، وخرجت إلى غرفة نومها، وعادت منها بحرز أسود كبير على نحو ما، مخاط بشريط حريري أسود أيضاً.

ـ هذه أيقونة الأم الشفيعة ـ قالت بعد أن قبلت صورة العذراء، راسمة علامة الصليب، وقدمتها لي ـ اجتهد أن توصلها له، يا بني.

عندما رحل إلى القفقاس أقمت صلاة، وقدمت نذراً بأنه إذا عاد حياً سليماً فسأوصي له بهذه الأيقونة للأم العذراء. وها قد مضت ثماني عشرة سنة، والأم الشفيعة والقديسون الأوصياء يصلون له، وحتى الآن لم يجرح مرة واحدة، مع أنه قد اشترك في معارك كثيرة، على ما يبدو!.. وما حكاه لي ميخائيلو عما حصيل له جعل شعري يقف، صدقني! وما أعرفه عنه أعرفه عن طريق الغرباء، فهو لا يكتب لي شيئاً عن حملاته، يخاف أن ارتاع.

(وأنا في القفقاس عرفت، ومع ذلك فليس منه، بأنه قد جرح أربع مرات جراحاً بليغة، وطبيعي أنه لم يكتب شيئاً عنها لأمه، مثلما لم يكتب عن حملاته).

تابعت الأم كلامها قائلة:

ـ فليتقلد الآن صورة العذراء هذه، فأنا أباركه بها. الشفيعة الطاهرة تحميه! لا سيما في المعارك، فليحملها معه دائماً. قل له ذلك، يا بني، قل له إن أمك أمرتك بذلك.

وعدتها بأن أنقل رسالتها بدقة.

واصلت العجوز قولها:

ـ أنا أعرف أنك ستحب ولدي باشنكا. فهو فتى ماجد! صدقني لا

يمر عام دون أن يرسل نقوداً لي، كما أنه يساعد أنوشكا، ابنتي، كثيراً. وكل ذلك من راتبه لا غير! سأظل أحمد الرب طوال العمر من كل قلبي على أنه أعطاني مثل هذا الابن.

ختمت العجوز بذلك كلامها، والدموع تترقرق في عينيها.

سألتها:

- كثيراً ما يكتب لك؟

- نادراً ما يكتب، يا بني. لا بأس لو كتب في السنة مرة، ولكن حتى إذا أرسل فلوساً، فهو إما أن يكتب بعض الكلمات القليلة، وإما لا يكتب كلمة بالمرة. يقول: إذا كنت لا أكتب لك، يا أماه، فمعنى ذلك أنني حي سليم، وإذا حصل لي شيء، لا سمح الله، فإنهم سيكتبون لك بدوني.

وحين سلمت للنقيب هدية أمه (وكان ذلك في مسكني) طلب مني الورقة ليغلف بها، وطبقها بعناية، وخبأها. تحدثت له كثيراً عن تفاصيل حياة أمه، ولزم النقيب الصمت. وحين أنهيت حديثي، انتحى ناحية، وظل وقتاً طويلاً منشغلاً في تحشية غليونه.

- نعم، عجوز ماجدة ـ قال من هناك بصوت كامد الرنين بعض الشيء ـ لا أدري هل سيكتب الرب لنا أن نلتقي ثانية.

وكان في هذه الكلمات البسيطة الكثير من الحب والأسى. قلت:

- لماذا أنت تخدم هنا؟

رد بقناعة:

- يجب أن أخدم على أية حال. ثم إن الراتب المضاعف لرجل بائس مثلي يعني الشيء الكثير.

كان النقيب يعيش بشيء من التقتير، فلم يكن يلعب الورق، ونادراً ما يجلس إلى موائد الخمر، وكان يدخن تبغاً بسيطاً كان لسبب ما، لا يسميه «تتناً» بل تبغاً. وقد راق لي النقيب، قبل هذا الحين، فقد كانت سحنته من تلك السحنات الروسية البسيطة الهادئة التي يطيب لك أن تنظر في عينيها تماماً، ودون أن تجد حراجة في ذلك. ولكنني بعد هذا الحديث أحسست باحترام حقيقي نحوه.

-٢-

في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي جاء النقيب لاصطحابي.

كان يرتدي سترة عسكرية قديمة محكوكة بلا كتافيتين، وبنطالاً لزغينياً* عريضاً، وقبعة قوزاقية بيضاء لها كوربيه** مصفرة مهدلة، وسيفاً آسيوياً بائساً على كتفيه. كان «المشتاك***» الأبيض الذي يمتطيه يسير مطأطأ الرأس في مشية رهاء يقارب فيها يديه ورجليه، ويهز ذيله الهزيل باستمرار. وكان في هيئة النقيب الطيب القليل من أقدام المقاتل، بل ومن الجمال أيضاً، فقد كانت تشي بالكثير من عدم الاكتراث بكل ما يحيط به، حتى كانت تحملك على احترامه حملاً.

لم أدعه ينتظر لحظة واحدة، امتطيت الفرس في الحال، وخرجنا سوية خارج بوابة القلعة.

كانت الكتيبة قد تقدمتنا بنحو من مائتي ذراع، فبدت كتلة سوداء

---

* اللزغينيون شعب قفقاسي.

** الكوربيه في الكلام القفقاسي الدارج يعني فروة الخروف (الملاحظة لليف تولستوي).

*** مشتاك في الكلام القفقاسي الدارج يعني الحصان (الملاحظة لليف تولستوي).

كثيفة متماوجة. وكان من الممكن الحدس بأنها من المشاة لمجرد أن حرابها كان تبدو مثل أبر طويلة متقاربة، ومن حين لآخر كانت تبلغ السمع نغمات أغنية الجنود وأصوات الطبل، وصوت المغنى الصادح الساحر للسرية السادسة، الذي كنت قد أعجبت به غير مرة منذ أن كنا في القلعة. كان الطريق يسير وسط وهدة عميقة عريضة، بالقرب من نهير صغير كان في ذلك الوقت يعبث، أي يفيض على الجوانب. كان سرب من الحمام البري بالقرب منه، يحط تارة على شاطئه الصخري، ويتقلب تارة أخرى في الهواء، ويقوم بدورات سريعة، ويطير وراء مدى البصر. لم تكن الشمس قد ظهرت بعد، إلا أن قمة الطرف الأيمن من الوهدة بدأت تتنور.

كانت الصخور الرمادية والضاربة إلى بياض، والطحلب الأخضر الأصفر، ومجاميع شجيرات الياسمين البري والقرانيا المبللة بالندى، تبدو واضحة المعالم للغاية، مجسمة، في ضوء الهواء الشفاف المذهب، إلا أن الطرف الآخر، والوهدة المغطاة بضباب كثيف متراكم طبقات غير مستوية دخانية اللون كانا رطبين موحشين، يمثلان خيطاً متشابكاً من اللون الليلكي الشاحب، والأسود تقريباً، والداكن الخضرة، والأبيض. وقبالتنا تماماً، في الزرقة الداكنة للأفق كانت الكتل الساطعة البياض، والكامدة للجبال الثلجية تلوح بوضوح مذهل بمعالمها وظلالها العجيبة والأنيقة في نفس الوقت، حتى أصغر دقائقها. وقد استيقظت الجداجد، واليعاسيب، وآلاف الحشرات الأخرى على العشب العالي، وملأت الهواء بأصواتها الصافية الموصولة. فبدا وكأن عدداً لا يحصى من الأجراس المتناهية الصغر ترن في الآذان. وكان الهواء نفسه مشبعاً برائحة الماء والعشب

والضباب، وباختصار، برائحة صباح صيفي باكر رائع، قدح النقيب ناراً، وأشعل غليونه، وبدت لي رائحة التبغ والصوفان ذات نكهة عذبة بشكل غير اعتيادي.

سرنا في جانب الطريق لنلحق بالمشاة بأسرع وقت ممكن. وبدا النقيب مشغول البال أكثر من المعتاد، لم يخرج من فمه الغليون الداغستاني، وفي كل خطوة يخز بكعبي حذائه حصانه الذي كان يترك أثراً أخضر لا يكاد يلحظ على العشب الرطب العالي، مترنحاً من جنب إلى جنب. طار دراج من تحت أقدام الحصان تماماً، بصفير ويخفق بالجناحين، ذلك الخفق الذي يجعل الصياد يجفل تلقائياً، وأخذ يصعد إلى الأعلى ببطء. لم يلق النقيب أدنى التفات للطائر.

كنا على وشك أن نلحق بالكتيبة، حين سمعنا من وراء كركبة حصاناً يعدو، وفي تلك اللحظة مر بنا شاب غض العود حلو المحيا في سترة ضباط رسمية، وقبعة قوزاقية بيضاء عالية.

وحين حاذانا ابتسم، وهز رأسه للنقيب، ولوح بسوطه... لم يتيسر لي إلا أن ألمحه جالساً على سرجه يمسك بالزمام برشاقة ملحوظة، وألمح عينيه السوداوين الجميلتين، وأنفه الدقيق، وشاربيه البارضين. وقد أعجبني فيه بشكل خاص أنه ما استطاع إلا أن يبتسم، حين لاحظ أننا نتأمله بافتتان. ومن تلك الابتسامة وحدها كان من الممكن أن نستنتج أنه ما يزال في ربيع شبابه.

- إلى أن يعدو؟ - دمدم النقيب بهيئة متبرمة، دون أن يخرج غليونه من فمه.

سألته: من هو؟

ـ الملازم آلانين، الضابط الأصغر في سريتي. جاء من المدرسة العسكرية في الشهر الماضي فقط.

قلت:

ـ يبدو أنه ذاهب للمعركة لأول مرة؟

ـ بالضبط، وفرحان، ـ أجاب النقيب، هازاً رأسه بعميق الدلالة ـ شباب!

ـ ولكن لماذا يفرح؟ أنا أفهم أن هذا الأمر لا بد أن يكون ممتعاً جداً لضابط شاب.

صمت النقيب دقيقة أو دقيقتين.

ـ وهذا ما أقوله: شباب! ـ تابع القول بصوت عالي النبرة ـ وبماذا يفرح، إذا لم ير شيئاً! ولكن ما إن يتكرر خروجه، حتى لا يجد ما يفرحه. في حملتنا هذه، على سبيل المثال، يشترك عشرون ضابطاً، ولا بد أن أحداً منهم سيقتل أو يجرح، هذا مؤكد. اليوم تدور الدوائر علي، وغداً عليه، وبعد غد على ثالث. فما الذي يفرح في الأمر؟

ـ٣ـ

ما كادت الشمس الساطعة تطلع من وراء الجبال، وتأخذ بنشر ضوئها في الوادي، الذي كنا نسير فيه، حتى أخذت غيوم الضباب المتماوجة تنقشع، ويصير الجو حاراً. كان الجنود ببنادقهم والزكائب على أكتافهم يسيرون ببطء في الطريق المترب، ومن حين لآخر كان يتردد في صفوفهم كلام باللغة الأوكرانية، وضحك. وكان بعض الجنود الكبار في السن في سترهم العسكرية البيضاء ـ معظمهم ضباط صف ـ يسيرون

والغلايين في أفواههم، على جانب الطريق، يتبادلون الحديث برصانة. وكانت عربات الترويكا* المحملة إلى الأعلى تسير بتثاقل، وتثير غباراً كثيفاً يظل عالقاً في الجو لا يريم. وكان الضباط يسيرون على خيولهم في المقدمة، بعضهم يتوثب على حصانه، أي يضرب حصانه بسوطه، ويجعله يثب أربع وثبات، ويتوقف دفعة واحدة مديراً رأسه إلى الخلف، والبعض الآخر يتلهى بالمغنيين الذين كانوا يعزفون الأغنية بعد الأخرى دون انقطاع، رغم شدة الحر وغرة الهواء.

وعلى مسافة مائة ذراع أمام المشاة، كان يسير على حصان أبيض كبير على ثلة من التتريين الخيالة ضابط وسيم طويل القامة في لباس آسيوي، معروف في الفوج كشجاع مستميت لا يخشى في الحق لومة لائم. كان يرتدي بشمتاً أسود ذا أشرطة وحذاء قفقاسياً جديداً مشدوداً على ساقيه، وسترة شركسية، وقبعة قوقازية عالية مسرحة إلى الوراء. وكان على صدره وظهره تقصيبات فضية وضع عليها سير ومسدس وراء الظهر، بينما تدلى من حزامه مسدس آخر وخنجر في غمد فضي. وفوق كل ذلك كان يتقلد سيفاً في غمد السختيان أحمر ذي أشرطة، وبندقية في غلاف أسود كان يضعها فوق كتفه. وكان لباسه، وجلسته على صهوة فرسه، ومسلكه، ومجمل حركاته يدل على أنه يسعى أن يبدو كالتتري. بل كان يقول للتتريين الذين كانوا يسيرون معه شيئاً بلغة غير مفهومة لي. ولكن النظرات الحائرة الساخرة التي كان يتبادلها هؤلاء، كانت تشي بأنهم لا يفهمونه. لقد كان صاحبنا أحد الضباط الفرسان

---

* الترويكا ـ ثلاثة أحصنة في عربة واحدة .

المغاوير الذين اتخذوا مثالهم من مارلينسكي ولورمنتوف. إن هؤلاء ينظرون إلى القفقاس بمنظار أبطال زماننا*، وأمثال ملا نوري ومن على شاكلتهم، يقتدون في كل أفعالهم بمثال هؤلاء الشخصيات، وليس بما تستوجبه ميولهم الخاصة.

لعل الضابط كان يحب، مثلاً، مجتمع النساء الفاضلات، والناس ذوي الشأن ـ الجنرالات، والعقداء والمرافقين ـ بل وأنا واثق من أنه كان يحب هذا المجتمع جداً، لأنه كان على أكبر درجة من الاعتداد بالنفس ـ ولكنه كان يعتبر من اللازم الحتمي له أن يدير جانبه الفظ لكل ذوي الشأن، رغم أن فظاظته معهم كانت معتدلة جداً. وحين تظهر سيدة راقية في القلعة كان يعتبر من اللازم أن يمر بنافذتها مع أصحابه وليس عليه غير قميص أحمر، وحذاء قفقاسي يلبسه على رجلين بلا جوارب، يصيح ويتشاتم بأعلى صوت ممكن. ولكن كل ذلك ليس عن رغبة في إهانتها، بقدر ما هو عن الرغبة في أن يظهر أن له رجلين بيضاوين جميلتين، وأن من الممكن أن تحبه أية امرأة، إذا كان يريد ذلك. أو أن يكمن في الطريق، في روحاته الكثيرة ليلاً في الجبال مع اثنين، أو ثلاثة من التتر المسالمين، يترصد ويقتل التتر المعادين المارين، رغم أن قلبه كان يقول له غير مرة إن ذلك خال من الشجاعة بالمرة، فقد كان يرى لزاماً عليه أن يلحق الأذى بالذين خاب أمله فيهم لشيء ما على حد زعمه، وأنه يحتقرهم ويبغضهم. وكان هناك شيئان لا يخلعهما عنه قط: أيقونة كبيرة في رقبته، وخنجر فوق القميص، بل وكان ينام والخنجر معه. كان

* «بطل زماننا» رواية شهيرة للشاعر الروسي لورمنتوف تمتاز برومانطيقيتها ـ المترجم ـ

يؤمن بصدق بأن له أعداء. وكان يجد أكبر متعة في إقناع نفسه بأنه يجب أن ينتقم من أحد، ويغسل الإساءة بالدم. وكان موقناً بأن مشاعر الكراهية والانتقام واحتقار الجنس البشري هي أرفع العواطف الشاعرية. إلا أن عشيقته - وهي شركسية، بالطبع - صادف أن قابلتها فيما بعد، كانت تقول إنه كان أطيب الناس وأدمثهم خلقاً، وإنه كان يكتب معها في كل مساء مذكراته الكئيبة، ويسجل الحسابات على ورقة مجدولة، ويصلي إلى الرب راكعاً على ركبتيه. وكم كان يشقى لكي يبدو، أمام نفسه فقط، ما كان يريد أن يكون، لأن رفاقه والجنود لم يتمكنوا أن يفهموه بالشكل الذي كان يريده. في إحدى حملاته الليلية على الطريق مع أصحابه صادف أن جرح أحد التشيتشينيين المعادين في قدمه، وأسره. وقد عاش هذا التشيتشيني، بعد الحادث مع هذا الضابط سبعة أسابيع وعالجه الضابط ورعاه كصديق حميم، وحين شفي أطلق سراحه محملاً بالهدايا. وخلال حملة أخرى بعد هذا الحادث، حين كان هذا الضابط يتراجع تخلصاً من رماية العدو، سمع بين الأعداء من يناديه باسمه، وإذا بصاحبه الذي كان جريحاً في السابق، يخرج في المقدمة، ويدعوه بالإشارات إلى أن يحذو حذوه، تقدم الضابط من صاحبه، وصافحه. وقف الجبليون على مبعدة، ولم يطلقوا النار. ولكن ما إن أدار الضابط حصانه عائداً حتى أطلق عدة رجال النار عليه، وخدشت إحدى الرصاصات أسفل ظهره، وفي مرة أخرى رأيت بنفسي كيف شب حريق في القلعة ليلاً، واطفأه جنود سريتين. وفجأة رأيت وسط جمع الناس المضاء بلهيب الحريق الأحمر قامة الرجل الفارعة على فرسه الأسحم، وصار الرجل يدفع الجمع، حتى وصل بفرسه إلى النار تماماً. وعندئذ قفز من حصانه، ودخل راكضاً إلى البيت الذي كان يحترق من أحد أطرافه.

وبعد خمس دقائق خرج هذا الضابط مشتعل الشعر، محترق المرفق، حاملاً في طية صدره حمامتين أنقذهما من اللهب.

كان لقبه روزنكرانتس، ولكنه كان كثيراً ما يتحدث عن نسبه، فيرجعه إلى الفارياغيين*، ويبرهن بوضوح على أن أسلافه كانوا روساً أقحاحاً.

- ٤ -

صعدت الشمس إلى السمت، وراحت تقذف شواظ أشعتها على الأرض الجافة من خلال الهواء المحمي. كانت السماء الداكنة الزرقة صافية تماماً، سوى أن سفوح الجبال الثلجية أخذت تتسربل بغيوم بيضاء ليلكية، وكان الهواء الراكد يبدو، وكأنه مشبع بغبار شفاف. وصارت وقدة الحر لا تطاق. توقفت القوات للاستراحة، حين وصلت إلى نهير صغير كان يجري في منتصف الطريق. وضع الجنود بنادقهم، وألقوا أنفسهم في النهير، وجلس آمر الكتيبة في الظل، على طبل، وأضفى على وجهه الممتلئ سمة رتبته العسكرية، واتخذ مجلسه مع بعض الضباط لتناول بعض الطعام. واستلقى النقيب على العشب تحت عربة السرية. واستقر الضابط الشجاع روزنكرانتس وبعض الضباط الشبان على مماطر لبادية مفروشة، وتهيأوا للشرب، كما كان ذلك واضحاً من القوارير والزجاجات الموضوعة بالقرب منهم، ومن الحيوية العاطفية الواضحة للمغنين الذين وقفوا أمامهم في نصف دائرة، وغنوا أغنية قفقاسية راقصة مصحوبة بصفير:

---

* تسمية تطلق على سكان اسكندنافيا . وكان لأمراء روسيا القديمة في القرون ٩ و١٠ و١١ الكثير منهم كحراس . وقد تعلموا لغة وثقافة السلاف الشرقيين وسرعان ما اندمجوا معهم. المترجم .

خطر ببال شامل أن يتمرد
في الأعوام الخوالي...
تراي - راي، را تا تاي...
في الأعوام الخوالي.

وكان من بين هؤلاء الضباط الملازم الثاني الشاب الذي تجاوزنا في الصباح. كان نشوان جداً، عيناه تلمعان، ولسانه يتلعثم قليلاً. وكان يود كثيراً أن يقبل الجميع، ويعلن عن حبه لهم... يا للصبي المسكين! إنه لم يعرف بعد أن من الممكن أن يكون مضحكاً وهو في هذا الوضع، وأن صراحته وتودداته التي أغدقها على الجميع لا تحمل الآخرين على الحب الذي كان يتوخاه كثيراً، بل على السخرية. كما لم يعرف أيضاً أنه كان فائق الفتنة، حين فرغ من الكلام وارتقى تلة في آخر الأمر وارتفق على يده، ودفع شعره الأسود الكثيف إلى الوراء. وجلس ضابطان تحت عربة، وعلى صندوق متاع يلعبان الورق.

كنت أصغي إلى أحاديث الجنود والضباط بفضول، وأمعن النظر في تعابير وجوههم. ولكنني لم أستطع قط أن أرى في وجه أي واحد منهم ذلك القلق الذي كان يساورني. فقد كانت النوادر والضحك والحكايات تعرب عن الأمان السائد، وعن عدم الاكتراث بالخطر المقبل. وكأن من المستحيل حتى الافتراض بأن بعضهم قد كتب له ألا يعود في هذا الطريق!

- ٥ -

بعد الساعة السادسة مساءً دخلنا متعبين مغبرين في البوابة العريضة المحصنة لقلعة ن ن. هبطت الشمس، وأرسلت أشعتها الوردية المائلة على البطاريات الصغيرة والبساتين الجميلة بأشجار الحور الباسقة.

المحيطة بالقلعة، وعلى الحقول المزروعة المصفرة وعلى الغيوم البيضاء التي كانت بتزاحمها قرب الجبال الثلجية، وكأنما تحاكيها، تكون سلسلة لا تقل عن سلسلتها عجاباً وجمالاً.

وكان الهلال الفتي، مثل غمامة صغيرة شفافة، يلوح في الأفق. وفي القرية التترية الواقعة قرب البوابة، كان المؤذن التتري، يؤذن على سطح بيت داعياً المؤمنين إلى الصلاة. وكان المغنون يصدحون بحمية جديدة وحيوية. استرحت قليلاً، وأزلت عني وعثاء الطريق، وقصدت مرافقاً من معارفي لأطلب إليه أن يرفع مرادي إلى الجنرال. في الطريق من الضاحية، التي حللت فيها، استطعت أن ألحظ في قلعة ن. ن. ما لم أتوقعه قط. جاوزتني عربة بديعة ذات مقعدين لاحت فيها قبعة على الموضة، وصدر منها كلام باللغة الفرنسية. وصدرت من نافذة بيت الناظر المفتوحة أصوات لحن «ليزانكا» أو «كاتينكا ـ بولكا» يعزف على بيانو رديء غير مضبوط.

ورأيت في الحانة التي مررت بها في الطريق بعض الكتبة عاكفين على أقداح النبيذ، والسجائر في أيديهم، وسمعت أحدهم يقول لآخر: «أرجو المعذرة... ماريا غريغوريفنا السيدة الأولى عندنا فيما يخص السياسة». ورأيت يهودياً محدودب الظهر سقيم الوجه في سترة رسمية مستهلكة يحمل أورغناً يدوياً مكسوراً يرسل أصواتاً موصوصة، وقد ترامت في الضاحية كلها أصوات الختام من «ليوتشيا*». ومرت بي بانسياب على الرصيف الخشبي امرأتان في ثوبين مخشخشين، تشدان

---

* «ليوتشيا دي لامير مور» ـ أوبر للموسيقي الإيطالي دونتستي (١٧٩٧٤ ـ ١٨٤٨) .

رأسيهما بمنديلين حريريين، وفي يديهما مظلتان زاهيتا الألوان. وكانت فتاتان، إحداهما في ثوب وردي، والأخرى في ثوب أزرق، وكلتاهما حاسرة الرأس، تقفان عند دكة بيت صغير منخفض، وترسلان ضحكة نحيلة بطريقة متكلفة، في رغبة واضحة لإثارة انتباه الضباط المارين. وكان الضباط في ستر رسمية جديدة، وقفازات بيض، وكتافيات لامعة يتخطرون في الشوارع والبولفار.

رأيت صاحبي في الطابق الأسفل لبيت الجنرال. وما كدت أبين له رغبتي، ويقول هو لي إن من الممكن جداً أن تنفذ، حتى سمعنا العربة البديعة، التي كنت قد لاحظتها من قبل، تمر مقرقعة بالشباك الذي كنا نقف عنده، وتقف عند مدخل البيت. خرج من العربة شاب رشيق طويل يرتدي سترة ضباط المشاة، ويضع على كتفيه كتافيتي ضابط برتبة رائد، ومر ذاهباً إلى الجنرال.

ـ آه، اعذرني أرجوك ـ قال لي المرافق ناهضاً من مكانه ـ يتحتم علي أن أبلغ الجنرال.

سألته: من جاء؟

ـ الكونتسة.

أجاب، وزر سترته، وركض إلى الأعلى.

وبعد بضع دقائق خرج إلى مدخل البيت رجل متوسط القامة فائق الوسامة في سترة عسكرية بلا كتافيات، على صدره صليب أبيض يتدلى من عروة. وفي أثره خرج الرائد، والمرافق، وضابطان آخران. وكان يستدل من مشية الجنرال وصوته وكل حركاته أنه رجل يعرف حق المعرفة ما له من قيمة رفيعة.

- Bonsoir, madame la comtesse* قال مقدماً يده في نافذة العربة.

صافحته يد صغيرة في قفاز من جلد الجدي، ولاح في نافذة العربة وجه صغير حلو التقاطيع مبتسم.

ومن كل الحديث الذي استمر بضع دقائق لم أسمع إلا ما قاله الجنرال مبتسماً، حين مررت بهما:

–Vous saver, que j'ai fait voeu de combattré les infidé les, prenez donc garde de deveir**.

وصدر ضحك في العربة.

–Adieu done, cher general***.

قال الجنرال صاعداً درجة من السلم:

–Non, à revoir n'oubliez pas, que je m'invite pour la soirée de demain****.

وتحركت العربة مواصلة قرقعتها.

«هذا إنسان آخر - فكرت مع نفسي، وأنا أعود إلى البيت - يملك كل ما يمكن أن يحرزه الروس: الرتبة، والغنى، والوجاهة، وهذا الإنسان في مواجهة معركة لا يعرف إلا الله بم ستنتهي، يمازح امرأة مليحة، ويعدها بأن يشرب عندها الشاي في اليوم التالي، وكأنما التقى بها في حفلة راقصة!».

---

* مساء الخير، يا كونتسة (بالفرنسية).

** أنت تعرفين أنني قطعت عهداً بمحاربة غير الأوفياء فحاولي أن لا تكوني غير وفية (بالفرنسية).

*** إذن، وداعاً، يا عزيزي الجنرال (بالفرنسية).

**** لا، بل إلى اللقاء، لا تنسي أنني طلبت أن تضيفيني عندك غداً مساء (بالفرنسية).

وهنا أيضاً، عند المرافق، التقيت برجل آخر أثار دهشتي أكثر. إنه الضابط الشاب ك، المتميز بجماله النسوي تقريباً، وبتهيبه، وقد جاء إلى المرافق يسكب له ضيقه وحنقه على أناس زعم أنهم كانوا يتآمرون عليه لكيلا ينسب للاشتراك في المعركة المقبلة. كان يقول إن هذا التصرف من جانبهم وضاعة، وغير رفاقي، وأنه سيتذكر ذلك إلى الأبد... وإلى آخر ذلك. ومهما دققت النظر في التعبير المرتسم على وجهه، ومهما أصغيت إلى نبرات صوته، لم أستطع أن أقتنع بأنه في سلوكه هذا بعض التصنع، بل كان متأثراً بعمق، ومغتماً من عدم سماحهم له بالخروج لرمي الشراكسة وبالتعرض لنيرانهم. وكان مغتماً ذلك الغم الذي يشعر به الطفل وقد تحمل لتوه ضرباً دون إنصاف... ولم أكن أفهم شيئاً البتة.

-٦-

كان يجب أن تتحرك القوات في الساعة العاشرة مساءً. في الساعة الثامنة والنصف ركبت حصاني، وذهبت إلى الجنرال، ولكنني توقفت في الخارج مفترضاً أن الجنرال ومرافقه مشغولان، وربطت حصاني إلى السياج، وجلست على الدكة، بغية أن ألحق بالجنرال، حالما يخرج من البيت.

كان حر الشمس وألقها قد زالا لتحل محلهما طراوة الليل، والضوء الهادئ للهلال الفتي الذي أخذ يهبط، مكوناً بالقرب منه نصف دائرة مضيئة شاحبة في الزرقة الداكنة للسماء ذات النجوم.

أخذت الأنوار تضيء في نوافذ البيوت وشقوق شبابيك المخابئ.

وكانت أشجار الحور الهرمية المشوقة في البساتين، والتي كانت تلوح في الأفق من وراء المخابئ المحفورة ذات السطوح من القصب، والمضاءة بالقمر، تبدو أكثر ارتفاعاً من حقيقتها، وأكثر اسوداداً.

وكانت الظلال الطويلة للبيوت، والأشجار، والأسيجة ترتمي جميلة على الطريق المترب المنور... وعلى النهر كانت الضفادع تصدح*، بلا انقطاع، وفي الشوارع كانت تتردد خطوات مسرعة وكلام تارة، وكركبة خيول تارة أخرى، ومن حين لآخر كانت تصل من الضاحية أصوات الأورغن اليدوي: «عويل العاصفة» مرة و Aurora- walzer** مرة أخرى.

لن أتحدث عما كان يشغل فكري. أولاً، لأن من المخجل أن أعترف بالأفكار السوداء التي كانت تتوارد على نفسي بشكل موصول، في حين لم ألحظ حولي غير المرح والفرح، وثانياً لأن ذلك لا يناسب قصتي. كنت منشغل الفكر بحيث لم ألحظ كيف قرع الناقوس مؤذناً بالساعة الحادية عشرة، ومر الجنرال بي مع حاشيته.

امتطيت حصاني على عجل، وهبطت لألحق بالفصيلة.

كان حرس المؤخرة ما يزال في بوابة القلعة. شققت طريقي بصعوبة بالغة على الجسر بين المدافع المحتشدة، والصناديق، وعربات السرايا، والضباط الذين كانوا يصدرون الأوامر بصخب. ولما خرجت من البوابة، التففت حول القوات المتحركة بصمت في الظلام والممتدة على مسافة فرسخ تقريباً، حتى لحقت بالجنرال.

ولدى مروري بالمدفعية المتصلة كبطارية واحدة، وبالضباط راكبي

---

* تصدر الضفادع في القفقاس أصواتاً ليس لها وجه شبه بنقيق الضفادع الروسية.

** «فالس الفجر».

الخيول بين المدافع أذهلني، كنشاز مهين وسط إيقاع احتفالي، صوت الماني صارخ: «اختينحيست، أطلق، تبا آاآلنيك!» وصوت جندي يصيح مسرعاً: «يا شيفتشنكو! الضابط يطلب... ناراً».

كان جزء كبير من السماء مغطى بسحب طويلة رمادية داكنة، وهنا وهناك فقط كانت النجوم تومض بينها غير ساطعة. واختفى الهلال وراء الأفق القريب للجبال السوداء التي كانت ترى إلى اليمين، وألقى على قممها ضوءه الباهت الواهن المرتعش، المغاير بشدة للظلام الحالك الذي يلف سفوحها. وكان الهواء دافئاً والسكون شاملاً حتى لكأن كل نصل عشب وكل غيمة قد جمدت.

وكانت الحلكة دامسة حتى كان من المستحيل تبين الأشياء حتى من أقرب مسافة. وكان يخيل إلي أنني أرى على جانبي الطريق صخوراً تارة، وحيوانات تارة أخرى، وأناساً غريبين تارة ثالثة، ولكنني كنت أتبين أنها أجمات، فيما بعد فقط، حين كنت أسمع حفيفها، وأحس بطراوة الندى الذي كان يغطيها.

كنت أرى أمامي جداراً أسود مرصوصاً متماوجاً كانت تعقبه بعض البقع المتحركة. وكانت هذه طليعة الخيالة والجنرال وحاشيته. وخلفنا كانت تتحرك كتلة سوداء مماثلة، ولكنها كانت أوطأ من الأولى. إنها المشاة.

وكان يسود الفصيلة كلها سكون تام حتى لكانت تسمع بوضوح كل أصوات الليل المتداخلة المفعمة بسحر غامض: عواء بنات آوى الموحش البعيد الذي كان يشبه البكاء اليائس أحياناً، والقهقهة أحياناً أخرى، والترجيعات الرنانة الرتيبة لجدجد ولضفدعة ولسماني، ودوي مقترب لم أستطع أن أوضح لنفسي مبعثه، وكل حركات الطبيعة الليلية هذه التي

لا تكاد تسمع، والتي يستحيل فهمها ولا تحديدها قد اندمجت في صوت واحد ممتلئ رائع نسميه نحن سكون الليل. وكان هذا السكون يتحطم، أو بالأحرى، يتداخل مع كركبة الحوافر الصماء، وحفيف العشب العالي، وهما ما كانت تصدره القوات المتحركة ببطء.

ومن حين لآخر فقط يسمع في الصفوف رنين مدفع ثقيل، وصوت تصادم حراب، وكلام مكتوم، وصهيل حصان.

كانت الطبيعة تعبق جمالاً متسامحاً وقوة.

أيعقل أن الناس يشعرون بالاكتظاظ في العيش في هذه الدنيا الرائعة، وتحت هذه النجوم التي لا تسبر؟ وهل يمكن حقاً أن يبقى في نفس الإنسان شعور الحقد والانتقام ونوازع القضاء على بني جنسه؟ يبدو لي أن كل ما في قلب الإنسان من شر لا بد سيختفي في تماسه بالطبيعة، بهذا التعبير الأعظم فصاحة عن الجمال والخير.

- ٧ -

سرنا أكثر من ساعتين. وكانت تنتابني رجفة، وأخذ النعاس يعقد أجفاني. وفي الظلام تراءت لي مطموسة المعالم نفس الأشياء غير الواضحة تلك: على مسافة بعيدة بعض الشيء الجدار الأسود، ونفس البقع المتحركة، وعلى مقربة دانية مني كفل حصان أبيض يهز ذيله، وقد أفرج قائمتيه الخلفيتين كثيراً، وظهر في سترة شركسية بيضاء تتأرجح عليه بندقية في غلاف أبيض، ويلوح رأس مسدس أبيض في غلاف مطرز، ورأس سيكارة مشتعل، يضيء شاربين أشقرين، وياقة من فراء القندس، ويداً في قفاز شموا.

انحنيت على عنق الفرس، وأغمضت عيني، وهومت لبضع دقائق، ثم بهرتني فجأة كركبة مألوفة وهسهسة، أجلت بصري، وخيل إلي أنني أقف في مكاني، وأن الجدار الأسود الذي كان أمامي زحف نحوي، أو أن هذا الجدار توقف، وأنني سأصطدم به بعد هنيهة. وفي إحدى هذه اللحظات بهرني، بشكل أقوى، ذلك الدوي المقترب الموصول الذي لم أستطع أن أحدد مبعثه. وكان ذلك هدير ماء. فقد كنا ندخل في مضيق جبلي عميق، ونقترب من نهر جبلي كان في ذلك الوقت في أوج فيضانه*. كان الدوي يشتد، والعشب الرطب يزداد كثافة وارتفاعاً، والأجمات تتكاثر، والأفق يضيق بالتدريج. ومن حين لآخر كانت نيران وهاجة تتقد في أماكن مختلفة على خلفية الجبال الموحشة، وتختفي في الحال.

سألت التتري الذي كان يسير على حصانه بالقرب مني:

- قل لي من فضلك: ما هذه النيران؟

أجاب: ألا تعرف؟

- لا أعرف.

- جبليون ربطوا قشاً على عصوات أشعلوها، ويروحون بها.

- ولأي شيء هذا؟

- لكي يعرف كل إنسان أن الروس قادمون والآن في القرى التترية جلبة وضوضاء، كل واحد يحمل أمتعته إلى الوهدة.

أضاف ذلك ضاحكاً.

سألت:

---

* فيضان الأنهار في القفقاس يحدث في شهر تموز (الملاحظة لليف تولستوي).

ـ هل من المعقول أنهم يعرفون أن القوات قادمة؟

ـ نعم، وكيف لا يعرفون! يعرفون دائماً، قومنا بهذا الشكل!

قلت:

ـ وشامل أيضاً يتهيأ للحملة؟

ايوك*، ـ أجاب هازاً رأسه نفياً ـ لن يخرج شامل في حملة، ولكن ينظر هو بالمنظار، من أعلى، يرسل نائباً.

ـ وهل هو يسكن بعيداً؟

ـ لا بعيداً. الجهة اليسرى، يطلع حوالي عشرة فراسخ.

سألته:

ـ ولماذا أنت تعرف؟ هل معقول أنك كنت هناك؟

ـ كنت، الجميع في الجبال كان.

ـ ورأيت شاملاً؟

ـ بيخ! شامل جماعتنا لن تراه. حوله مائة، ثلثمائة، ألف مريد، سيكون شامل في وسط. ـ أضاف بلهجة الاحترام المجامل.

استطعت أن ألحظ، حين رفعت بصري إلى فوق، أن السماء الصافية تماماً قد بدأت تتنور في الشرق، وأن بنات أطلس**، ينزلن نحو الأفق، إلا أن الجو في المضيق الجبلي الذي كنا نسير فيه كان رطباً وموحشاً.

وفجأة التمعت بضع نيران في الظلام على مسافة قريبة قدامنا، وفي تلك اللحظة أزت رصاصات زاعقة، ووسط السكون المحدق ترامت الطلقات بعيداً، وصرخة عالية مصمة. كان ذلك موقعاً أمامياً للعدو.

---

* تعني بالتترية : لا (الملاحظة لليف تولستوي) .

** مجموعة نجوم الثريا أو المجرة ـ المترجم .

فقد صرخ التتريون القائمون فيه تلك الصرخة، وراحوا يطلقون النار خبط عشواء، ويتفرقون بدداً.

سكت كل شيء. استدعى الجنرال الترجمان، فتقدم منه تتري في سترة شركسية بيضاء، وراح يهمس له عن شيء ما وبالإشارات، ولوقت طويل جداً.

قال الجنرال بصوت هادئ ممدود، ولكنه آمر:

ـ يا عقيد حسنوف، أوعز بنشر القوات.

تقدمت القوات من النهر. وبقيت جبال المضيق السوداء إلى الخلف. وبدأت الدنيا تتنور. ولاحت القبة السماوية التي كانت تتراءى فيها بالكاد نجوم شاحبة بلا لمعان، أعلى من ذي قبل، وبدأ البرق الخلب يلمع ساطعاً في الشرق، وتهب ريح طرية قارصة من الغرب، ويتصاعد ضباب منور، كالبخار، فوق النهر الهادر.

ـ ٨ ـ

أشار الدليل إلى مخاضة العبور، فأخذت مقدمة الخيال تعبر، وفي أثرها الجنرال وحاشيته. كان الماء يصل إلى صدور الخيل، ويندفع بقوة غير اعتيادية بين صخور بيضاء كانت في بعض الأماكن تبدو في مستوى الماء، وتشكل عند أقدام الخيل مسايل مزبدة هادرة. كانت الخيول تندهش من صخب الماء، فترفع رؤوسها، وتوتر آذانها، ولكنها كانت تسير بهدوء وحذر ضد التيار، على القاع المتعرج. وكان راكبوها يرفعون أرجلهم وبنادقهم. والجنود المشاة يجاهدون بقوة. وهذا ما كان يبدو من وجوههم المتوترة لاقتحام التيار، وقد تجردوا إلا من قمصانهم،

رافعين فوق الماء بنادقهم التي علقوا عليها صرر ملابسهم، في جماعات من عشرين رجلاً يمسك أحدهم بيد الآخر. وكان سائقو عربات المدافع ينزلون الخيول إلى الماء عدواً. وكانت المدافع والصناديق الخضراء التي كان الماء يرشقها من حين لآخر ترن على القاع الصخري، ولكن خيول البحر الأسود الطيبة هذه كانت تجر حمولتها بتآلف، وتثير الزبد في الماء، وتخرج على الشاطئ الآخر مبللة الذيول والأعراف.

وما كاد العبور ينتهي حتى أضفى الجنرال على وجهه فجأة مسحة انشغال البال والجدية، واستدار بفرسه، وانطلق مع كوكبة الفرسان إلى فرجة عريضة تكشفت أمامنا محفوفة بغابة. وتوزعت صفوف الفرسان القوزاق على طول حافات الغابة.

ويظهر في الغابة رجل ماش في سترة شركسية وقبعة فرائية، ثم ثان، وثالث... ويقول أحد الضباط: «هؤلاء تتر». وإذا بدخان قد ظهر من وراء شجرة... طلقة، وتصم طلقاتنا المتتابعة طلقات العدو. ومن حين لآخر فقط تدل رصاصة تمر بنا بصوت بطيء شبيه بحفيف نحلة في طيرانها على أن الطلقات ليست كلها من جانبنا. ويمر صف المشاة بخطوات سريعة، والمدافع تعدو بها الخيول. وتتردد إطلاقات المدافع المدوية، والصوت المعدني لطيران القذائف، وهسيس السهام النارية، وقرقعة البنادق. ويظهر الفرسان والمشاة والمدفعية من كل الجهات في الفرجة العريضة.

ويندمج دخان المدافع والسهام النارية والبنادق بالخضرة المخضلة بالندى وبالضباب، ويأتي العقيد حسنوف إلى الجنرال منطلقاً على فرسه، ويوقفه بحدة، وهو في ذروة انطلاقه.

ويقول، وهو يرفع يده إلى قبعته بالتحية:

ـ يا صاحب الفخامة: أصدروا أمركم بأن يهاجم الفرسان. فقد ظهرت الشارات* ـ ويشير بسوطه إلى التتر الخيالة الذين يسير في مقدمتهم رجلان على فرسين أبيضين، يرفعان قطعتين حمراء وزرقاء من القماش على عودين. فيقول الجنرال:

ـ في حفظ الله، يا ايفان ميخائيليتش!

ويستدير العقيد بفرسه وهو في مكانه، ويستل سيفه، ويصيح: «هورا!».

فتتردد في الصفوف صيحة الحرب هذه «هورا! هورا! هورا!».

وينطلق الفرسان خلفه.

وينظر الجميع بتعاطف. وتظهر شارة، وأخرى، وثالثة، ورابعة...

ويختفي العدو في الغابة، دون أن ينتظر الهجوم، ويطلق من هناك نيران بنادقه. ويتطاير الرصاص بتتابع مطرد.

- Quel charmant coup d'oeil!**

يقول الجنرال وهو ينط قليلاً وعلى طريقة الإنجليز على فرسه الأسحم الدقيق القوائم.

- Charrmant!

يجيب الرائد لاثغاً، ويقترب من الجنرال، وقد ساط حصانه بضربة ويقول:

- C'est un vrrai plaisirr, que la guerre dans un aussi beau pays.***

---

* الشارات عند الجبليين تعني الرايات على وجه التقريب ، مع فارق واحد هو أن كل فارس جبلي يستطيع أن يتخذ له شارة ، ويحملها (الملاحظة لليف تولستوي) .

** يا له من مشهد رائع! (بالفرنسية) .

*** مدهش! متعة حقيقية أن تحارب في بلاد جميلة كهذه (بالفرنسية) .

فيضيف الجنرال بابتسامة لطيفة:

- Et surtout en bonne compagnie* .

وينحني الرائد رداً للجميل.

وفي تلك اللحظة تمر قذيفة معادية بهسيس سريع منفر، وتصطدم بشيء ما، فيصدر أنين جريح من الخلف. ويذهلني هذا الأنين بشكل محير، حتى ليفقد مشهد الحرب كل فتنة عندي على الفور، ولكن لا يبدو أن أحداً غيري يلاحظ ذلك. فالرائد يضحك باستغراق شديد، على ما يبدو، وضابط آخر يكرر، بهدوء تام، الكلمات التي استهل بها الكلام، والجنرال ينظر في الجانب المقابل، وبأهدأ ابتسامة يقول شيئاً ما بالفرنسية. ويتقدم آمر المدفعية على فرسه، ويسأل:

ـ هل تأمرون بالرد على طلقاتهم؟

فيقول الجنرال بلا مبالاة، وهو يشعل سيغاراً:

ـ نعم، ارعبهم قليلاً.

وتصطف مدافع البطارية، ويبدأ القصف. وتئن الأرض من الإطلاقات، وتتوهج النيران باستمرار، ويغشي العيون دخان يكاد يتعذر من خلاله تبين الطاقم المتحرك قرب المدافع.

تقصف القرية التترية. ويتقدم العقيد حسنوف على فرسه مرة أخرى، وينطلق إلى القرية بإيعاز من الجنرال. وتصدر صيحة الحرب مرة أخرى، وتختفي الخيالة في سحابة الغبار التي أثارتها.

كان المشهد مهيباً حقاً. إلا أن شيئاً واحداً قد أفسد الانطباع العام بالنسبة لي كرجل لم يشترك في القتال وغير متعود عليه.

---

* لا سيما في صحبة طيبة (بالفرنسية) .

وقد بدا لي شيئاً زائداً، إنه الحركة والهياج والصياح. ودون أن أدري عن لي أن أشبه ذلك برجل يقطع الهواء بضربة قاضية من فأس.

-٩-

احتلت قواتنا القرية، ولم يبق فيها أي شخص معاد، حين تقدم منها الجنرال مع الحاشية التي اختلطت بها أنا أيضاً.

كانت بيوت القرية الطويلة النظيفة ذات السطوح الطينية المسطحة، والمداخن الجميلة تقع على رواب حجرية متعرجة يجري بينها نهر صغير. كانت ترى من أحد الجانبين بساتين خضراء مضاءة بنور الشمس الساطع وتشمخ فيها أشجار الكمثرى والبرقوق الضخمة، ومن الجانب الآخر تبرز ظلال غريبة، وأحجار ومقبرة عالية منتصبة عمودياً، وأعواد خشبية طويلة ثبتت في نهاياتها كرات، وأعلام مختلفة الألوان. (تلك هي قبور الشجعان).

وقفت القوات وراء البوابة بانتظام.

وبعد دقيقة توزع الفرسان والقوزاق والمشاة، بابتهاج ظاهر، في الأزقة الملتوية، وسرت الحياة في القرية الخاوية في الحال. هناك تنهار سقوف، وتضرب فأس بشجرة قوية، ويكسر باب خشبي، وهنا تحترق كومة دريس، وسياج، وبيت، ويرتفع عمود الدخان في الهواء الصافي. وهذا قوزاقي يخطف كيس طحين وبساطاً، وجندي مبتهج الوجه يخرج من بيت طستاً من التنك، وسملاً من الأسمال، وآخر يبسط ذراعيه يحاول أن يلتقط دجاجتين ترفرفان قرب سياج في قأقأة، وثالث وجد في مكان ما جفنة حليب، فيشرب منها، ثم يرميها على الأرض في ضحكة صاخبة.

وكانت الكتيبة التي جئت معها من القلعة «ن» في القرية أيضاً.

كان النقيب يجلس على سطح بيت، ويطلق من غليونه القصير خطوط دخان تبغه السمبراتالي، بعدم اكتراث شديد حتى إنني، حيث رأيته، نسيت أنني في قرية تترية معادية، بل بدا لي وكأنني في بيتي تماماً.

ولما لحظني قال:

ـ ها! وأنت أيضاً هنا؟

كانت قامة الملازم الأول روزنكرانتس الطويلة تلوح في القرية تارة هنا، وتارة هناك، وكان يصدر الأوامر بلا انقطاع، ويتخذ مظهر رجل مشغول للغاية، وقد رأيته يخرج من بيت بهيئة منتصر، وخرج عقبه جنديان يسوقان تترياً عجوزاً مشدود الوثاق. كان هذا العجوز الذي لا يرتدي غير بشمت مهلهل صارخ اللون، وبنطلون من الخرق، نحيفاً جداً، حتى لبدت ذراعاه العظميتان الموثوقتان بقوة وراء ظهره على وشك أن تنخلعا عن كتفيه، ورجلاه الحافيتان المعوجتان تتحركان بالإكراه. وكان وجهه بل وجانب من رأسه الحليق مخددين بأخاديد عميقة، وفمه المعوج الخالي من الأسنان، المؤطر بشاربين مشذبين أشيبين، ولحية شائبة يتحرك بلا انقطاع، وكأنه يمضغ شيئاً، ولكن البريق ما يزال يلمع في عينيه الحمراوين المجردتين من الأهداب، واستهانة الشيخوخة بالحياة تلوح ظاهرة عليه بوضوح.

سأله روزنكرانتس عن طريق الترجمان، لماذا لم يرحل مع الآخرين، فقال وهو ينظر إلى جانب بهدوء:

ـ وإلى أين أذهب؟

فذكر أحدهم:
ـ إلى حيث ذهب الآخرون.
ـ الفتيان ذوو البأس ذهبوا ليقاتلوا الروس، بينما أنا عجوز.
ـ وهل من المعقول أنك لا تخاف الروس؟
ـ وماذا سيفعل بي الروس؟ فأنا عجوز.
قال ثانية، وأجال بصره في استهانة بالحلقة التي أحاطت به.
وعندما عدت شاهدت هذا العجوز حاسر الرأس، موثوق اليدين ينظر حوله بنفس التعبير اللا مبالي، وهو يترنح وراء سرج قوزاقي من القوات النظامية. فقد كان العجوز ضرورياً عند مبادلة الأسرى.
صعدت على سطح، واتخذت مجلسي قرب النقيب. وقلت له، وأنا أريد أن اعرف رأيه في القتال الذي جرى:
ـ يبدو أن العدو كان قليل العدد.
ـ العدو؟ ـ كرر بدهشة ـ لم يكن له وجود على الإطلاق.
وهل هذا يسمى عدواً؟.. سترى في المساء ما إن نتراجع؛ حتى تراهم يشيعوننا، ويتناثرون في كل مكان! ـ أضاف مشيراً بغليونه إلى الغابة الصغيرة التي اجتزناها صباحاً.
ـ ما هذا؟ ـ سألت بقلق، مقاطعاً النقيب، ومشيراً إلى قوزاق الدون الذين اجتمعوا قرب شيء ما غير بعيد عنا.
وتردد بينهم ما يشبه بكاء طفل، وهذه الكلمات:
ـ لا، لا تطعنوه... قفوا... سيرون... يوجد سكين، يا يفستيغنيتش!... هات السكين.
قال النقيب بهدوء:

ـ الأوغاد، يقسمون شيئاً ما.

إلا أن الملازم الثاني الوسيم خرج فجأة في تلك اللحظة من وراء منعطف ملتهب الوجه مذعوراً، واندفع نحو القوزاق مشمراً ذراعيه وصاح بصوت طفولي: لا تمسوه، لا تقتلوه!!

ولما رأى القوزاق الضابط انفرج جمعهم، وأطلقوا من أيديهم جدياً أبيض. كان الملازم الثاني الشاب مذهولاً تماماً، يتمتم بشيء ما، وقد توقف أمام الجدي مصعوق السحنة. وحين رآني على السطح مع النقيب، اشتد احمرار وجهه، وركض نحونا ناطاً، وقال وهو يبتسم ابتسامة حيية:

ـ ظننت أنهم يريدون قتل طفل.

ـ ١٠ ـ

سار الجنرال والخيالة في المقدمة. بينما بقيت في المؤخرة الكتيبة التي جئت معها من القلعة «ن». وتراجعت سريتا خلوبوف والملازم الأول روزنكرانتس سوية.

وتحقق تكهن النقيب تماماً. فما كدنا ندخل الغابة الصغيرة الضيقة التي ذكرها، حتى راح الجبليون خيالة ومشاة يتراءون من كلا الجانبين بلا انقطاع، وعلى مقربة شديدة حتى إنني كنت أرى بشكل جيد أفراداً منهم ينحنون والبنادق في أيديهم، ويتراكضون من شجرة إلى أخرى.

خلع النقيب قبعته، ورسم علامة الصليب بتقوى، وفعل بعض الجنود كبار السن مثله. وترددت في الغابة جمجمة وكلمات «إياي غياور! أوروس إياي!». وتتابعت طلقات جافة قصيرة من بنادق واحدة تلو الأخرى، وأز الرصاص من كلا الجانبين. كان رجالنا يردون صامتين

بنار خاطفة، ومن حين لآخر فقط كانت تردد في صفوفهم ملاحظات من مثل «هو الأبعد*، يضرب من مكان ما. يستفيد من الغابة. أحسن لو كانت المدفعية تطلق...» إلى غير ذلك.

كانت المدافع تدخل في القتال، وبعد عدة قذائف، بدا وكأن العدو آخذ بالضعف. ولكن بعد برهة عادت النار والصيحات والجمجمة تشتد مع كل خطوة تخطوها القوات.

وما كدنا نتراجع حوالي ثلثمائة ذراع عن القرية، حتى أخذت قذائف العدو تتطاير فوقنا مرسلة صفيراً، وقد شاهدت قذيفة تقتل جندياً... ولكن ما الحاجة إلى رواية تفاصيل هذه اللوحة الرهيبة، إذا كنت أنا نفسي أتمنى لو أنساها!

كان الملازم الأول روزنكرانتس نفسه يطلق النار من بندقية، ويصرخ بالجنود بصوت مبحوح، ودون انقطاع، وينطلق بأقصى سرعة فرسه من طرف الصف إلى طرفه الآخر. كان ممتقعاً قليلاً، وكان ذلك يناسب جداً مسحة وجهه المعارك.

كان الملازم الثاني الوسيم في غاية النشوة، عيناه السوداوان الجميلتان تتألقان جرأة، وفمه يفتر عن ابتسامة خفيفة، وكان يتردد على النقيب باستمرار، ويطلب منه الإذن بالهجوم. وكان يقول بقناعة:

- سنصدهم، سنصدهم بالتأكيد.

فكان النقيب يجيب باقتضاب:

- لا حاجة. يجب التراجع.

---

* المقصود في «الأبعد» العدو - المترجم.

كانت سرية النقيب تحتل حافة الغابة، وتتناوش مع العدو متخذة وضع الاستلقاء. وكان النقيب يقف صامتاً في مكان واحد في سترته المستهلكة، وقبعته المحكوكة، وقد أرخى عنان فرسه الأبيض، وعكف رجليه على الركابين القصيرين (كان الجنود يعرفون ويقومون بعملهم بشكل جيد لا يدع له حاجة لأن يصدر الأوامر لهم) سوى أنه من حين لآخر يرفع صوته، وهو يصيح على الذين يرفعون رؤوسهم.

لم يكن في شخص النقيب إلا القليل جداً من مظهر المقاتل الميال للحرب، ولكنه كان، بالمقابل، ينطوي على الكثير جداً من الصدق والبساطة، إلى حد أثار في انبهاراً غير اعتيادي، حتى وجدت نفسي أردد في سري «هذا هو الشجاع حقاً».

كان تماماً على مثل ما كنت أراه دائماً: نفس الحركات الهادئة، نفس الصوت السبط، نفس مسحة الصفاء المرتسمة على وجهه العاطل عن الجمال، والبسيط في نفس الوقت، إلا أن نظرته الوضاحة أكثر من المعتاد كانت وحدها يمكن أن تريك فيه اهتمام رجل يمارس عمله بهدوء. من البساطة القول: كان على مثل ما هو دائماً. ولكن ما أكثر ما كنت ألحظ في الآخرين من مختلف أوجه التباين: أحدهم يريد أن يظهر أكثر هدوءاً مما هو عليه في العادة، وآخر أكثر صرامة، وثالث أكثر مرحاً. ومن وجه النقيب تلحظ أنه لا يفهم لم هذا التظاهر.

إن الفرنسي الذي قال في واترلو La garde meurt, mais ne se rend pas* والآخرين، ولا سيما الأبطال الفرنسيين الذين كانوا ينطقون بأقوال

* «الفارس يموت ولا يستسلم» (بالفرنسية).

مأثورة جديرة بالحفظ كانوا شجعاناً، وكانوا، بالفعل، ينطقون بأقوال مأثورة جديرة بالحفظ، إلا أن هناك فارقاً بين شجاعتهم وشجاعة النقيب، وهذا الفارق هو أن بطلي لا يمكن أن ينطق، وأنا واثق من ذلك، بأية كلمة عظيمة، مهما تكن المناسبة، وحتى لو حركت لواعج نفسه. ذلك، أولاً، لأنه لو نطق بهذه الكلمة العظيمة فإنه سيخاف أن يفسد بها قضيته العظيمة، وثانياً لأن الإنسان، حين يشعر في نفسه القوة على الإتيان بعمل عظيم، فليس من حاجة إلى أية كلمة مهما تكن. وهذه، حسب رأيي، خصلة رفيعة منفردة للشجاعة الروسية، فكيف لا يتألم قلب الروسي، بعد هذا، حين تتردد بين مقاتلينا الشبان عبارات فرنسية وضيعة تدعي محاكاة الفروسية الفرنسية القديمة؟...

فجأة ترددت «هورا» خافتة غير منتظمة في الجانب الذي كان يقف فيه الملازم الثاني الوسيم مع مفرزته. التفت على هذه الصيحة، فرأيت حوالي ثلاثين جندياً يتراكضون بصعوبة شديدة في حقل محروث والبنادق في أيديهم، والأكياس على أكتافهم. كانوا يتعثرون، ولكنهم كانوا يواصلون الزحف إلى الأمام، ويصيحون.

وكان الملازم الثاني الشاب يعدو على فرسه في مقدمتهم، وقد جرد سيفه.

واختفى كل شيء في الغابة...

وبعد بضع دقائق من الجمجمة والقرقعة، خرج من الغابة حصان مذعور، وظهر في طرف الغابة جنود يحملون قتلى وجرحى، وكان الملازم الثاني الشاب بين الآخرين، كان جنديان يسندانه من تحت إبطيه. كان شاحباً كالقماشة البيضاء، ورأسه الجميل قد غار بين كتفيه بشكل

غريب، وتدلى على صدره، ولم يبق غير ظل من تلك النشوة القتالية التي كانت تشيع فيه الحماس قبل لحظة. كانت لطخة دم صغيرة تلوح على قميصه الأبيض تحت السترة المحلولة الأزرار.

ـ آوه، يا خسارة!

وجدت نفسي أقول ذلك، وأشحت بوجهي عن هذا المنظر المحزن.

ـ خسارة، بالطبع ـ قال جندي عجوز كان يقف بالقرب مني جهم المحيا، يسند مرفقه على بندقيته ـ لا يخاف شيئاً، وكيف يجوز هذا! ـ أضاف وهو يتفرس في الجريح ـ ثم إنه أحمق، فدفع الثمن.

سألته: وهل أنت تخاف حقاً؟

ـ وكيف لا!

ـ١١ـ

حمل أربعة جنود الملازم الثاني على نقالة، وخلفهم ساق جندي حصاناً أعجف محطماً يرزح تحت ثقل صندوقين أخضرين يحتويان على لوازم مساعد طبيب. وكانوا في انتظار مجيء الطبيب. وكان الضباط يقتربون من النقالة، ويحاولون التسرية عن الجريح.

اقترب الملازم الأول روزنكرانتس، وقال بابتسامة:

ـ حسناً، يا أخ الأنين، أمامنا متسع من الوقت لنعود إلى الرقص على نقر الملاعق الخشبية.

ولعله افترض أن كلماته هذه ترفع همة الملازم الثاني الجريح، إلا أنها لم تحقق المرتجى منها، على قدر ما كان من الممكن ملاحظته من التعبير الحزين البارد في نظرة الجريح.

وأقبل النقيب أيضاً على فرسه. تفرس في الجريح، ولاح أسف صادق على وجهه الرصين غير المكترث على الدوام.

- ما هذا، يا عزيزي أناتولي ايفانوفيتش؟ - قال بصوت يفيض بمشاركة عاطفية رقيقة لم أتوقعها - يبدو أنها مشيئة الله.

التفت الجريح، وانتعش وجهه الشاحب بابتسامة آسية :

- نعم، لم أسمع كلامك.

فكرر النقيب قائلاً:

- الأفضل أن تقول: هذه مشيئة الله.

وصل الطبيب، وتناول من مساعده الضمادات والمسبر واللوازم الأخرى، وتقدم من الجريح بابتسامة مشجعة، وهو يطوي كميه. وقال بلهجة مازحة مهونة:

- يعني أنت أيضاً صنعوا لك ثقباً في موضع سليم. هيا، أرني.

وامتثل الملازم الثاني، ولكنه نظر إلى الطبيب المرح نظرة انطوت على دهشة وعتاب لم يلحظهما هذا الأخير. وبدأ الطبيب يسبر الجرح، ويفحصه من جميع الجهات، إلا أن الجريح دفع يده بأنين ثقيل، وقد فقد قدرته على التحمل. وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- اتركني، سأموت على أية حال.

وبهذه الكلمات سقط على ظهره، وبعد خمس دقائق، حين تقدمت من الجماعة التي التفت بالقرب منه، وسألت أحد الجنود «كيف الملازم الثاني؟» أجابني بأنه «يحتضر».

كان الوقت متأخراً، حين اقتربت الفصيلة من القلعة في طابور عريض، وهي تنشد الأغاني.

اختفت الشمس وراء الجبال الثلجية، تلقي أشعتها الوردية الأخيرة على غيمة خفيفة طويلة ظلت على الأفق الصافي الشفاف.

وأخذت الجبال الثلجية تتوارى في ضباب ليلكي، وخطها الأعلى وحده كان يرتسم بوضوح شديد في ضوء الشفق الأرجواني. وأخذ الهلال الشفاف الذي طلع منذ وقت طويل يلوح أبيض على زرقة السماء الداكنة. خضرة العشب والأشجار تبدو سوداء، متسربلة بالندى. كانت كتل القوات المعتمة تضج ضجيجاً مسالماً، وتتحرك في مرجة أثيثة، وترددت أصوات الدفوف والطبول والأغاني المرحة من مختلف الجهات. وكان منشد السرية السادسة يصدح بأعلى صوته، ورنات صوته الصدري الصافي تنداح بعيداً في الهواء المسائي الشفاف مفعمة بالعاطفة والقوة.

١٨٥٢

الفارسان
رواية قصيرة

مهداة إلى الكونتسة م . ن . تولستايا

« . . . جوميني ، جوميني ،
لا تأت على الفود كا بذ كر . . . »
د . دافيدوف

في الثمانينات من القرن الثامن عشر، حين لم تكن هناك سكك حديدية ولا طرق عامة، ولا ضوء غاز، ولا شموع الستيارين، ولا أرائك واطئة لها نوابض، ولا أثاث بدون ورنيش، ولا شبان خائبو الأمل ذوو نظارات أنفية، ولا فيلسوفات ليبراليات، ولا غادات كاميليا رقيقات ممن تكاثرن هذه الكثرة في زمننا، في تلك الأوقات الساذجة، حيث كان يستغرق السفر من موسكو إلى بطرسبورغ ثمانية أيام بلياليها في عربة خاصة أو عامة مثقلة بمطبخ كامل من الزاد البيتي، في طريق مترب ناعم أو موحل، حيث يسلم المسافر أمره إلى الكفتة المقلية، وأجراس فلداي والكعك المدور، وحين توقد الشموع الشحمية في الأمسيات الخريفية

الطويلة، مضيئة الحلقات العائلية المؤلفة من عشرين وثلاثين في الحفلات الراقصة المضاءة بالشمعدانات من قناديل الشمع أو زيت الحوت العنبري، حين كانت الأثاث توزع هندسياً، وآباؤنا ما زالوا شباناً ليس فقط بخلوهم من التجاعيد والشعر الأشيب، بل وتبارزهم من أجل النساء، ووثوبهم من ركن في الغرفة إلى الآخر ليرفعوا مناديل سقطت مصادفة أو تعمداً، وأمهاتنا يلبسن ثياباً عالية الخصر عريضة الأكمام، ويحسمن كل شؤون العائلة بكشف الورق، وحين كانت غادات الكاميليا الفاتنات يتخفين من نور النهار ـ في تلك الأوقات الساذجة، أوقات المقاصر الماسونية، وأتباع سان مارتين وتوغندبوند، في زمن ميلورادوفيتش، ودافيدوف وبوشكين انعقد في مدينة ك... حاضرة الولاية مؤتمر لأصحاب الأطيان انتهى بانتخابات الأشراف.

ـ ١ ـ

ـ طيب، لا بأس، وليكن في الصالة، ـ قال ضابط شاب في معطف فرائي، وقبعة فرسان نزل لتوه من زلاجة سفر، وهو يدخل أحسن فندق في مدينة ك.

ـ المؤتمر، يا مولاي، يا صاحب اللياقة، ضخم، ـ كان الخادم موزع الغرف يقول وقد عرف من المرافق أن الفارس يدعى الكونت توربين، ولهذا كرمه بلقب «صاحب اللياقة». ـ وقد وعدت صاحبة ضيعة أفريموفسكويا أن ترحل مع بناتها عند المساء.

ولكم أن تتفضلوا بالنزول في الغرفة رقم ١١، حالما تفرغ، ـ وكان يتكلم برقة متراجعاً في الممر أمام الكونت، دائم التلفت.

وفي الصالة العامة كان بضعة أشخاص، هم في أغلب الظن نبلاء من أهل هذه الأنحاء يجلسون إلى مائدة صغيرة أمام زجاجة شمبانيا، على مقربة من صورة مسودة تمثل الإمبراطور الكسندر بطول قامته، بينما جلس في ناحية عنهم تجار مسافرون في معاطف فرائية زرقاء.

وحين دخل الكونت الصالة دعا «بليوخر»، وهو كلب صيد ضخم رمادي كان يرافقه في سفره، وألقى معطفه الذي ما يزال الجمد عالقاً في ياقته وطلب شيئاً من الفودكا، وبقي في صداره الأطلسي الأزرق، وجلس إلى المائدة، ودخل في حديث مع السادة الجالسين هناك، والذين جذبهم على الفور مظهر القادم الجميل المكشوف، فعرضوا عليه قدح شمبانيا. شرب الكونت قدح الفودكا في البداية، ثم طلب أيضاً زجاجة ليستضيف معارفه الجدد. جاء الحوذي يطلب نقوداً لشراء الفودكا. صاح الكونت:

ـ ساشكا، أعطه!

خرج الحوذي مع ساشكا، وعاد من جديد، يضع النقود على يده.

ـ ما هذا، يا مولاي، أظنني خدمتك حسب الأصول! فوعدتني بنصف روبل، ولكنهم أعطوني الربع.

ـ ساشكا! أعطه نصف روبل.

أطرق ساشكا ببصره، ونظر إلى قدمي الحوذي، وقال بصوت خشن:

ـ يكفيه هذا. كما لا توجد فلوس عندي.

تناول الكونت من محفظة نقوده ورقتين زرقاوين كانتا الوحيدتين فيه، وأعطى واحدة للحوذي الذي قبل يده، وخرج. قال الكونت:

ـ إلى هذا الحد وصلت. آخر خمسة روبلات.

ـ على طريقة الفرسان، يا كونت، ـ قال أحد النبلاء مبتسماً وكان

يبدو من سلاح الفرسان المتقاعدين بما توحي به شارباه وصوته، وطلاقة قدميه الحيويتين. ـ أتنوي البقاء طويلاً هنا، يا كونت؟

ـ يجب الحصول على نقود، وإلا لن أبقى. كما لا توجد غرف شاغرة هنا. تخطفهم الشيطان في هذه الحانة الملعونة...

فبادر الفارس المتقاعد يقول:

ـ ألا تحب، يا كونت، أن تتفضل عندي؟ هنا، في الغرفة رقم ٧. اقض ليلتك عندي مؤقتاً، إذا كنت لا تستنكف. ستمكث عندنا ثلاثة أيام. واليوم ستقام حفلة راقصة في بيت عميد الأشراف. وسيكون العميد مسروراً بك!

فأيده أحد المسامرين، وهو شاب وسيم، إذ قال:

ـ بالفعل، يا كونت، أقم عندنا. فما حاجتك إلى العجالة!

فالانتخابات تحصل مرة كل ثلاث سنوات. على الأقل لو متعت نظرك في أوانسنا، يا كونت!

قال الكونت ناهضاً:

ـ ساشكا! قدم البياضات، سأغتسل في الحمام. وبعد ذلك سنرى، قد أذهب بالفعل إلى عميد الأشراف.

ثم استدعى النادل، وتكلم معه عن شيء ما، فكشر النادل، وأجاب ـ «بالطبع، كل شيء تطوله يد الإنسان»، وخرج.

وصاح الكونت من وراء الباب:

ـ إذن، يا عزيزي، لقد طلبت نقل حقيبتي إلى غرفتك.

ـ تفضل، ستسعدني، غرفة رقم ٧! لا تنس.

ولما تلاشى وقع خطاه عن السماع عاد الفارس إلى مكانه وجلس بالقرب من الموظف، ونظر إلى وجهه بعينين باسمتين، وقال:

ـ إنه ذلك الرجل بعينه.

ـ صحيح؟

ـ خذها كلمة مني. إنه نفس الفارس المبارز، توربين، الشهير. وقد عرفني، أراهن على أنه عرفني. وكيف وقد تنادمنا سوية في ليبديان ثلاثة أسابيع دون انقطاع، حين كنت في مهمة شراء الخيول. وقد حصل لنا حادث، وقعنا فيه سوية. ولهذا تراه يتغاضى عني فلا يعرفني. ولكنه فتى شاطر، ها؟

أجاب الشاب الوسيم:

ـ شاطر. وكم هو لطيف المعشر! لا يظهر عليه شيء، وتآلفتما بسرعة... أظنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

ـ لا، هذا ما يبدو للعيان، ولكنه أكبر سناً. ثم يجب أن تعرف من هو؟ من اختطف ميغنوفا؟ هو. وهو الذي قتل سابلين. وأنزل ماتنيف ماسكاً برجليه من النافذة. وهو الذي ربح من نيستروف ثلاثمئة ألف روبل. ذلك هو، طائش نزق! مقامر، مبارز، غاو. ولكنه فارس في معدنه، معدن أصيل. الناس تعرفنا بالاسم فقط، فليت أحداً منهم يفهم ما يعني الفارس الأصيل، آه، يا لذلك العهد القديم!

وحكى ضابط الخيالة لمحدثه كيف قضى مع الكونت في ليبديان مجلس شرب وقصف ليس فقط لم يكن له مثيل، بل ولا يمكن أن يكون. ولا يمكن أن يكون أولاً لأنه لم يكن قد رأى الكونت من قبل، واستقال من الجيش، قبل دخول الكونت إليه بسنتين، وثانياً لأن ضابط الخيالة لم يخدم قط في سلاح الفرسان، بل خدم أربعة أعوام طالب عسكرية متواضعاً في فوج بيلفسكي، وما كان يترقى إلى ضابط برتبة ملازم ثان

حتى تقاعد. ولكنه حين حصل على ميراث، قبل عشرة أعوام سافر، بالفعل، إلى ليبديان، وبدد على الشراب والملذات سبعمائة روبل مع الضباط المكلفين بشراء الخيول، وفصل لنفسه بزة أولان، بطية ردن برتقالية ليدخل سلاح الأولان. وبقيت في نفسه الرغبة في الانضمام إلى سلاح الخيالة، والأسابيع الثلاثة التي قضاها مع مشتري الخيول في ليبديان أبهج وأسعد فترة في حياته، حتى إن هذه الرغبة حولها، في البداية، إلى واقع، حتى صار يؤمن إيماناً قوياً بماضيه الفروسي، وهو شيء لم يعقه عن أن يكون في رقة القلب والنزاهة رجلاً معتبراً عن حق.

ـ نعم، من لم يخدم في سلاح الفرسان لن يفهم جماعتنا. ـ وامتطى المقعد كما يمتطي حصاناً، ودفع فكه الأسفل، وأخذ يقول بصوت عالي النبرة ـ أحياناً أسير أمام الكوكبة، ممتطياً شيطاناً قفازاً لا فرساً، أجلس، كالشيطان نفسه. فيتقدم آمر الكوكبة في التفتيش. ويقول: «يا ضابط، أرجوك، اعتمادنا عليك. سر بالكوكبة للاستعراض». فأقول: حسناً، وأصدع بالأمر! وأدور، وأصيح، على رجالي المشوربين. آه، اللعنة، أي زمن كان!

عاد الكونت من الحمام محمراً بكليته، مبلل الشعر، واتجه قدماً إلى الغرفة رقم ٧، حيث رأى ضابط الخيالة جالساً في روبه البيتي، يدخن غليونه، ويفكر باستمتاع وبشيء من الفزع أي مصادفة حسنة تلك التي دفعت به إلى أن يعيش مع توربين الشهير في غرفة واحدة، وكان يفكر في سره: «طيب، ماذا لو يمسكني فجأة، ويعريني ويأخذني إلى ما وراء السدة، ويجلسني على الثلج، أو يطليني بالقطران أو مجرد... لا ـ كان يسري عن نفسه ـ لن يفعل احتراماً للرفقة».

صاح الكونت:

ـ ساشكا، اطعم بليوخر!

ظهر ساشكا، وكان قد شرب في الطريق قدح فودكا، وثمل بشكل معتبر.

ـ لم تصطبر، وشربت، يا رذيل!... اطعم بليوخر!

أجاب ساشكا، وهو يمسد الكلب:

ـ لا يموت جوعاً خلال هذه الفترة. أنظر، كيف هو سلس.

ـ اسكت، ولا ترد! اذهب وأطعمه.

ـ أنت لا يهمك إلا أن يكون الكلب شبعان. أما إذا شرب الإنسان قدحاً وقعت عليه باللوم والتقريع.

ـ إش، سأضربك! ـ صاح الكونت بصوت جعل زجاج النوافذ يرن، بل وأدخل بعض الرعب في قلب ضابط الخيالة.

ـ كان الأحرى بك أن تسأل هل أكل ساشكا اليوم شيئاً.

تفضل، اضربني، إذا كان الكلب أعز عليك من الإنسان، ـ قال ساشكا ذلك، إلا أنه تلقى في الحال ضربة رهيبة على وجهه بجمع اليد، أوقعته أرضاً، وارتطم رأسه بقائمة السرير. وثب ساشكا إلى الباب ماسكاً أنفه بيده، وانهد على صندوق في الممر.

ـ حطم أسناني، ـ تمتم ساشكا، ماسحاً أنفه المدمى بيد، حاكاً بالأخرى ظهر بليوخر الذي كان يلعقه، ـ حطم أسناني. ومع ذلك فهو سيدي الكونت. وفي سبيله أرمي نفسي في النار لأنه سيدي الكونت، أتفهم، يا بليوخر؟ هل أنت جوعان؟

استلقى قليلاً، ونهض، وأطعم الكلب، وذهب صاحياً تقريباً، يخدم سيده الكونت، ويعرض عليه الشاي.

قال ضابط الخيالة بتهيب، وهو واقف أمام الكونت الذي كان مستلقياً على فراش الضباط، واضعاً قدميه على قائمة السرير:

ـ أنت تجرحني حقاً. فأنا أيضاً، كما يمكن أن أقول، محارب قديم ورفيق. ومستعد أن أقدم لك مائتي روبل بسرور بدلاً من أن تستدين من أحد ما. ولكن ليس في حوزتي هذا المبلغ الآن. عندي مائة روبل إلا أنني سأحصل عليه اليوم. أنت تجرحني حقاً، يا كونت!

ـ شكراً، شكراً. ـ قال الكونت، وقد حدس على الفور نوع العلاقة الذي كان يجب أن ينشأ بينهما، مربتاً على كتف الضابط. ـ شكراً، إذا كان الأمر كذلك فسنذهب إلى الحفلة الراقصة أيضاً. أما الآن فماذا سنفعل؟ حدثني ماذا عندكم في المدينة: هل هناك جميلات؟ هل هناك من يشرب ويمرح؟ ومن يلعب الورق؟

أوضح ضابط الخيالة أن الحفلة الراقصة ستكون غاصة بالجميلات، وأن آمر الشرطة كولكوف المنتخب مجدداً أكثر الناس ولعاً بالشرب والمرح، ولكنه يفتقر إلى جرأة الفارس الأصيل، سوى أنه لطيف طيب، وأن فرقة إليوشكا الغجرية للغناء تغني هنا منذ بداية الانتخابات، وأن ستشكا ستغني، وأن الجميع سيذهبون إليها اليوم بعد حفلة العميد.

ثم راح يقول:

ـ أما لعب الورق ففي حالة معتبرة. لوخونوف الزائر يلعب بالنقود، أما إيلين الذي يسكن الغرفة رقم ٨، وهو ضابط أولاني*، فيخسر الكثير أيضاً. وقد بدأ الدورة بالفعل. في كل مساء يلعب، وما أروعه، وألطفه، خذها كلمة صدق مني يا كونت.

---

* أولان : سلاح خيالة كان في الجيش القيصري ، وبعض الجيوش الأخرى كان أفراده في بادئ الأمر مسلحين بالرماح . المترجم .

وإيلين هذا لا يبخل بشيء، يعطي آخر قميص له.

قال الكونت:

ـ إذن، لنذهب إليه. ولنر أي إنسان هو.

ـ لنذهب، لنذهب! سيكون في غاية السرور.

ـ ٢ ـ

كان الضابط الأولاني إيلين قد استيقظ منذ وقت قصير. وكان في عشية البارحة قد جلس إلى طاولة اللعب في الساعة الثامنة مساءً، وظل يلعب طوال خمس عشرة ساعة متوالية، حتى الحادية عشرة صباحاً. وقد خسر كثيراً، ولكنه لا يعرف كم على وجه التحديد، فقد كان لديه حوالي ثلاثة آلاف من نقوده الخاصة، وخمسة عشر ألف روبل حكومية كان قد خلطها مع نقوده منذ زمان، وكان يخاف أن يجرد الحساب خشية أن يتيقن مما كان يهجسه، فيعرف كم خسر من نقود الحكومة أيضاً، وغط، عند الظهر، في نوم ثقيل بلا أحلام، ولا ينامه إلا شاب في مقتبل العمر، وبعد خسارة جسيمة. استيقظ في الساعة السادسة، في نفس الوقت الذي وصل فيه الكونت توربين إلى الفندق، ورأى حوله على الأرض ورق لعب وطبشوراً، وطاولات ملطخة في وسط الغرفة، فتذكر بذعر لعب البارحة، والورقة الأخيرة ـ الولد الذي جعله يخسر خمسمائة روبل، ولكنه، وهو ما يزال لا يعي الواقع جيداً، أخرج النقود من تحت الوسادة، وأخذ يعدها. وعرف الأوراق النقدية التي تداولتها الأيدي مرات عديدة وتذكر سير اللعب كله. آلافه الثلاثة لم تعد في الوجود، كما أن الأموال الحكومية نقصت ألفين وخمسمائة روبل.

فقد ظل الضابط الأولاني يلعب القمار أربع ليال متتالية.

وكان قد قدم من موسكو، حيث تسلم النقود الحكومية. وفي مدينة ك. أخره ناظر محطة الخيول متحججاً بأن ليس لديه خيول يستبدلها بخيوله، ولكنه في حقيقة الأمر، بناء على تواطؤ مع صاحب الفندق لتأخير المسافرين يوماً واحداً. وقد سر الأولاني بأن يمكث بضعة أيام في مدينة ك. أثناء الانتخابات، وهو الفتى اليافع، المراح الذي تسلم لتوه من والديه في موسكو ثلاثة آلاف روبل لسد احتياجاته في الفوج، فقد كان يأمل بأن ينال من المرحل مبتغاه. وكان له صاحب هو مالك أراض ورب عائلة، فتهيأ للذهاب إليه، ومغازلة بناته، وإذا بضابط الخيالة يظهر، ويتعارف مع الأولاني في نفس المساء وبدون أية نية سيئة قاده إلى الصالة العامة وعرفه على لوخنوف والمقامرين الآخرين من معارفه. ومنذ ذلك المساء جلس الأولاني إلى مائدة القمار، ولم يذهب لزيارة صاحبه مالك الأراضي، بل ولم يعد يسأل عن تزويده بالخيول، ولازم الغرفة أربعة أيام.

لبس الأولاني ملابسه، وشرب الشاي، ودنا من النافذة. كان يود لو يتمشى حتى يطرد ذكريات اللعب الدوارة في ذهنه. لبس معطفه، وخرج إلى الشارع. كانت الشمس قد احتجبت وراء البيوت البيضاء ذات السقوف الحمراء، وهبط الغسق. وكان الجو دافئاً.

وكانت ندف الثلج الرخو تسقط بهدوء على الشوارع الموحلة. وفجأة شعر الأولاني بكآبة لا نطاق من التفكير بأنه نام طيلة هذا النهار الآفل. وفكر في نفسه: «هذا اليوم الذي انتهى لن يعود أبداً».

وقال لنفسه فجأة: «أتلفت شبابي»، ـ لا لأنه كان يعتقد فعلاً بأنه

أتلف شبابه ـ فهو منذ زمن بعيد لم يفكر في ذلك قط ـ بل لأن هذه العبارة خطرت في ذهنه.

وأخذ يفكر: «ماذا سأفعل الآن؟ أن أستدين من أحد وأرحل» ـ مرت غادة على الرصيف. وفكر بدون أي سبب: «هذه غادة بلهاء، ليس لي من أستدين منه. لقد أتلفت شبابي». تقدم من صفوف الدكاكين. كان أحد التجار في معطف من فراء الثعلب يقف عند دكانه، يدعو المشترين إليه.. «لو لم أسحب ورقة الثمانية لأسترجعت خسارتي». ولولت متسولة عجوز متعقبة إياه. «ليس لي من أستدين منه». مر سيد في معطف من فراء الدب. شرطي الحراسة واقف في كشكه. «علام أقدم لأثير الانتباه؟ أطلق النار على الناس؟ لا، شيء مضجر! أتلفت شبابي. آه، أي مشدات رائعة وعدة خيول تعرض للبيع. ليتني أركب عربة ثلاثية الخيول وأقول لها يا أعزائي! أعود إلى البيت. بعد قليل سيأتي لوخنوف، وسنلعب». عاد إلى البيت، وعد النقود مرة أخرى. لا، إنه لم يخطئ في عدها أول مرة. تيقن أن الناقص ألفان وخمسمائة روبل من أموال الدولة في هذه المرة أيضاً. «سأراهن بخمسة وعشرين روبلاً أولاً، ثم زاوية في الرهان الثاني... على سبعة مكاسب، على خمسة عشر، على ثلاثين، على ستين... ثلاثة آلاف. وأشتري المشدات، وأرحل. ولكن الوغد لن يدعني! أتلفت شبابي». كان ذلك ما يدور في رأسه حين جاء لوخنوف إليه فعلاً:

ـ هل استيقظت منذ زمان، يا ميخايلو فاسيليتش؟

سأله لوخنوف، وهو يرفع النظارة الذهبية من أنفه اليابس بتباطؤ، ويمسحها في عناية بمنديل حريري أحمر.

ـ لا، الآن فقط. نمت نوماً ممتازاً.

ـ جاء ضابط من سلاح الفرسان، ونزل عند زافا لشيفسكي... ألم تسمع بذلك؟

ـ لا، لم أسمع... ماذا؟ لم يأت أحد بعد؟

ـ ذهبوا إلى برياخين، على ما يبدو. سيأتون حالاً.

وبالفعل سرعان ما دخل الغرفة ضابط الحامية الذي كان يلازم لوخنوف دائماً، وتاجر يوناني ذو أنف ضخم محدب بني اللون، وعينين سوداوين غائصتين، ومالك أراض بدين مترهل، صاحب مصنع، ويقامر ليالي بطولها، ويراهن بنصف روبل دائماً. كان الجميع يودون أن يبدأ اللعب بأسرع وقت، إلا أن اللاعبين الرئيسيين لم يشيروا بشيء إلى هذا الموضوع، لا سيما لوخنوف الذي كان يتحدث بهدوء بالغ عن الاحتيال في موسكو. فكان يقول:

ـ تصوروا موسكو حاضرة العرش الأولى، العاصمة، بينما يجوب فيها النصابون في الليالي مسلحين بالكلاليب، متزيين بزي العفاريت، ويرعبون الرعاع، ويسلبون المارة ولا شيء يحصل. فماذا تراقب الشرطة؟ هذا الذي يصعب على الفهم.

استمع الأولاني إلى الحديث عن المحتالين بانتباه، ولكنه نهض في نهايته، وطلب أوراق اللعب خلسة. وكان مالك الأراضي البدين أول المبادرين، إذ قال:

ـ بالطبع، يا سادة، لماذا نضيع الوقت الذهبي هدراً! إلى العمل، إلى العمل!

قال اليوناني:

ـ هذا يعـجبك طبـعاً، مـا دمت يوم أمس كنت تجر الفلوس أنـصاف روبلات.

قال ضابط الحامية:

ـ حان الوقت حقاً.

نظر إيلين إلى لوخنوف. فتـابع هذا، وهو ينظر إليه، يحكي بهدوء عن المحتالين في زي عفاريت لها مخالب. سأل الأولاني:

ـ ألا نبدأ ؟

ـ أليس مبكراً؟

ـ بيلوف! ـ صاح الأولاني وقد احمر لسبب ما، اجلب لي غدائي... لم آكل شيئاً حتى الآن، يا سادة... واجلب شمبانيا، وقدم شدة ورق.

في تلك اللحظة دخل الغـرفـة الكونت وزافـا لشيـفسـكي. وتبين أن توربين وإيلين في فرقة واحدة. وتصاحبا في الحال، وقرعا كأسيهما وشربا الشمبانيا، وبعد خمسة دقائق رفعا بينهما الكلفة، وتخاطبا بضمير المفـرد وأعـجب الكونت بايلين إعـجـاباً شـديداً كـمـا يبـدو. فكان دائم الابتسام، وهو ينظر إليه، ويمازحه بشبابه. وكان يقول:

ـ أي أولاني في غضارة الصبا! وأي شاربين، شاربين!

وحتى زغب الشعر البارض على شفة إيلين العليا كان أبيض تماماً.

قال الكونت:

ـ أظنك تستعد لأن تقامر؟ أوه، أرجو أن تربح، يا إيلين!

ـ وأضاف مبتسماً: ـ أظنك ماهراً!

أجاب لوخنوف، وهو يمزق شدة الورق:

ـ نعم، يستعدون. وأنت، ألا تتلطف بالانضمام إلينا ؟

ـ لا، لا أريد اليوم. وإلا لجعلتكم جميعاً تتحسرون. ما إن ألعب حتى تمتلئ الخزنة لي! ليس لي ما ألعب به، فقد خسرت في المحطة قرب فولوتشوك. التقيت هناك بواحد من مشاتي يزين أصابعه بخواتم، أظنه، صاحب أحاييل في اللعب.

سأل إيلين:

ـ وهل مكثت وقتاً طويلاً في المحطة؟

ـ مكثت اثنتين وعشرين ساعة. ستنحفر في ذاكرتي هذه المحطة، كما أن ناظرها لا ينساني أيضاً.

ـ وما الذي حصل؟

ـ أصل إليها، فيثب ناظر المحطة طالعاً بوجه وغد نصاب ويقول: لا خيول عندي، بينما، يجب أن أقول لك إن لي قانوني.

وهو إذا لم تكن هناك خيول أتوجه دون أن أخلع فروتي، إلى غرفة ناظر المحطة، لا إلى غرفة مكتبه، بل إلى غرفته الخاصة، وآمره بأن يفتح جميع مصاريع الأبواب والنوافذ، وكأنما في الغرفة غاز الفحم المحترق. وهذا ما فعلته في هذه المرة أيضاً. وأنت تذكر شدة البرودة التي كانت في الشهر الماضي، عشرين درجة تحت الصفر. وأخذ ناظر المحطة يحتج، ولكنني أوقفته عند حده بضربة على أسنانه. وجاءت عجوز، وفتيات، وأخذت النسوة يصوصئن، والتقطن القدور وهرولن إلى القرية... فوقفت في طريقهن على الباب، وأقول: هاتوا خيولاً، وسأذهب، وإلا فلن أدع أحداً، وستتجمدون جميعاً.

قال مالك الأراضي المترهل، وقد انفجر ضاحكاً:

ـ هذه هي الطريقة الممتازة. وبهذا الشكل تجمد الصراصير.

ـ ولكنني لم ألزم حراسة عليهم، وخرجت، فهرب الناظر مني مع نسوانه. وبقيت العجوز وحدها رهينة عندي. ظلت تسعل على سطح الموقد، وتصلي للرب. وبعد ذلك أجرينا مفاوضات. جاء ناظر المحطة، وراح يتوسل من بعيد أن أطلق سراح العجوز، فكنت أستعدي عليه كلبي بليوخر الذي كان ينفر من ناظر المحطة تماماً.

وهكذا لم يعطني الوغد الخيول إلا في صباح اليوم التالي. وفي هذه الأثناء، جاء ضابط المشاة هذا. ذهبت إلى الغرفة الثانية، وأخذنا نلعب. هل رأيتم بليوخر، بليوخر.. تعال.

جاء بليوخر راكضاً. وتحمس اللاعبون له، وإن كان يبدو أنهم كانوا يريدون التحمس لشيء مختلف تماماً. قال توربين:

ـ على أي حال، لماذا لا تلعبون، يا سادة؟ أرجو أن لا أعيقكم عن اللعب. فأنا مهذار. «أحبك، ما أحبك» ـ لعبة جميلة.

ـ٣ـ

قرب لوخنوف شمعتين منه، وأخرج محفظة ورقية بنية ضخمة مملوءة بأوراق النقد، وفتحها على الطاولة ببطء وكأنما يمارس إحدى الشعائر الغامضة، وأخرج منها ورقتين نقديتين من فئة المائة روبل، ووضعها تحت شدة ورق اللعب. وقال وهو يعدل نظارته، ويفض شدة الورق الجديدة:

ـ الرهان الأول بمائتي روبل، كما في يوم أمس.

ـ طيب، ـ قال إيلين دون أن ينظر إليه، أثناء حديثه مع توربين.

وجرى اللعب. كان لوخنوف يفرق الورق بوضوح، كالماكنة، ويتوقف من حين لآخر، مسجلاً بتؤدة، أو يتطلع بحدة من فوق نظارته، ويقول

بصوت خافت: «سلموا». كان مالك الأراضي البدين يتحدث أعلى من الجميع، ويلطخ أصابعه المنتفخة، وهو يعكف زوايا الورق. وكان ضابط الحامية يسجل النقاط تحت أوراقه بصمت وجمال، ويعكف زوايا صغيرة منها تحت الطاولة. وكان اليوناني يجلس جنب مدير اللعبة، ويتابع بعينيه السوداوين الغائصتين اللعبة بعناية، منتظراً شيئاً ما. وكان زافا لشيفسكي واقفاً عند الطاولة فإذا بحركة فجائية تعتريه بكليته، ويخرج من جيب بنطلونه ورقة نقدية حمراء أو زرقاء ويضع فوقها ورقة، ويربت عليها بكفه، ويقول: «أنقذيني، يا سبعة!» ويعض شاربه، ويقف على رجل بعد أخرى، ويحمر وتشيع الحركة في جسمه كله حتى تخرج تلك الورقة. وكان إيلين يأكل صحن لحم عجل مع الخيار، وضعه قربه على الأريكة المحشوة بشعر الخيل. مسح يديه بسترته على عجل ووضع ورقة وراء أخرى. وكان توربين جالساً على الأريكة، في البداية، ففطن إلى الأمر فوراً. كان لوخنوف لا ينظر إلى الأولاني مطلقاً، ولا يتكلم معه بشيء. سوى أنه كان يصوب نظارته أحياناً، وللحظة، إلى يدي الأولاني، فكانت أوراق هذا تخسر في الغالب.

ـ ليتني أسقط هذه الورقة! ـ قال لوخنوف عن ورقة مالك الأراضي السمين، الذي كان يراهن بنصف روبل.

وكان صاحب الأطيان يقول:

ـ اضرب أنت ورق إيلين، فما دخلي أنا في ذلك؟

وبالفعل، كانت أوراق إيلين تضرب أكثر من أوراق الآخرين.

فكان يمزق الورقة الخاسرة تحت الطاولة بعصبية، ويختار أخرى بيدين مرتجفتين. نهض توربين من الأريكة، وطلب من اليوناني أن يدعه

يجلس قرب مدير اللعب. جلس اليوناني في مكان آخر، وجلس الكونت في مكانه، وراح يراقب يدي لوخنوف دون أن يصرف بصره عنهما.

ـ إيلين! ـ قال فجأة بصوته الاعتيادي الذي غطى على أصوات الآخرين تماماً دون أن يتقصد ذلك ـ لماذا تستعمل ورقة واحدة دائماً؟ أنت لا تعرف كيف تلعب.

ـ سيان عندي الآن مهما لعبت.

ـ بهذه الطريقة ستخسر في أغلب الظن. دعني ألعب معك قليلاً.

ـ لا، وأرجو المعذرة. أنا دائماً ألعب بنفسي. العب لنفسك، إذا شئت.

ـ قلت لك لن ألعب لنفسي، ولكن أريد أن ألعب لك. يزعجني أنك تخسر.

ـ هكذا شاء القدر، كما يبدو!

صمت الكونت، واتكأ على مرفقيه، وعاد يحدق ثانية في يدي مدير اللعبة.

ـ لؤم! ـ قال بصوت عال ممطوط.

نظر لوخنوف إليه:

ـ لؤم، لؤم! ـ قال بصوت أعلى وهو ينظر في عيني لوخنوف.

واستمر اللعب:

قـ... با... حـة! ـ عاد تورين يقول، حالما أصاب لوخنوف ورقة كبيرة لايلين.

سأل مدير اللعبة باحترام ولا اكتراث:

ـ ما الذي لا يعجبك، يا كونت؟

ـ الطريقة التي تربح بها وتخسر. ذلك هو اللؤم بعينه.

حرك لوخنوف كتفيه وحاجبيه حركة خفيفة، وكأنه يقول ـ القدر يتحكم بكل شيء وتابع اللعب.

صاح الكونت وهو ينهض:

ـ بليوخر، تعال ـ وأضاف بسرعة ـ إليك به!

ارتطم الكلب بالأريكة بظهره، وكاد يوقع ضابط الحامية، وقفز من هناك، وركض إلى صاحبه، وراح يهر، وينظر إلى الجميع محركاً ذيله، وكأنه يقول: «من المسيئ هنا؟ ها؟».

وضع لوخنوف ورق اللعب، وأزاح كرسيه جانباً. وقال:

ـ لا يمكن اللعب بهذا الشكل. أنا لا أحب الكلاب كلياً. وأي لعب إذا كانت في الغرفة مجموعة كاملة من الكلاب؟

فأردف ضابط الحامية يقول:

ـ لا سيما مثل هذه الكلاب التي تسمى العلق، على ما أظن.

قال لوخنوف للمضيف:

ـ هل سنلعب، يا ميخايلو فاسيليتش، أم لا؟

فخاطب إيلين الكونت توربين قائلاً:

ـ لا تتدخل يا كونت، من فضلك.

ـ تعال هنا، دقيقة، ـ قال توربين، وقد أمسك إيلين من يده، وسار به وراء الحاجز.

وكانت كلمات الكونت مسموعة تماماً من هناك، وهو يتكلم بصوته الاعتيادي، وكان له صوت يسمع دائماً من خلال ثلاث حجرات.

ـ ما هذا التهور منك؟ هل معقول أنت لا ترى أن هذا السيد ذا النظارات لاعب غشاش من الدرجة الأولى.

ـ أوه، دعني! ما هذا الذي تقول!

ـ لا، لا أدعك! وأترك اللعب، اسمع كلامي. ما كان سيهمني الأمر، لو أن الأمر ليس بهذا الشكل، ولربحت أنا كل فلوسك، ولكنني أحس بالغبن وأنت تخسر بهذه الطريقة. ثم أليست هذه نقود حكومية؟

ـ لا، وماذا جعلك تتصور ذلك؟

ـ أنا، يا أخ، سلكت هذا الطريق نفسه، وأعرف كل طرائق الغشاشين. وأقول لك إن ذا النظارات غشاش في اللعب. فاترك اللعب، من فضلك. أنا أرجوك كرفيق.

ـ طيب، ألعب دورة واحدة، وأكف.

ـ أنا أعرف الدورة الواحدة هذه، طيب، سنرى.

عادا. وفي دورة واحدة كان إيلين يخسر كل ورقة يطرحها، فخسر الكثير.

وضع توربين يده وسط الطاولة.

ـ طيب، كفى. ولنذهب.

ـ لا، لا أقدر، اتركني، أرجوك.

قال إيلين بضيق، ممشطاً الأوراق المعكوفة، ودون أن ينظر إلى توربين.

ـ طيب، ليتخطفك الشيطان! اخسر بالتأكيد، إذا كان ذلك يروق لك، أما بالنسبة لي فقد حان الأوان! يا زافا لشيفسكي، لنذهب إلى العميد.

وخرجا. وصمت الجميع، ولم يفرق لوخنوف الورق على اللاعبين، إلا بعد أن تلاشى وقع الخطوات.

قال مالك الأراضي ضاحكاً:

ـ أي دماغ!

فأضاف ضابط الحامية، وبهمس أيضاً:

ـ ولن يعيقنا الآن.

واستمر اللعب.

ـ ٤ ـ

كان الموسيقيون، خدم العميد الواقفون في المشرب الذي نظف لهذه المناسبة، قد عكفوا أكمام سترهم، وراحوا، حسب إشارة أعطيت لهم، يعزفون اللحن البولوني القديم: «الكسندر، ايلسافيتا»، وعلى ضوء الشموع الساطع الناعم بدأ ينزل إلى الصالة الكبيرة اللماعة بأرضيتها الخشبية، وبحركات مناسبة: كل من حاكم الولاية وهو جنرال من جنرالات يكاترينا يحلي صدره بوسام، متأبطاً ذراع زوجة عميد الأشراف النحيلة، وعميد الأشراف متأبطاً ذراع زوجة حاكم الولاية، وبعدهم أهل السلطة في الولاية في مختلف المراتب والأصناف. وبعد ذلك دخل الصالة زافالشيفسكي في بدلته الفراك الزرقاء، والياقة الضخمة والشراشيب على الكتفين، والجوارب والحذاء المعد لمثل هذه الحفلات، ورائحة الياسمين تفوح حوله في هالة، وقد ضمخ بها شاربيه وطيتي سترته ومنديله ببذخ يصحبه الضابط الفارس الجميل ببنطال الركوب الأزرق المشدود، والصدار الأحمر المطرز بالذهب يتدلى منه وسام فلاديمير، وميدالية عام ١٨١٢ . كان الكونت هذا غير طويل القامة، ولكنه ذو بنيان ممتاز جميل. وكانت عيناه الزرقاوان الصافيتان اللامعتان إلى حد

كبير، وشعره الكتاني الداكن الطويل جداً، الملتف حلقات كثيفة تضفي على جماله طابعاً ملفتاً للنظر. كان وصول الكونت متوقعاً: رآه شاب جميل في حجرة الجلوس فأبلغ العميد بذلك. وكان الانطباع الذي خلفه هذا الخبر يختلف من أحد لآخر، ولكنه ليس مريحاً تماماً بشكل عام. فكان رأي العجائز والرجال: «سيثير الضحك هذا الغلام». وكان رأي النساء الشابات والأوانس أكثر تساهلاً إلى هذا الحد أو ذاك: «وماذا لو اختطفني؟».

وما أن انتهت الرقصة البولونية، وتبادل أزواج الراقصين والراقصات الانحناءات، حتى انفصلت النساء وسرن إلى مجمعهن وسار الرجال إلى مجمعهم. وقاد زافا لشيفسكي السعيد الفخور صديقه الكونت إلى ربة البيت. وكانت زوجة العميد تتوجس خيفة في دخيلة نفسها من أن يقوم هذا الضابط الفارس بما يجعلها أضحوكة أمام الجميع، فأدارت رأسها بفخر وازدراء وقالت: «مسرورة جداً! آمل أنك سترقص؟»، ونظرت إليه متشككة، وعلى سحنتها ما يقول: «لو كدرت امرأة حقاً، فأنت وغد حقيقي». إلا أن الكونت سرعان ما بدد هذا الهاجس بلطفه، وعنايته، ومظهره المرح الجميل، حتى إن التعبير المرتسم على وجه زوجة العميد كان، بعد خمس دقائق، يقول لكل المحيطين بها «أنا أعرف كيف أمسك بزمام هؤلاء السادة، فقد أدرك في الحال مع من يتكلم، وسيكون لطيفاً معي طوال الأمسية». إلا أن حاكم الولاية تقدم بعد لحظة من الكونت، وكان يعرف أباه، وتنحى به جانباً في أدب جم، وتكلم معه مما جعل جمهور الحاضرين في بيت العميد أكثر طمأنينة، وارتفع الكونت في نظرهم. ثم أخذه زافالشيفسكي ليعرفه بأخته الأرملة الشابة الممتلئة التي

ثبتت به عينيها السوداوين الواسعتين منذ ظهوره. دعا الكونت الأرملة الشابة إلى رقصة الفالس التي كان الموسيقيون يعزفونها في تلك الأثناء، ويدد بفنه في الرقص كل ما تبقى لدى الجمهور من تحامل عليه.

ـ أستاذ في الرقص! ـ قالت زوجة مالك أراض بدينة، وهي تتابع ساقيه في بنطال الركوب الأزرق، وهما تتوامضان في الصالة، وهي تعد في ذهنها: واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة... ـ أستاذ!

ـ كأنه يحوك، كأنه يحوك، ـ قالت أخرى زائرة كانت تعتبر سيئة الذوق في مجتمع الولاية، ـ كيف لا يؤذي مراقصته بمهمازيه! مدهش، بارع جداً.

وغطى الكونت بفنه في الرقص على ثلاثة هم أحسن الراقصين في الولاية: مرافق الحاكم الطويل الأشقر الذي كان يتميز بسرعة في الرقص، وإمساكه مراقصته على مقربة شديدة منه، وضابط خيالة يتميز بهفهفة رشيقة في رقص الفالس، وقرقعة متسارعة وخفيفة في الوقت ذاته بكعب حذائه؛ أما الثالث فهو مدني يقول الجميع عنه إنه، وإن كان غير بعيد البصيرة، إلا أنه راقص فاخر وروح كل الحفلات الراقصة. وبالفعل كان هذا المدني منذ بداية الحفلة يدعو جميع السيدات إلى الرقص بالتوالي حسب مكان جلوسهن، ولم يتوقف عن الرقص دقيقة واحدة، إلا حين كان يتوقف من حين لآخر ليمسح وجهه الجميل والمتعب بمنديل من القماش الرقيق تبلل تماماً. لقد غطى الكونت عليهم جميعاً، ورقص مع ثلاث سيدات رئيسيات؛ مع سيدة كبيرة غنية وجميلة وبلهاء، ومع وسطى نحيلة غير جميلة جداً، ولكنها فاخرة الملبس، ومع سيدة صغيرة عاطلة عن الجمال، ولكنها ذكية جداً. ورقص مع أخريات، مع جميع

الحلوات، والحلوات كن كثراً. ولكن الأرملة الشابة، أخت زافا لشيفسكي كانت أقربهن جميعاً إلى نفس الكونت، فرقص معها رقصة «الكادريل» ورقصة «ايكوسيس» و«المازوركا». وقد بدأ حين أخذا يرقصان الكادريل، يغدق عليها الغزل، مشبهاً إياها بفينوس وديانا، وبالوردة، وبزهرة أخرى. فكانت الأرملة الشابة لا ترد على كل هذا اللطف إلا بأن تحني رقبتها البيضاء، وتغض بصرها، ناظرة إلى ثوبها الموسلين الأبيض، أو ناقلة مروحتها من يد إلى أخرى. وحين كانت تقول: «كفاك، يا كونت، أنت تمزح» إلى غير ذلك، وكان صوتها الحلقي قليلاً يشي بسماحة ساذجة، وبلاهة مضحكة، فلو نظرت إليها لخطر لك بالفعل أنها ليست امرأة، بل زهرة، وليست وردة، بل زهرة برية بيضاء وردية منتفشة، بلا رائحة، طلعت وحيدة من كثيب ثلج لم تطأه قدم في أرض نائية جداً.

كان اقتران جمالها بسذاجتها، وغياب كل تصنع فيها قد خلف في نفس الكونت وقعاً غريباً جداً، حتى دار في خلده، عدة مرات، عند التوقف عن الكلام، وحين كان ينظر صامتاً في عينيها، أو إلى الخطوط البديعة ليديها ورقبتها، أن رغبة عارمة تجتاحه ليأخذها بين يديه، ويقبلها، مما كان يجد عسراً جدياً في كبح جماح نفسه.

وكانت الأرملة الشابة تلاحظ بارتياح ذلك الوقع الذي أثارته في نفسه، ولكن شيئاً في سلوك الكونت أخذ يقلقها ويفزعها، رغم أن هذا الفارس الشاب كان إلى جانب لطفه المتردد، يتمادى في مراعاة الأعراف السائدة. هرع ليجلب لها شراب اللوز، ورفع منديلها حين وقع، وانتزع مقعداً من يد مالك أراض شاب عليل المظهر كان يريد أيضاً أن يخدمها، ويقدمه أسرع، وما إلى ذلك.

ولما لاحظ أن آداب المجتمع الراقي لذلك العصر لم تؤثر في صاحبته كثيراً، حاول إضحاكها برواية حكايات مسلية، وأكد لها أنه مستعد، إذا أمرته أن يقف على رأسه فوراً، ويصيح صياح الديك، ويقفز من النافذة إلى الخارج أو يرمي نفسه في فتحة في جليد النهر. ونجح ذلك تماماً. فقد بدا المرح على الأرملة الشابة، وراحت تضحك ضحكات صداحة، كاشفة عن أسنان بيض بديعة، وكانت مرتاحة تماماً من مراقصها. بينما ظلت تحلو في عيني الكونت أكثر فأكثر من دقيقة إلى أخرى، وفي نهاية رقصة الكادريل كان قد وقع في غرامها عن صدق.

وبعد الرقصة، حين جاء إلى الأرملة فتى في الثامنة عشرة، هو ابن متبطل لأغنى مالك أراض في المنطقة، نفس ذلك الشاب العليل المظهر الذي انتزع توربين المقعد من يده، كان متيماً بها منذ زمان، استقبلته ببرود شديد، ولم يظهر عليها حتى عشر الارتباك التي كانت قد شعرت به مع الكونت.

ـ يا للطفك، ـ قالت له، وهي تنظر في ذات الوقت، إلى ظهر توربين، وتحسب لا إرادياً كم ذراعاً من الخيوط الذهبية استخدمت في سترته كلها. ـ يا للطفك، لقد وعدتني بأن تأتي إلي بعربتك، وتجلب لي الحلوى.

ـ ولكنني جئت، يا آنا فيدروفنا، ولم أجدك. أما الحلوى فقد أبقيت أحسنها لك، ـ قال الشاب بصوت نحيل جداً، رغم طول قامته.

ـ أنت دائماً تجد ما ترد به! لست بحاجة إلى حلواك. أرجوك لا تظن...

ـ ها أنا أرى، يا آنا فيدروفنا، كيف تغيرت نحوي، وأعرف

السبب. إلا أن ذلك لا يصح... - أضاف ذلك، ولكنه لم يتم كلامه، على ما يبدو، لأن انفعالاً شديداً داخل نفسه جعل شفتيه ترتجفان بسرعة شديدة وبطريقة غريبة.

لم تستمع آنا فيدروفنا إليه، ومضت تتابع توربين بعينيها.

تقدم من الكونت العميد صاحب البيت، وهو شيخ بدين مهيب بلا أسنان، وأمسكه من ذراعه، ودعاه إلى غرفة مكتبه للتدخين والشرب، إذا شاء. وما أن خرج توربين، حتى شعرت آنا فيدروفنا بأن الصالة خوت تماماً، فتناولت يد سيدة عجوز نحيلة، هي صاحبتها، وخرجت معها إلى حجرة الزينة.

- كيف هو؟ لطيف؟ - سألت السيدة.

- إلا الطريقة الفظيعة التي يتردد بها، - أجابت آنا فيدروفنا، وهي تقترب من المرآة، وتنظر فيها.

وتألق وجهها، وضحكت عيناها، بل وتوردت، وفجأة استدارت على قدم واحدة مقلدة راقصات الباليه اللواتي رأتهن في هذه الانتخابات، واتبعت ذلك بضحكتها الحلقية واللطيفة، رغم ذلك، بل وقفزت، بعد أن ضمت ركبتيها.

وقالت لصاحبتها:

- هل تتصورين؟ إنه طلب مني تذكاراً. ولكن لن يحـ... صـ... ل على شيء - وترنمت بكلمة «يحصل»، ورفعت إصبعاً في قفازها الجلدي الذي كان يصل إلى مرفقها...

في غرفة المكتب التي قاد العميد الكونت توربين إليها كانت أصناف مختلفة من الفودكا والليكور والمشهيات والشمبانيا. وكان

النبلاء يجلسون أو يتمشون في الجو المشحون بدخان التبغ يتحدثون عن الانتخابات.

كان رئيس الشرطة المعاد انتخابه يقول وقد ثمل كثيراً:

ـ إذا كان جميع النبلاء الأشراف في قضائنا قد كرموه بانتخابه، فما كان يصح منه أن يتسبب أمام المجتمع كله، ولا يحق له قط...

وقطع الحديث دخول الكونت. أخذ الجميع يقدرون أنفسهم إليه ورئيس الشرطة بشكل خاص صافحه طويلاً بكلتا يديه، وطلب إليه عدة مرات أن لا يرفض الذهاب بصحبتهم، بعد الحفلة الراقصة، إلى حانة جديدة سيدعو النبلاء إليها، وسيغني فيها الغجر. وعده الكونت بالذهاب حتماً، وشرب معه عدة أقداح من الشمبانيا.

وسأل قبل أن يخرج من الغرفة:

ـ لماذا لا ترقصون، يا سادة؟

أجاب رئيس الشرطة ضاحكاً:

ـ ولعنا بالشراب، يا كونت، أكثر من ولعنا بالرقص... وعلى العموم كل هؤلاء السيدات الصغيرات كبرن أمام بصري، يا كونت! أحياناً أدخل في رقصة الأكوسيس أيضاً، أقدر عليها، يا كونت...

قال توربين:

ـ هيا الآن نحرك أقدامنا. نرفه عن أنفسنا قبل سماع الغجر.

ـ طيب، لنذهب، يا سادة! نسلي رب البيت.

وبينما كان النبلاء الثلاثة الحمر الوجوه، الذين كانوا يحتسون الشراب منذ بداية الحفلة الراقصة يلبسون قفازاتهم ما بين سوداء من جلد الماعز وحريرية محاكة، ويهمون بالخروج إلى الصالة مع الكونت، دخل

الشاب العليل المظهر وأوقفهم: كان شاحباً لا يكاد يحبس الدموع في عينيه. تقدم من توربين، وقال ملتقطاً أنفاسه بعسر:

ـ لأنك كونت تظن، أنك تستطيع أن تتدافع كما في السوق. هذا عدم احترام...

ومرة أخرى ارتجفت شفتاه رغم إرادته، فأوقفتا سيل الكلام من فمه.

ـ ماذا ؟ ـ صاح توربين، وقد تعبس فجأة. ـ ماذا ؟ يا ولد! ـ وأمسكه من يديه، وشدهما شداً جعل الدم يتدفق إلى رأس الشاب، خوفاً أكثر منه ضيقاً، ـ أتريد أن تتبارز ؟ أنا تحت أمرك.

وما كاد توربين يطلق يدي الشاب اللتين ضغطهما ضغطاً قوياً، حتى أمسك نبيلان الشاب من إبطيه: ودفعاه إلى باب خلفي، وهما يقولان له:

ـ هل جننت؟ لا بد أنك قد شربت كثيراً. سنخبر والدك، ماذا بك؟

ـ لست سكراناً. بينما هو يتدافع دون أن يعتذر. إنه خنزير! هذا هو!

ـ ولول الشاب، وقد انفجر باكياً.

ومع ذلك لم يستمعوا إليه، وأخذوه إلى البيت.

ـ دعك، يا كونت! ـ قال رئيس الشرطة وزافالشيفسكي لمصالحة توربين، ـ إنه طفل، وسيعاقبونه أيضاً. ما يزال في السادسة عشرة. ولا يمكن فهم ما جرى له. وماذا أغضبه؟ وأبوه أيضاً رجل محترم، مرشحنا.

ـ طيب، عفا الله عنه، إذا لا يريد...

وعاد الكونت إلى الصالة، وبمرحه السابق رقص الأكوسيس مع الأرملة الشابة الحلوة، وضحك من كل قلبه، وهو ينظر إلى الحركات

الراقصة التي كان يؤديها السادة الذين خرجوا معه من غرفة المكتب، وانفجر في ضحكة رنت في أرجاء الصالة كلها، حين انزلق رئيس الشرطة، وانهبد بكل طوله وسط الراقصين والراقصات.

-٥-

حين دخل الكونت إلى غرفة المكتب أقبلت آنا فيدروفنا على أخيها، ولسبب ما تصورت أن عليها أن تتظاهر بأنها قليلة الاكتراث جداً بالكونت، وراحت تسأل: «أي فارس هذا الذي راقصني؟ قل لي من فضلك، يا أخي». أوضح ضابط الخيالة لأخته قدر مستطاعه أي إنسان عظيم هو هذا الفارس، وأخبرها إلى جانب ذلك أن الكونت لم يبق هنا إلا لأن نقوده سرقت أثناء سفره، وأنه هو نفسه أقرضه مائة روبل، ولكن ذلك مبلغ قليل، فهل تستطيع أخته أن تقرضه مائتي روبل أخرى، ورجاها زافا لشيفسكي ألا تخبر أحداً بشيء عن هذا، ولا سيما الكونت. وعدت آنا فيدروفنا أن ترسل المبلغ في نفس اليوم، وأن تحتفظ بالسر، ولكنها أثناء رقصة الاكوسيس تملكتها، لسبب ما، رغبة قوية في أن تعرض للكونت كم يريد من النقود. ظلت تدور طويلاً، واحمرت، وأخيراً ضغطت على نفسها، وبادرت بالأمر على هذا النحو:

- أخبرني أخي أن حادثة مؤسفة قد وقعت لك في الطريق، يا كونت، وأنك الآن بلا نقود. ألا تحب أن تستدين مني، إذا كنت بحاجة إليها؟ سأكون مسرورة للغاية.

ولكن آنا فيدروفنا فزعت من شيء ما، حين نطقت بذلك، واحمرت، فقد غاض المرح كلية من وجه الكونت بلمح البصر، وقال بحدة:

ـ أخوك أحمق! أنت تعرفين أن رجلاً حين يهين آخر يتبارزان، ولكن ألا تعرفين ماذا يفعل الرجل إذا أهانته امرأة؟

واحمرت رقبة آنا فيدروفنا المسكينة وأذناها من الارتباك. أطرقت ببصرها، ولم تجب.

قال الكونت بخفوت منحنياً على أذنها:

ـ يقبلها أمام الجميع. ـ ثم أضاف خافت الصوت، بعد صمت طويل، وقد أشفق على ارتباك مراقصته: ـ فاسمحي لي على الأقل أن أقبل يدك.

قالت آنا فيدروفنا ثقيلة الأنفاس:

ـ آه، ولكن ليس الآن.

ـ متى إذن؟ غداً سأسافر في وقت مبكر... بينما أنت مدينة لي بذلك.

قالت آنا فيدروفنا باسمة:

ـ طيب، يعني، غير ممكن.

ـ اسمحي لي فقط أن أجد فرصة لأن أراك اليوم على انفراد، لأقبل يدك. وسأجدها.

ـ ولكن كيف ستجدها؟

ـ هذا ليس من شأنك، سأبذل كل ما هو ممكن لأن أراك... حسناً؟

ـ حسناً.

انتهت رقصة الاكوسيس. ورقصا المازوركا أيضاً، وفيها قام الكونت بالأعاجيب، ملتقطاً المناديل، واقفاً على ركبة واحدة، صافقاً مهمازيه بطريقة خاصة، فرصوفية، حتى إن جميع الشيوخ خرجوا من

وراء مائدة القمار لينظروا ما يجري في الصالة، واعترف ضابط الفرسان، وهو أحسن الراقصين، بأنه قد هزم. تعشى الحضور، وعادوا فرقصوا رقصة «الجد»، وأخذوا ينصرفون.

وطوال هذا الوقت لم يصرف الكونت بصره عن الأرملة الشابة، ولم يكن يتصنع حين قال لها إنه مستعد، من أجلها، أن يلقي نفسه في حفرة في جليد النهر. وسواء أكان ذلك نزوة أو حباً أو عناداً، إلا أن كل قواه الروحية كانت متركزة، في ذلك المساء، في رغبة واحدة: أن يراها ويحبها. وما أن لاحظ أن آنا فيدروفنا أخذت تتوادع مع ربة البيت، حتى هرع إلى حجرة الخدم، ومن هناك، ودون أن يرتدي معطفه الفرائي، خرج إلى الفناء، حيث تقف العربات. وصاح:

ـ عربة آنا فيدروفنا زايتسفا.

فتحركت عربة عالية ذات أربعة مقاعد ومصابيح، وتقدمت إلى مدخل البيت. وصاح الكونت على الحوذي: قف! وركض نحو العربة غائصاً في الثلج إلى ركبتيه. قال الحوذي:

ـ ماذا تريد؟

ـ الجلوس في العربة، ـ أجاب الكونت وهو يفتح الباب أثناء سير العربة، ويحاول الصعود إليها. ـ قف، يا شيطان! أبله!

ـ فاسكا! قف! ـ صاح الحوذي على زميله الذي يمتطي أحد خيول العربة، وأوقف الخيول. ـ لماذا تصعد إلى عربة الآخرين؟

هذه عربة السيدة آنا فيدروفنا، وليست عربة جنابك.

قال الكونت:

ـ أوه، اصمت، يا بليد! هذا روبل لك، فانزل وأغلق الباب!

ولكن الحوذي لم يتحرك، فرفع الكونت المرقاة بنفسه، وفتح النافذة، وأغلق الباب على نحو ما. كانت العربة، مثل كل العربات القديمة، ولا سيما المغلفة بالضفائر الصفراء، تفوح عفونة ووبراً محروقاً. كانت ساقا الكونت مغلفتين حتى الركبتين بالثلج الذائب، ترتجفان بشدة، وهما في حذائين رقيقين عاليين وبنطال ركوب.

كما أن زمهرير الشتاء كان يجتاح جسده كله. كان الحوذي يدمدم من فوق مقعده، وبدا وكأنه يتهيأ للنزول. إلا أن الكونت لم يكن يسمع شيئاً، ولا يحس بشيء. كان وجهه يلتهب، وقلبه يدق بشدة، أمسك الحزام الأصفر بتوتر، وأطل من النافذة الجانبية، وتركزت حياته كلها بشيء واحد: الانتظار. ولم يستمر هذا الانتظار طويلاً.

صاح صوت من على مدخل البيت «عربة زايتسفا!» وحرك الحوذي الأعنة، وأخذ حوض العربة يتماوج على نوابضها العالية، وتراكضت نوافذ البيت المضاءة واحدة إثر الأخرى من خلال نافذة العربة.

قال الكونت، وقد طلع بجسده من النافذة الأمامية المطلة على الحوذي:

- إياك أن تقول شيئاً للخادم، أيها النصاب. فسأوسعك ضرباً. أما إذا أمسكت لسانك فسأعطيك عشرة روبلات أخرى.

وما كاد ينزل النافذة، حتى اهتز حوض العربة من جديد بقوة، وتوقفت العربة. انكمش الكونت في الزاوية، وحبس أنفاسه، بل وقلص عينيه، فقد كان خائفاً جداً من أن تخيب آماله لسبب ما. فتح باب العربة، ونزلت درجات المرقاة واحدة بعد الأخرى صاخبة، وهسهس ثوب نسائي، ونفذ عطر الياسمين إلى جو العربة العفن، وركضت أقدام سريعة

على الدرجات، وجلست آنا فيدروفنا على المقعد قرب الكونت صامتة ثقيلة الأنفاس، بعد أن مست قدم الكونت بذيل معطفها المحلول.

ولا أحد يعلم علم اليقين، وحتى آنا فيدروفنا نفسها، هل رأته أم لا، ولكنه حين أمسك يدها، وقال: «طيب، والآن سأقبل يدك».

لم تبد إلا القليل جداً من الفزع، ولم تجب بشيء إلا أنها أعطته يدها التي غطاها بالقبلات أعلى بكثير من طرف القفاز. وتحركت العربة. قال لها:

- قولي شيئاً. لست غاضبة؟

انكمشت في ركنها صامتة، ولكنها أخذت تبكي فجأة، لسبب ما، وأوقعت رأسها على صدره.

-٦-

كان رئيس الشرطة المنتخب مجدداً وصحبه، وضابط الخيالة والنبلاء الآخرون قد قضوا وقتاً طويلاً يستمعون إلى غناء الغجر، ويشربون في الحانة الجديدة، حين انضم إليهم الكونت، وهو في معطف من الجوخ الأزرق بطانته من فراء الدب يعود إلى زوج آنا فيدروفنا.

- يا سيدي، يا صاحب اللياقة! كدنا نفقد الأمل في مجيئك!

- قال غجري أسود أحول، كاشفاً عن أسنانه اللامعة، وقد التقاه في الرواق، واندفع يخلع المعطف عنه. - لم نرك منذ زمن ليبديان... ستيشا أتلفت نفسها شوقاً إليك...

كما خرجت ستيشا للقائه، وهي غجرية هيفاء فتية صغيرة الجسم ذات وجنتين محمرتين حمرة الفخار، في وجه بني ذي عينين سوداوين

عميقتين لامعتين تظللهما رموش طويلة. قالت من خلال أسنانها بابتسامة مرحة.

- آ! يا كونتنا العزيز! المحبوب! من ذهب! أية فرحة!

وايليوشكا نفسه خرج للقائه متظاهراً بأنه مبتهج جداً.

ووثبت العجائز والنسوة والفتيان من أماكنهن، وأحطن بالضيف. بعضهن كن يعتبرنه قريباً لهن بعرابته لأولادهن، والبعض الآخر بأخوة الصليب.

قبل توربين جميع الغجريات الصغيرات من شفاههن، وقبلته العجائز والرجال من كتفه ومن يده. كما سر النبلاء كثيراً بقدوم الضيف، لا سيما وأن القصف واللهو قد أخذا يفتران بعد أن بلغا الذروة. وبدأ كل واحد يشعر بالشبع. ولم يبق للنبيذ إلا ثقل في المعدة، بعد أن فقد تأثيره المؤجج للأعصاب. وصار القوم ينظر بعضهم إلى بعض، بعد أن أطلق كل واحد منهم كل ما في نفسه من مكنون اللهو والعبث. وغنيت كل الأغاني، واختلطت في رأس كل واحد منهم تاركة انطباعاً عن صخب وانفلات. ومهما يكن ما أتوا به من غرابة وجرأة، فقد بدأ الجميع يفكرون في أن كل ما فعلوه خلو من المؤانسة والفكاهة. كان رئيس الشرطة يرقد على الأرض في مظهر بشع عند قدمي إحدى العجائز يؤرجح ساقيه، ويصيح:

- شمبانيا!.. الكونت وصل!.. شمبانيا... وصل... هاتوا شمبانيا!... سأصنع حوض حمام من الشمبانيا، وأسبح فيه... أيها السادة النبلاء! أهيم بمجتمع النبلاء الشهم... ستيشا، غن أغنية «الطريق».

وكان ضابط الخيالة سكران أيضاً، ولكن بطريقة أخرى. كان يجلس على أريكة في ركن، على مقربة شديدة من الغجرية الطويلة الجميلة ليوباشا، شاعراً بالسكر يغشي على عينيه، فكان يرمش بهما، ويدير رأسه، ويكرر كلمات لا تتغير، ويهمس للغجرية ليقنعها بالهروب معه إلى مكان ما. وكانت ليوباشا تستمع إليه باسمة، وكأن ما كان يقوله لها مرح جداً، وفي ذات الوقت محزن بعض الشيء، ومن حين لآخر كانت ترمق زوجها ساشكا الأحول، الذي كان واقفاً على الطاولة قبالتها، وللرد على اعتراف ضابط الخيالة بحبه لها كانت تنحني على أذنه، وتطلب منه أن يشتري لها شيئاً من العطر والشرائط، خفية حتى لا يراها الآخرون.

ـ هورا! ـ صاح ضابط الخيالة حين دخل الكونت.

وكان ثمة شاب وسيم مغموم المظهر يذرع الحجرة بعناية وبخطوات ثابتة جيئة وذهاباً، ويترنم بأنغام من «انتفاضة في جناح الحريم».

كان أبو العائلة العجوز يرقد على الأريكة، دون أن يلتفت أحد إليه، باقياً على حاله منذ أن انهد عليها فور مجيئه، وقد أغراه بالغجريات السادة النبلاء بطلباتهم الملحاحة، وبقولهم له بدونك سيفسد كل شيء، وسيكون من الأفضل لو بقينا في بيوتنا.

وكان أحد الموظفين الذي كان في الحانة من قبل، قد خلع سترته الفراك، وقعد على المائدة متربعاً، منفوش الشعر، مبرهناً بذلك على أنه مخمور جداً. وما أن دخل الكونت حتى فك زر ياقة قميصه، وزحف متوغلاً عميقاً في جلسته على المائدة. وبشكل عام انتعش القصف واللهو بمجيء الكونت.

والغجريات اللواتي كن يطوفن في الحجرات عدن، فجلسن في حلقة. أجلس الكونت ستيشكا، المغنية على ركبتيه، وأمر بتقديم المزيد من الشمبانيا.

وقف اليوشكا أمام المغنية ومعه قيثارة، وبدأ الرقص، أي، أغان غجرية: «أطوف في الشارع»، «هاي، يا فرسان...»، «تسمع، وتفهم...» إلى غير ذلك، في نسق معلوم. غنت ستيشكا غناء عذباً، وصوتها الكونترالتو المطواع الصداح، الخارج من الصدر، وبسماتها أثناء الغناء، وعيناها الضاحكتان العاطفيتان، وقدمها الصغيرة التي تتحرك لا إرادياً مع إيقاع الأغنية، وصياحها الهائم عند بداية الإنشاد الجماعي، كل ذلك كان يحرك وتراً رناناً يندر أن يتحرك. وكان يبدو أنها بكليتها تضع كل روحها في الأغنية التي كانت تغنيها. وكان اليوشكا بابتسامته وبظهره وقدميه وبكل كيانه يعبر، وهو يصاحبها بقيثاره، عن تعاطفه مع الأغنية، ويبدو، وهو يفرس عينيه فيها، كأنه يسمع الأغنية لأول مرة، بانتباه واستغراق، وكان يميل رأسه ويرفعه على إيقاع الأغنية، وبعد ذلك انتصب بجذعه فجأة عند الترنيمة الأخيرة. ودفع القيثار برجله في شمم وعزيمة، وتركه يدور وكأنما يشعر بأنه أرفع من كل الناس في العالم، وراح يرقص، وينفش شعره، ويلتفت إلى المنشدين مقطب الحاجبين. وبدا جسمه كله من رقبته حتى أخمص قدميه يرقص بكل عرق فيه... وتماوج في الهواء عشرون صوتاً قوياً يحاول كل واحد منها بكل ما لديه من قوة أن يردد الآخر على نحو أغرب وأبعد عن المألوف. وأخذت العجائز تقفزن على المقاعد ملوحات بالمناديل، كاشفات عن أسنانهن، ويصحن في وئام وانسجام متباريات في رفع أصواتهن.

والرجال من ذوي النبرات الوطيئة يهدرون بأصواتهم واقفين على الكراسي وقد لووا رؤوسهم جانباً، وتوترت أوداجهم.

وحين كانت ستيشا تغني بنبرات رقيقة، كان اليوشكا يقرب منها قيثاره، وكأنما يريد أن يساعدها، بينما كان الشاب الوسيم يصيح في نشوة الطرب جاءت الآن أنصاف الأنغام.

وحين غنوا اللحن الراقص، ومرت دونياشا مرعشة كتفيها وصدرها، ودارت أمام الكونت، ومضت منسابة قفز الكونت توربين من مكانه، وطرح سترته، وبقي في قميصه الأحمر، وصاحبها جسوراً على إيقاع رقصتها محركاً قدميه حركات جعلت الغجر يتبادلون النظرات مبتسمين باستحسان.

جلس رئيس الشرطة متربعاً على الطريقة التركية، وضرب صدره بقبضته، وصاح «مرحى!»، ثم أمسك الكونت من قدمه، وراح يقول كان معه ألفا روبل، أما الآن فلم يبق إلا خمسمائة، وهو يستطيع أن يفعل كل ما يريد، شرط أن يسمح الكونت بذلك.

استيقظ رب العائلة العجوز، وأراد أن ينصرف، ولكنهم أوقفوه. وكان الشاب الوسيم يتوسل إلى غجرية بأن ترقص معه الفالس. ونهض ضابط الخيالة من ركنه راغباً في التباهي بصداقته للكونت، وعانق توربين، وقال:

ـ آه، يا عزيزي! ولكن لماذا غادرتنا؟ ها؟ ـ صمت الكونت، مفكراً، على ما يبدو، في شيء آخر. ـ أين غبت؟ آه، يا كونت يا محتال، أنا أعرف أين كنت.

ولسبب ما لم يرق للكونت رفع الكلفة هذا، نظر في وجه ضابط

الخيالة صامتاً دون أن يبتسم، وفجأة قذف في وجهه بشتائم فظيعة فظة جعلت ضابط الخيالة يعتم، وظل وقتاً طويلاً لا يعرف ماذا يعتبر هذه المهانة: مزاحاً أم جداً. وأخيراً استقر على أنها مزاح، فابتسم، وعاد ثانية إلى صاحبته الغجرية، وراح يؤكد لها أنه سيتزوجها حتماً، بعد عيد الفصح. وغنى القوم أغنية أخرى، وثالثة، وعادوا إلى الرقص من جديد، وتغنى بعضهم ببعض، واستمر الجميع يستشعرون المرح. ولم تنقطع الشمبانيا. شرب الكونت كثيراً، وبدت عيناه في غشاوة من الندى، ولكنه لم يكن يترنح وكان يرقص أفضل، ويتكلم بلسان ثابت، بل غنى مع المجموعة بعذوبة، وصاحب ستيشا، حين غنت «توجس الصداقة الناعم». وفي وسط الرقصة جاء التاجر صاحب الحانة يطلب من الضيوف العودة إلى بيوتهم، لأن الساعة جاوزت الثانية صباحاً.

أمسك الكونت التاجر من تلابيبه، وأمره أن يرقص مقرفصاً. رفض التاجر، فاختطف الكونت زجاجة شمبانيا، وقلب التاجر على رأسه، وأمر بأن يمسكه بهذا الوضع، وسكب عليه ببطء زجاجة الشمبانيا كلها، وسط ضحك الجميع.

وطلع الفجر. وكان الجميع شاحبين متعبين ما خلا الكونت. قال فجأة وهو ينهض:

ـ على أية حال حان وقت سفري إلى موسكو. يا أولاد، تعالوا إلى مسكني جميعاً... رافقوني... سنشرب الشاي.

ووافق الجميع ما عدا مالك الأراضي الذي أخذته الغفوة، فبقي حيث هو، واكتظت بهم ثلاث زلاجات كانت واقفة عند المدخل، وسارت بهم إلى الفندق.

-٧-

- شدوا الخيول! - صاح الكونت، وهو يدخل الصالة العامة في الفندق بصحبة جميع ضيوفه والغجر. - يا ساشكا! لا أقصد ساشكا الغجري، بل خادمي، قل لناظر المحطة إنني سأوسعه ضرباً إن يعطينا خيولاً سيئة. وقدم الشاي لنا! زافالشيفسكي! أشرف على الشاي، فأنا ذاهب إلى إيلين لأرى كيف هو. - أضاف توربين، وخرج إلى الممر، متجهاً إلى غرفة الضابط الأولاني.

كان إيلين قد فرغ لتوه من اللعب، وخسر جميع نقوده إلى آخر كوبيك، وكان ينبطح على وجهه على أريكة من القماش الوبري الممزق، ناتفاً الوبر منه هلبة بعد أخرى، ليضعها في فمه، ويعضها ويبصقها. وكانت شمعتان من شموع الشحم احترقت إحداهما إلى الورق، تصارعان بوهن ضوء الصباح المتسلل من النوافذ، وهما على طاولة لعب تناثر عليها ورق اللعب. كان ذهن الأولاني خالياً من أية فكرة: فقد كان الضباب الكثيف لهوس اللعب يغلف كل مداركه الروحية، وحتى الندم لم يكن يحس به. حاول مرة أن يفكر ماذا عليه أن يفعل الآن، وكيف يغادر خاوي الجيب من أي كوبيك، وكيف سيدفع الخمسة عشر ألفاً من الأموال الحكومية التي خسرها، وماذا سيقول آمر فوجه، وماذا ستقول أمه، وماذا سيقول رفاقه، فتملكه رعب ونفور من نفسه جعلاه ينهض، رغبة في نسيان ذلك، ويروح ويجيء في حجرته، مجاهداً أن يطأ الفواصل بين ألواح الأرضية فقط، وعاد من جديد يسترجع مع نفسه أدق ملابسات اللعب الذي جرى. وراح يتصور بشكل حي كيف كاد يسترد خسارته، وكيف سحب تسعة، ووضع ملك البستوني على ألفي روبل، وإلى اليمين

ملكة، وإلى اليسار آس، وإلى اليمين ملك الديناري، وانهار كل شيء. فلو كانت ستة إلى اليمين، وملك الديناري إلى اليسار، لرددت خسارتي كلياً، ولو راهنت برهانين مرة أخرى، ولربحت خمسة عشر ألفاً صافية، ولأشتريت نفسي، آنذاك، فرساً سريعاً من آمر الفوج، وحصانين آخرين، ولاشتريت عربة صغيرة أيضاً. طيب، ثم ماذا بعد؟ سيكون ذلك روعة، روعة!

استلقى على الأريكة من جديد، وأخذ يقضم الوبر. راح يفكر: «لم هذه الأغاني في الغرفة رقم ٧؟ أعتقد أنهم يمرحون عند توربين. فماذا لو ذهبت هناك، وشربت بشكل طيب».

وفي تلك اللحظة دخل الكونت، وصاح:

- ماذا يا أخ، أفرغت جيوبك؟

ففكر إيلين: «لأتظاهر بأنني نائم، وإلا فسيكون علي أن أتحدث معه، بينما أنا نعسان».

إلا أن توربين اقترب منه، ومسد على رأسه.

- ماذا، يا صديقي الفاضل، فرغت جيوبك؟ خسرت؟ تكلم.

لم يجب إيلين.

جذبه الكونت من يده.

- خسرت. فماذا يهمك؟ - تمتم إيلين بصوت ناعس مستاء بغير اكتراث، ولكن دون أن يغير وضعه.

- كل شيء؟

- أي، نعم. وأي مصيبة في ذلك. كل شيء. وماذا يهمك؟

- اسمع، قل الحقيقة، كرفيق، - قال الكونت الذي كان يجنح إلى

الرقة تحت تأثير الخمرة، ماضياً في تمسيد شعره. ـ لقد أحببتك حقاً. قل الحقيقة: فإذا كنت قد خسرت أموالاً حكومية أسعفتك، وإلا فستفوت الفرصة... هل كانت أموالاً حكومية؟

قفز إيلين من الأريكة.

ـ إذا كنت تريد أن أقول لك لا تتحدث معي بهذا الشكل... لأنه... أرجوك لا تتكلم معي إطلاقاً... لم يبق أمامي إلا أن أطلق رصاصة على رأسي! ـ قال ذلك بقنوط صادق، وقد أوقع رأسه على يديه، وسالت دموعه، رغم أنه قبل دقيقة كان يفكر بالخيول هادئ النفس تماماً.

ـ آوه، يا لك من فتاة حلوة! ولكن من لم يحدث له ذلك؟ ليس هذا بالطامة الكبرى. أعتقد أننا سنصلح الأمر. انتظرني هنا قليلاً.

وخرج الكونت من الحجرة. وسأل الحاجب.

ـ أين يسكن مالك الأراضي لوخنوف؟

عرض الحاجب مرافقة الكونت إلى مبتغاه. ودخل الكونت الحجرة رغم تنبيه الخادم بأن سيده قد تفضل فدخل حجرته لتوه، وأنه يتكرم بأن يخلع ملابسه. كان لوخنوف يجلس في روبه المنزلي إلى الطاولة يعد بعض الحزم من أوراق النقد الموضوعة أمامه.

وعلى الطاولة زجاجة من خمرة الراين التي كان يحبها جداً. فقد سمح لنفسه هذه المتعة بعد أن ربح. نظر لوخنوف إلى الكونت ببرود وحدة من خلال نظارته، وكأنما لا يعرفه. قال الكونت، وهو يتقدم من الطاولة بخطى حازمة:

ـ يبدو كأنك لا تعرفني؟

عرف لوخنوف الكونت، وسأل:

- هل تود شيئاً؟

قال توربين، وهو يجلس على الأريكة:

- أحب أن ألعب معك قليلاً.

- الآن؟

- نعم.

- في وقت آخر، بكل سرور، يا كونت! أما الآن فأنا تعبان، وأريد أن أنام. ألا تحب شيئاً من النبيذ؟ نبيذ جيد.

- ولكنني الآن أريد أن ألعب قليلاً.

- لا أود أن ألعب اليوم أكثر. ربما سيلعب أحد السادة معك، أما أنا فلا، يا كونت! أعذرني، من فضلك.

- إذن، لا تريد؟

أشار لوخنوف بكتفيه إشارة تعبر عن أسفه على عدم إمكانية تلبية رغبة الكونت.

- لا تريد، في كل الأحوال؟

وصدرت من لوخنوف نفس الإشارة.

- ولكنني أرجوك جداً... فهل ستلعب؟...

صمت.

وسأل الكونت للمرة الثانية.

- هل ستلعب؟ تبصر بالأمر!

نفس الصمت، ونظرة سريعة من فوق النظارة إلى وجه الكونت الذي بدأ يتجهم.

ـ هل ستلعب؟ ـ صاح الكونت بصوت عال، وقد ضرب الطاولة بيده ضربة جعلت زجاجة خمرة الراين تسقط، وتندلق. ـ أنت لم تربح بطريقة نزيهة؟ هل ستلعب؟ أسألك للمرة الثالثة.

ـ قلت: لا. هذا شيء غريب حقاً، يا كونت! ومن غير اللائق كلياً أن يأتي إنسان إلى إنسان موجهاً السكين إلى حلقومه. ـ لاحظ لوخنوف ذلك دون أن يرفع بصره.

وتبع ذلك صمت قصير صار فيه وجه الكونت يزداد امتقاعاً.

وفجأة صعقت لوخنوف ضربة رهيبة صويت إلى رأسه، فوقع على الأريكة محاولاً أن يمسك بالنقود، وصرخ بصوت مصم مستميت لم يكن متوقعاً أبداً من شخصه الهادئ دائماً، والوقور باستمرار. جمع توربين ما تبقى من النقود التي كانت على الطاولة، ودفع الخادم الذي دخل راكضاً لنجدة سيده، وخرج من الحجرة بخطوات سريعة.

وأضاف الكونت، وقد عاد إلى باب لوخنوف:

ـ إذا أردت رد اعتبار، فأنا في خدمتك، سأظل في الغرفة نصف ساعة أخرى.

وتردد صوت من داخل الحجرة:

ـ محتال! نشال!... سأقدمك إلى محكمة.

كان إيلين ما يزال راقداً على الأريكة في غرفته، دون أن يعير التفاتاً لوعد الكونت في أن ينجده، وكانت عبرات القنوط تخنقه.

فإن وعي الواقع الذي أثارته رقة تعاطف الكونت معه من خلال ذلك الخليط الغريب من المشاعر والأفكار والذكريات التي كانت تفعم نفسه لم يتركه. وضاع إلى الأبد الشباب الغني بالأماني، والشرف

واحترام المجتمع، والآمال في الحب والصداقة. وأخذ ينبوع الدموع يجف، وصار شعور مطمئن للغاية باليأس يستحوذ عليه أكثر فأكثر، وأخذت فكرة الانتحار تراوده بإطراد متزايد، وقد كفت عن إثارة الاشمئزاز والرعب في نفسه. وفي هذا الوقت بالذات ترددت خطوات الكونت القوية.

كانت آثار الحنق ما تزال مرتسمة على وجه الكونت، وكانت يداه ترتجفان قليلاً، ولكن عينيه كانتا تشعان بالمرح الكريم والرضى بنفسه.

قال، وهو يلقي بعض حزم النقود على المنضدة:

ـ خذ، لقد استرددتها! احسب، هل هي كاملة؟ ثم أسرع إلى الصالة العامة، فأنا مغادر بعد قليل، ـ أضاف، وكأنه لم يلحظ ما ارتسم على وجه الأولاني من الانفعال الفظيع بالفرح والامتنان، وخرج من الحجرة، وهو يصفر بلحن أغنية غجرية.

ـ٨ـ

أعلن ساشكا، وقد أحكم شد النطاق على بطنه أن الخيول جاهزة، ولكنه طلب أن يذهب أولاً لكي يسترد معطف الكونت الذي زعم أنه يساوي مع ياقته ثلاثمائة روبل، ويعيد المعطف الأزرق الزائف إلى الوضيع الذي استبدله بالمعطف الأصلي، في بيت العميد. ولكن توربين قال لا ضرورة للبحث عن المعطف، وذهب إلى حجرته لتغيير ملابسه.

كان ضابط الخيالة يرسل فواقاً، وهو جالس بصمت قرب غجريته. طلب رئيس الشرطة فودكا، ودعا جميع الأسياد للذهاب إلى بيته لتناول الفطور واعداً بأن زوجته نفسها سترقص حتماً مع الغجر. وكان الشاب الوسيم يحاول إقناع اليوشكا بأن العزف على البيانو أكثر روحية، وأن

القيثار لا يستخرج أنصاف النغمات. وكان الموظف يحتسي الشاي في زاوية بادي الحزن، وكان يبدو في ضوء النهار خجولاً من فسوقه. وكان الغجر يتناقشون فيما بينهم، باللغة الغجرية، ويصرون على أن يغنوا على شرف الأسياد أكثر، فكانت ستيشا تعترض قائلة بأن بارورای (وهو، باللغة الغجرية، الكونت أو الأمير أو بدقة أكثر سيد القوم) سيغضب. وعلى العموم انطفأت في الجميع شرارة العربدة الأخيرة.

قال الكونت وهو يدخل القاعة في ثياب السفر غضاً بهيجاً أجمل من أي وقت مضى:

- هيا، أغنية أخرى للوداع، وتفرقوا بعدها إلى بيوتكم.

وتحلق الغجر مرة أخرى، وما أن هموا بالغناء، حتى دخل إيلين، وفي يده حزمة من أوراق النقد، ودعا الكونت إلى ناحية، وقال:

- كان كل ما معي من النقود الحكومية خمسة عشر ألفاً، بينما أعطيتني ستة عشر ألفاً وثلاثمائة، يعني هذه لك.

- جميل! هات!

أعطاه إيلين النقود ناظراً إليه بتهيب، وفتح فمه يريد أن يقول شيئاً، إلا أنه احمر فقط، حمرة جعلت الدموع تترقرق في عينيه، ثم أمسك يد الكونت وأخذ يشد عليها.

- سحقاً لك! يا اليوشكا!.. اسمعني... هذه النقود لك، شرط أن تودعني بالأغاني إلى بوابة المدينة. - وألقى على قيثاره الألف والثلاثمائة روبل التي جلبها إيلين له، ولكن الكونت نسي تماماً أن يرد المائة روبل التي استدانها من ضابط الخيالة يوم أمس.

وحين خرجت إلى مدخل الفندق جماعة الغجر، ورئيس الشرطة،

وضابط الخيالة، والشاب الوسيم، وإيلين، والكونت في معطفه الأزرق من فراء الدب، كانت الساعة العاشرة صباحاً، والشمس مرتفعة فوق السطوح، والشوارع تموج بحركة الناس، والباعة قد فتحوا دكاكينهم منذ وقت طويل، والنبلاء والموظفون يقطعون الشوارع راكبين، والسيدات يتنقلن بين صفوف الحوانيت. كان النهار مشمساً ودافئاً. وتقدمت من مدخل الفندق ثلاث زلاجات ميرية تجر كل واحدة منها ثلاثة خيول معكوفة الذيول. وبدأت الصحبة المرحة تحتل أماكنها. فجلس الكونت وايلين وستيشكا واليوشكا، وساشكا الخادم في الزلاجة الأولى وجن جنون بليوخر، وراح ينبح على الحصان الرئيس مبصبصاً بذيله، وجلس الأسياد الآخرون في الزلاجتين الأخريين بصحبة الغجريات والغجر أيضاً. ومنذ الانطلاق من الفندق تحاذت الزلاجات، وانخرط الغجر في أغنية جماعية.

قطعت الزلاجات الثلاث المدينة كلها حتى البوابة بالأغاني ورنين الأجراس دافعة جميع المارة الذين صادفوها إلى حافات الأرصفة.

وكانت الدهشة كبيرة على وجوه الباعة والمارة، الغرباء والمعارف بشكل خاص، وهم يرون الأشراف النبلاء يقطعون الشوارع في وضح النهار بالأغاني وبصحبة الغجريات والغجر السكارى.

وحين خرجت الزلاجات من بوابة المدينة توقفت، وصار الجميع يودعون الكونت.

وفجأة علا الحزن وجه إيلين الذي كان قد شرب كثيراً أثناء التوديع، وكان يسوق الخيول طوال الوقت، وأخذ يحث الكونت على أن يمكث يوماً آخر، ولكنه حين أيقن أن ذلك غير ممكن، اندفع يقبل صديقه الجديد

بشكل مفاجئ تماماً، والدموع تترقرق في عينيه، ووعد بأنه، حالما يصل إلى معسكره، سيطلب نقله إلى سلاح الفرسان، وإلى فوج الكونت بالذات. كان توربين كثير المرح، أوقع على تل ثلجي ضابط الخيالة الذي كان قد رفع الكلفة معه نهائياً منذ الصباح، فكان يخاطبه بضمير المفرد، وحرض بليوخر على ضابط الشرطة، واختطف ستيشكا على يديه، وأراد أن يحملها إلى موسكو، وأخيراً قفز إلى الزلاجة، وأجلس بليوخر إلى جنبه، وكان الكلب يريد طوال الوقت أن يقف في الوسط. ومرة أخرى طلب الخادم ساشكا من ضابط الخيالة أن يسترد معطف الكونت منهم وإرساله، وقفز أيضاً إلى مقعد الحوذي. صاح الكونت: «تحرك!» وخلع طاقيته، ولوح بها فوق رأسه، وصفر على الخيول على طريقة الحوذية. وتحركت الزلاجات كل واحدة إلى طيتها.

إلى مدى بعيد إلى الأمام كان يمتد سهل ثلجي رتيب يتلوى فيه شريط الطريق الأصفر الموحل، وكانت الشمس الساطعة تلمع متوامضة على القشرة المتجمدة اللامعة لثلج ذائب، تدفئ الوجه والظهر دفئاً مريحاً. وكان البخار يتصاعد من الخيول العرقة، وجرس يرن. تنحى فلاح عن طريق زلاجة الكونت، وكان يركض مطرطشاً في الطريق الثلجي الذائب بنعليه الليفيين المبللين، وراء زلاجة محملة، جاذباً الحبال. وكانت فلاحة بدينة حمراء الوجه تجلس في زلاجة أخرى حاثة كديش الزلاجة الأبيض المتهافت بأطراف العنان، وقد دثرت طفلاً عند صدرها، تحت معطف من فراء الغنم. وفجأة تذكر الكونت آنا فيدروفنا. صاح:

ـ ارجع!

لم يفهم الحوذي رأساً.

ـ استدر في طريق العودة! إلى المدينة! أسرع!

ومرت الزلاجة ببوابة المدينة ثانية، وانزلقت خفيفة إلى المدخل المصنوع من الألواح الخشبية لبيت السيدة زايتسفا. ركض الكونت نشيطاً على درجات السلم، ومر بالرواق، وحجرة الضيوف، ووجد الأرملة الشابة ما تزال نائمة، فحملها على يديه، ورفعها عن السرير، وقبلها من عينيها الناعستين، وخرج عائداً بخطوات نشيطة. تلمظت آنا فيدروفنا دون أن تعي، وهي ما تزال بين اليقظة والمنام، وسألت: «ماذا حصل؟» قفز الكونت إلى الزلاجة، وصاح بالحوذي أن انطلق، وخرج من مدينة ك، إلى الأبد، دون أن يتوقف، بل ولا يخطر في باله لوخنوف، ولا الأرملة الشابة، ولا ستيشكا، ولا يفكر إلا فيما كان ينتظره في موسكو.

ـ٩ـ

مر زهاء عشرين عاماً. وسالت مياه كثيرة خلال ذلك، توفي الكثيرون، وولد الكثيرون، وكبر الكثيرون وشاخوا، وأكثر من ذلك ولدت أفكار وماتت. واندثر الكثير من الحسن، والكثير من القبيح الشائخ ونضج الكثير من الأشياء الجميلة، والشابة والأكثر منها من الأشياء الفتية المبتسرة والمشوهة ظهر في أرض الله الواسعة.

وكان الكونت فيدور توربين قد قتل منذ زمان في مبارزة مع أجنبي كان قد ساطه بمقرعة الصيد في الشارع. وكان ابنه الذي كان يشبهه مثلما تشبه قطرة ماء قطرة أخرى، قد صار شاباً فاتناً في الثالثة والعشرين، يخدم ضابطاً في سلاح خيالة الحرس. وكان الكونت توربين الفتى لا يشبه أباه خلقياً على الإطلاق، بل لم يكن عليه أي ظل لتلك

الأهواء الهوجاء العارمة، والفاسقة، إذا قلنا الحق، لذلك الجيل الفائت. فإلى جانب الذهن الوقاد والثقافة، والطبيعة الموهوبة الموروثة، كان يتمتع بخصال حميدة أخرى: حب الحشمة والراحة في الحياة، والنظرة الواقعية إلى الناس والظروف، والتبصر والتزام جانب الحذر. وكان الكونت الشاب في الخدمة يسير سيراً مرموقاً، إنه برتبة ملازم وهو في الثالثة والعشرين... وعند بدء العمليات العسكرية استقر رأيه على أن الانتقال إلى الجيش العامل أنفع في الارتقاء إلى مراتب أعلى، فانتقل إلى فوج الفرسان برتبة نقيب، وبعدها بقليل رقي إلى منصب آمر كوكبة.

في أيار ١٨٤٨ كان فوج س. للفرسان يمر في ولاية ك، وكان على الكوكبة التي يقودها الكونت توربين الشاب أن تقضي ليلتها في موروزوفكا، قرية آنا فيدروفنا. كانت آنا فيدروفنا ما تزال على قيد الحياة، ولكنها قد فارقت الشباب إلى حد أنها هي أيضاً كانت لا تعتبر نفسها شابة، وهذا يعني الكثير بالنسبة للمرأة. وقد سمنت سمنة يقال إنها تعيد امرأة إلى شبابها. ولكن غضوناً كبيرة وناعمة كانت تتبدى للعين على هذه البدنة البيضاء. ولم تعد تنزل في عربتها إلى المدينة قط، بل كان يصعب عليها الصعود إلى العربة، ولكنها ظلت على طيبة نفسها، وبلاهتها الأولى. ويمكن قول الحق الآن بأنها لم تعد تغري الناس بجمالها. وكانت تعيش معها ابنتها ليزا، الحسناء الريفية الروسية ابنة الثالثة والعشرين من العمر، وأخوها ضابط الخيالة الذي عرفناه، والذي بدد، لصفاء سريرته، كل ضيعته، فلجأ إلى بيت آنا فيدروفنا شيخاً عجوزاً. كان شعر رأسه أشيب تماماً، وشفته العليا مخسوفة، ولكن الشاربين فوقها كانا قد صبغا تماماً بالصبغة السوداء. وكانت الغضون لا

تتفشى في جبينه وخديه فقط، بل وعلى أنفه ورقبته، وتقوس ظهره. ومع ذلك فقد كان في رجليه الواهنتين المعوجتين شيء يذكر بقيافة ضابط الخيالة القديم.

كانت عائلة آنا فيدروفنا كلها وخدمها جالسين في حجرة الجلوس الصغيرة لذلك البيت القديم المطل بباب شرفته والنوافذ على حديقة زيزفون عتيقة نجمية الشكل. كانت آنا فيدروفنا بشعرها الأشيب وسترتها المبطنة الليلكية تجلس على الأريكة أمام طاولة مستديرة من الخشب الأحمر تستخير الورق. وأخوها العجوز الجالس عند النافذة في بنطال أبيض نظيف، وسترة زرقاء، يحوك بخيط من القطن الأبيض، وهو عمل علمته إياه ابنة أخته، فشغف به، لأن عينيه الضعيفتين لم تعودا قادرتين على مطالعة الجرائد، هوايته المحببة. وكانت بيموتشكا الصبية التي تبنتها آنا فيدروفنا تعيد الدروس تحت إشراف ليزا التي كانت في الوقت ذاته تحوك بابر خشبية جوارب لخالها من شعر الماعز.

وكانت أشعة الشمس الغاربة الأخيرة تسقط، كما هي دائماً في مثل هذا الوقت، على النافذة في الطرف القصي، والرف المائل قربها مائلة متقطعة من خلل ممر الزيزفون المعرش. وكان السكون في الحديقة وفي الحجرة تاماً بحيث كان يسمع صوت خطاف يصفق جناحيه بسرعة وراء النافذة، أو أنفاس آنا فيدروفنا الهادئة في الحجرة، أو تأوه العجوز، وهو يضع ساقاً على ساق.

كفت آنا فيدروفنا عن صف الأوراق، وقالت:

ـ أين أضع هذه الورقة؟ ليزانكا، أريني، أكاد أنسى كل شيء.

تقدمت ليزا من أمها، دون أن تترك عملها، ونظرت إلى أوراق اللعب. وقالت، وهي تغير وضع الأوراق:

ـ آه، خلطت كل شيء، يا أمي العزيزة! هكذا كان يجب. على كل حال سيتحقق ما أضمرته. ـ أضافت ورفعت ورقة دون أن تلحظ.

ـ أوه، أنت دائماً تخدعينني بقولك سيتحقق.

ـ أقول لك الحق. سيتحقق. ها أنت ترين أن فألك موفق.

ـ حسناً، حسناً، يا مشاكسة! ألم يحن وقت الشاي؟

ـ طلبت، بالفعل، أن يسخن السماور. أنا ذاهبة الآن. هل يجلب إليك هنا؟ طيب، يا بيموتشكا، أنهي الدرس بسرعة، ولنذهب لنتنزه.

وخرجت ليزا إلى الفناء.

قال خالها، وهو يتفرس في حياكته:

ـ ليزانكا، ليزانكا! يبدو أني أضعت العقدة مرة أخرى. التقطيها يا عزيزتي!

ـ الآن، الآن، حالما أعطي السكر لكي يكسر.

وبالفعل دخلت الحجرة بعد ثلاث دقائق، وتقدمت من خالها، وأمسكته من أذنه، وقالت ضاحكة:

ـ هذا جزاء لك حتى لا تضيع العقدة. أنت لم تحك حتى ما كلفت به من واجب.

ـ طيب، كفى، كفى، عدليه. كانت هناك عقدة ما.

استلت ليزا الكلاب، وأخرجت دبوساً من منديلها، الذي عبثت به قليلاً نسمة هبت من النافذة، وأخرجت العقدة بالدبوس، على نحو ما، وسحبتها مرتين، وأعطت الكلاب لخالها.

قالت، وهي تقدم له خدها المورد، وتضع الدبوس في موضعه من منديلها.

ـ طيب، قبلني على ما فعلته لك. هل تريد الشاي مع الروم اليوم؟ فاليوم جمعة.

وذهبت إلى حجرة الشاي مرة أخرى.

ترامى من هناك صوت صداح:

ـ يا خال، تعال أنظر. فرسان قادمون إلينا!

ودخلت آنا فيدروفنا مع أخيها حجرة الشاي التي كانت نوافذها تواجه القرية لتشاهد الفرسان. كان مجال الرؤية من النافذة صغيراً جداً، فلم تر إلا جمهوراً يتحرك من خلال الغبار.

قال الخال لأخته:

ـ مؤسف، يا أختي، مؤسف أن المكان ضيق، والجناح لم يتم بناؤه بعد. وإلا لأسكنا بعض الضباط عندنا. فإن ضباط سلاح الفرسان فتية أماجد مرحون. وكنا سنمتع أنظارنا بهم على الأقل.

ـ بالطبع، كنت سأكون مسرورة من كل قلبي، ولكنك تعرف بنفسك يا أخي، أن لا مكان عندنا غير غرفة نومي، وغرفة ليزا الصغيرة، وحجرة الجلوس، وحجرتك هذه، وهذا كل شيء. فأين نسكنهم؟ احكم بنفسك. نظف لهم ميخايلو ماتفييف كوخ العمدة، وهو يقول ـ نظيف أيضاً.

قال الخال:

ـ حبذا لو بحثنا لك، يا ليزوتشكا، على عريس من بينهم، ضابط فرسان ماجداً.

ـ لا أريد ضابط فرسان، بل أريد ضابطاً أولانياً، ألم تخدم أنت، يا خالي، في سلاح الأولان؟ أما هؤلاء فلا أريد أن أعرفهم. يقولون إنهم متهورون جميعاً.

واحمرت ليزا قليلاً، ولكنها ضحكت من جديد ضحكتها الصداحة، وقالت:

- ها هي أوستيوشكا تجري راكضة. يجب أن نسألها ماذا رأت.

طلبت آنا فيدروفنا استدعاء أوستيوشكا. وقالت حين جاءت:

- أنت لم تقعدي للعمل، وكأنما هناك حاجة لأن تجري وتتفرجي على الجنود. طيب، أين أسكنوا الضباط؟

- في بيت آل بريومكين، يا سيدتي. ضابطان جميلان جداً! أحدهما كونت، كما يقولون.

- وما اسم عائلته؟

- ربما كازاروف أو توربينوف. اعذروني، لا أتذكر.

- أوه، حمقاء لا تعرف كيف تتحدث. على الأقل لو عرفت اسم العائلة.

- طيب، سأخطف رجلي.

- أها، أنا أعرف أنك شاطرة في ذلك. لا، لا تذهبي، ودعي دانيلو يذهب. أبلغه، يا أخي، أن يذهب، ويسأل عما إذا كان الضابطان بحاجة إلى شيء، يجب أن تجامل في كلامك، وليقل إن السيدة أمرت بذلك.

جلس العجوزان في غرفة الشاي مرة أخرى، بينما ذهبت ليزا إلى غرفة الخدم لتضع السكر المكسر في صندوق. وكانت أوستيوشا تتحدث في تلك الغرفة عن الفرسان. كانت تقول:

- يا آنستي، يا عزيزتي، أية وسامة لذلك الكونت، ملاك مجسد تماماً، أسود الحاجبين، مثل هذا العروس صالح لك خير زوج لخير زوجة.

ابتسمت الخادمات الأخريات باستحسان، وزفرت المربية العجوز

التي كانت تجلس عند النافذة تحوك جورباً، بل وتلت دعاء مالئة صدرها بالهواء. قالت ليزا:

- إذن، بهذا الشكل أعجبك الفرسان! ولكنك شاطرة في الكلام. اجلبي شراب الفاكهة، أستيوشا، أرجوك. سنضيف الفرسان على شراب حامض.

وخرجت ليزا من الغرفة ضاحكة تحمل سكرية.

وراحت تفكر: «وددت لو أرى أي فارس هذا. فاحم الشعر أم أشقر؟ أظنه سيكون مسروراً بالتعرف علينا. ولكنه سيذهب من هنا، دون أن يدري أنني كنت أفكر فيه في هذه الساعة. وكم من هؤلاء مروا بي بهذه الطريقة. لا يراني أحد ما عدا خالي وأوستيوشا.

لا أحد يتمتع بمرآي مهما مشطت شعري، وأي ردن لبست، - فكرت، وقد زفرت، ناظرة إلى يدها البيضاء الممتلئة. - لا بد أنه طويل القامة، ذو عينين واسعتين، ولربما له شاربان أسودان صغيران. أوه انقضي اثنان وعشرون عاماً، ولم يتعشقني أحد، غير ايفان ايباتيتش المجدور، وقبل أربعة أعوام كنت أحلى من الآن. وهكذا انقضى شبابي دون أن يجلب مسرة لأحد. آه، أنا تعيسة، تعيسة، آنسة ريفية».

وأخرج الآنسة الريفية من لحظة التفكير هذه صوت أمها يدعوها إلى أن تصب الشاي. نفضت رأسها، ودخلت غرفة الشاي.

إن خير الأشياء ما يأتي بالمصادفة، فأنت مهما تحاول ستزيد النتيجة سوءاً. وفي الريف نادراً ما يجتهد الناس في تربية أولادهم. ولهذا تتوفر لهم بالمصادفة وفي معظم الأحوال، تربية ممتازة. وهذا ما حصل، مع ليزا، على وجه الخصوص. فإن آنا فيدروفنا، لضيق ذهنها،

وطبعها الفاتر لم تقدم لليزا أية تربية، فلم تعلمها الموسيقى، ولا اللغة الفرنسية المفيدة للغاية، لكن المصادفة جعلتها تنجب من زوجها المرحوم ابنة موهوبة حلوة، فأعطتها إلى مرضعة ومربية، ووفرت لها الغذاء والملابس القطنية، والأحذية من جلد الماعز، وأرسلتها لتتنزه وتجمع الفطر والأعناب البرية، وعلمتها القراءة والكتابة والحساب عن طريق طالب لاهوت استأجرته، وبالمصادفة رأت في ليزا، بعد ستة عشر عاماً، صديقة ومدبرة بيت مرحة دائماً، طيبة القلب، ذات همة. وكانت آنا فيدروفنا، لنقاء سريرتها، تتبنى دائماً البنات من عوائل الأقنان أو المنبوذات.

وصارت ليزا، وهي في العاشرة، ترعاهن بتعليمهن، وإكسائهن، والذهاب معهن إلى الكنيسة، وتكف حين يتمادين في المشاكسة.

ثم جاء الخال الهزيل الطيب، فكان عليها أن تداريه، كما تداري طفلاً. ثم الخدم والفلاحون الذين كانوا يتوجهون للسيدة الشابة بطلباتهم، وعللهم التي كانت تعالجها بالبلسان، والنعناع، ومحلول الكافور الأثيري، ثم إدارة البيت، التي انتقلت كلها إلى يديها بالمصادفة. ثم الحاجة غير المشبعة إلى الحب التي لم تجد ما تنعكس عليه إلا الطبيعة والدين. وهكذا نشأت من ليزا، بالمصادفة، امرأة نشيطة، مرحة بصفاء قلب، مستقلة، نقية، متدينة بعمق. وفي الحق كانت هناك لحظات معاناة صغيرة من حب النفس، عندما كانت ترى جاراتها الواقفات على جانبها في الكنيسة في قبعات على الموضة جلبت من ك. وكما كانت هناك لحظات ضيق شديد إلى حد الدموع من نزوات أمها العجوز المتذمرة، وآمال في الحب تتخذ أشكالاً غاية في السخف، وأحياناً فظة ولكن

النشاط النافع الذي صار ضرورة، كان يبددها، وفي سن الثانية والعشرين لم تشب ضمير نفسها الصافية المطمئنة أية شائبة ولا أي تقريع، وهي الفتاة المتطورة المفعمة بالجمال الجسدي والروحي. كانت ليزا متوسطة القامة، أميل إلى البدانة منها إلى النحافة. وكانت عيناها بنيتين غير واسعتين، مع مسحة داكنة خفيفة على الجفنين تحت عينيها، وكانت لها ضفيرة كتانية طويلة. وكانت مشيتها واسعة الخطو، مع تمايل خفيف، مشية البطة، كما يقولون. وكان تعبير وجهها، حين تكون مستغرقة بعمل، ولا شيء يقلقها على وجه الخصوص يقول لكل من نظر إليها: الحياة حلوة ومرحة لمن له من يهدي في هذه الدنيا، وضمير نقي. وحتى في لحظات الضيق، والارتباك، والتوجس أو الحزن، حين كانت الدموع تترقرق في عينيها، ويتقوس حاجبها الأيسر وتنطبق شفتاها، كان قلبها الطيب الصريح الذي لم يفسده التفكير الزائد يطفح ـ رغم إرادتها ـ على نقرتي خديها، وعلى طرفي شفتيها، وعلى عينيها اللامعتين المتعودتين على الابتسام، والفرح بالحياة.

ـ ١٠ ـ

حين دخلت كوكبة الفرسان قرية موروزوفكا كان الهواء ما يزال حاراً، رغم غروب الشمس. كانت بقرة مبقعة تخلت عن القطيع، تركض إلى الأمام من شارع القرية المترب في عدو سريع متلفتة وهي تجأر متوقفة من حين لآخر دون أن تحدس بأن كل ما كان عليها أن تفعله هو أن تحيد جانباً. كان شيوخ القرية ونسوتها والأطفال والخدم ينظرون إلى الفرسان بنهم، محتشدين على جانبي الطريق. وكان الفرسان يتقدمون في

سحابة كثيفة من الغبار قارعين الأرض بحوافر خيولهم السحم المشكومة الصاهلة من حين لآخر.

وإلى الجانب الأيمن من الكوكبة كان ضابطان يرقلان مسترخين على صهوتي فرسين أسحمين جميلين. كان أحدهما آمر الكوكبة الكونت توربين، والآخر بولوزوف، وهو فتى في ريعان الشباب، رقي إلى رتبة ملازم ثان قبل وقت قصير.

خرج فارس في صدار أبيض من أحسن كوخ، وخلع قبعته، وتقدم من الضابطين. سأل الكونت:

- أين المسكن المخصص لنا؟

- للياقتكم؟ - أجاب معتمد الإسكان هذا مرتجفاً بكل جسده.

- هنا، في بيت العمدة، نظفوه. طلبت أن يسكنوكم في بيت السيدة، ولكنهم يقولون: لا. فهي مالكة أراض سيئة.

- وليكن، حسناً! - قال الكونت، ونزل من فرسه مطياً رجليه عند كوخ العمدة، - وهل وصلت عربتي؟

- نعم، يا صاحب اللياقة، وصلت! - أجاب معتمد الإسكان، مشيراً بطاقيته إلى حوض عربة جلدي يلوح عند الباب الخارجي، واندفع إلى رواق الكوخ المكتظ بعائلة فلاحية اجتمع أفرادها لرؤية الضابطين. حتى إنه أوقع عجوزاً حينما فتح باب الكوخ المنظف بحركة نشيطة، وتنحى أمام الكونت.

كان المسكن كبيراً إلى حد ما، ورحيباً، ولكنه غير نظيف تماماً. وكان الخادم الألماني يقف هناك بملابس السادة، وقد نصب سريراً حديدياً، وراح يخرج البياضات من الحقيبة. قال الكونت بانزعاج:

ـ فو! مسكن وضيع! ديادينكو! ألم يكن من الأفضل تخصيص مكان ما في بيت السيدة؟

أجاب ديادينكو:

ـ إذا شئتم، يا صاحب اللياقة، ذهبت وأخرجت أحداً من بيت السيدة. ولكن بيتها قبيح، ولا يبدو أفضل من هذا الكوخ.

ـ الآن، لم تعد هناك حاجة. اذهب.

واستلقى الكونت على الفراش، واضعاً يديه وراء رأسه.

ـ يوحنا! ـ صاح على خادمه. ـ مرة أخرى جعلت للفراش حدبة في الوسط! آه، أنت لا تحسن تسوية الفراش مطلقاً.

أراد يوحنا تعديل الفراش.

ـ لا، لا حاجة الآن... وأين الروب؟ ـ مضى الكونت يقول بصوت مستاء.

أعطاه الخادم الروب.

نظر الكونت إلى أحد الجناحين قبل أن يلبس الروب.

ـ كما توقعت. لم تزل البقع. لا أدري هل هناك أسوأ منك خدمة! ـ ثم أضاف، وهو ينتزع الروب من يديه، ويلبسه ـ قل لي: هل تفعل ذلك تعمداً؟... هل الشاي حاضر؟...

أجاب يوحنا:

ـ الوقت لا يسعفني.

ـ أحمق!

وبعد هذا تناول الكونت رواية فرنسية كان قد جلبها معه، وأخذ يقرأ فيها وقتاً طويلاً بصمت، بينما خرج يوحنا إلى الرواق يشعل

السماور. وكان يبدو أن الكونت في مزاج كدر، فلربما من تأثير التعب، واغبرار الوجه، وضيق الملابس، وخواء المعدة. صاح مرة أخرى:

ـ يوحنا! هات حساب الروبلات العشرة التي أعطيتها لك.

ماذا اشتريت في المدينة؟

قدم يوحنا الحساب، فنظر الكونت فيه، وأبدى ملاحظات مستاءة بخصوص غلاء المشتريات.

ـ قدم الروم مع الشاي.

قال يوحنا:

ـ لم أشتر الروم.

ـ ممتاز! كم مرة قلت لك يجب أن يكون الروم دائماً عندنا.

ـ لم تكف النقود.

ـ ولماذا لم يشتر بولوزوف؟ كان يمكن أن تأخذ من خادمه.

ـ الملازم الثاني بولوزوف؟ لا أدري. اشترى شاياً وسكراً.

ـ بهيمة!.. أخرج... أنت وحدك تقدر أن تخرجني عن أطواري... أنت تعرف أنني دائماً أشرب الشاي مع الروم أثناء المسيرة.

قال الخادم:

ـ هذه رسالتان لك من هيئة الأركان.

فض الكونت الرسالتين، وهو مستلق، وأخذ يقرأ. دخل الملازم الثاني بوجه مرح، بعد أن أسكن الكوكبة.

ـ إذن، كيف، يا توربين؟ يبدو المسكن جيداً. ولكنني متعب بصراحة. كان الجو حاراً.

ـ جيد جداً! كوخ تافه عفن، كما لا يوجد روم، بسببك. فإن خادمك التعيس لم يشتره، وكذلك هذا. على الأقل لو قلت له.

ومضى يقرأ. قرأ الرسالة إلى آخرها، ودعكها، ورماها على الأرض.

وخلال ذلك كان الملازم الثاني يسأل مراسله الجندي في الرواق:

ـ لماذا لم تشتر الروم؟ فقد كانت معك نقود؟

ـ يعني وحدنا سنشتري كل شيء! بدون هذا أنا أتحمل كل النفقات، بينما خادمه الألماني لا يفعل سوى تدخين غليونه.

لم تكن الرسالة الثانية غير سارة، على ما يبدو، لأن الكونت راح يقرؤها، وهو باسم.

ـ من أين هذه؟ ـ سأل بولوزوف، وقد عاد إلى الحجرة، مهيئاً له مضجعاً على ألواح خشبية قرب الموقد.

ـ من مينا، ـ أجاب الكونت، وهو يناوله الرسالة. ـ هل تريد أن تقرأها؟ أي فتنة في هذه المرأة! حقاً، إنها أفضل من أوانسنا الكريمات... أنظر كم من الذكاء والعواطف في هذه الرسالة!.. شيء واحد سيء أنها تطلب نقوداً.

قال الملازم الثاني:

ـ نعم، هذا سيء.

ـ في الحقيقة كنت قد وعدتها، فإذا بهذه الحملة تأتي ثم أن... على كل حال لو أبقى على رأس الكوكبة ثلاثة أشهر أخرى فسأرسل لها. ليس في ذلك خسارة، حقاً! أية فتنة هي!... ها؟ ـ كان يقول مبتسماً، مراقباً بعينيه التعبير المرتسم على وجه بولوزوف، الذي كان يقرأ الرسالة.

أجاب الملازم الثاني:

ـ كتابة رديئة جداً، ولكنها لطيفة. والظاهر أنها تحبك حقاً.

ـ احم! بالطبع! ولكن مثل هؤلاء النساء لا يحببن، إلا حين يحببن عن صدق.

ـ وتلك الرسالة من أين؟ ـ سأل الملازم الثاني وهو يعيد الرسالة التي كان يقرؤها.

ـ لا شيء... من سيد، قذر جداً، مدين له في لعب الورق، وها هو للمرة الثالثة يذكرني، ويسأل هل أستطيع أن أرد له دينه الآن... رسالة بلهاء! ـ رد الكونت منزعجاً، على ما يبدو، من هذه الذكرى.

صمت الضابطان كلاهما لوقت طويل، بعد هذا الحديث. راح الملازم الثاني الذي كان واقعاً تحت تأثير الكونت، على ما يبدو، يشرب الشاي صامتاً، محدقاً، من حين لآخر، بمظهر توربين الجميل المغبش، والكونت يحدق متفرساً في النافذة، غير عازم على أن يبادر بالحديث.

وفجأة قال الكونت، وهو يلتفت إلى بولوزوف، وقد هز رأسه بمرح:

ـ ربما سيكون الأمر على ما يرام. فإذا كانت هناك ترقيات في خطنا في هذه السنة، وانشغلنا في عمليات إضافة إلى ذلك، استطعت أن أسبق أصحابي من رؤساء الحرس.

واستمر الحديث في هذه الموضوع عند شرب القدح الثاني من الشاي أيضاً، حين دخل دانيلو، ونقل ما أمرت به آنا فيدروفنا.

ـ كما طلبت أن أسأل عما إذا كنت، سيادتك، ابن الكونت فيدور ايفانيتش توربين؟ ـ أضاف دانيلو من عنده، وكان يعرف اسم عائلة الضابط، وما يزال يتذكر قدوم الكونت الراحل إلى مدينة ك. ـ كانت سيدتنا، آنا فيدروفنا، تعرفه جيداً.

ـ كان هذا أبي. ثم قل للسيدة إننا ممتنون جداً، ولسنا بحاجة إلا لأن تأمر بأن تخصص لنا حجرة أنظف في البيت، أو في مكان آخر.

وعندما خرج دانيلو قال بولوزوف:

ـ ولم قلت هذا؟ وما الفرق؟ ما هي إلا ليلة واحدة نقضيها هنا أو هناك، ولا فرق. أما هم فسنضايقهم.

ـ كلام زائد! كفانا مبيتاً في البيوت الداخنة! منذ الآن يظهر أنك لست بالرجل الواقعي. ولماذا لا ننتهز الفرصة لو سنحت لنا أن ننام مثل الناس ليلة واحدة على الأقل؟ وهم، على العكس، سيكونون مرتاحين جداً. شيء واحد مزعج، إذا كانت هذه السيدة تعرف والدي بالفعل، ـ مضى الكونت يقول كاشفاً بابتسامة عن أسنانه البيض اللامعة ـ فأنا أحس دائماً بالخجل من المرحوم أبي فقد كانت هناك دائماً قصة فاضحة أو دين. ولهذا لا أطيق الالتقاء بمعارف أبي. على العموم كان ذلك جيلاً آخر، ـ أضاف وبجدية هذه المرة.

قال بولوزوف:

ـ ألم أخبرك بأنني التقيت ذات مرة بآمر اللواء الأولاني إيلين. وكان يود كثيراً أن يراك، فقد كان يحب والدك عظيم الحب.

ـ يبدو أن إيلين هذا تافه للغاية. والمهم أن كل هؤلاء السادة كانوا يؤكدون بأنهم كانوا يعرفون أبي ليكسبوا حظوتي، فيقصون عن أبي حكايات يخجل المرء من سماعها، ولكنهم يقصونها وكأنها أشياء لطيفة. في الحقيقة ـ وأنا لا أبالغ وأنظر إلى الأشياء نظرة محايدة ـ إنه كان رجلاً مشبوب العاطفة للغاية، وأحياناً كان يأتي أشياء غير محمودة. وعلى كل حال، كان ذلك بسبب زمانه، ولو عاش في زماننا لربما كان رجلاً كفوءاً للغاية، لأن قابلياته كانت ضخمة، ويجب أن ننصف.

بعد ربع ساعة عاد الخادم، ونقل رجاء مالكة الأراضي بالتفضل والمبيت عندها.

بدا الاهتمام على آنا فيدروفنا، حين علمت أن ضابط الفرسان هو ابن الكونت فيدور تورين، وقالت:

- أوه، يا أوليائي! إنه حماتي!... يا دانيلو، أسرع وقل له إن السيدة تدعوك إليها. - وخفت إلى حجرة الخدم بخطوات سريعة.

- ليزانكا! أوستيوشكا! يجب أن تهيئي حجرتك، يا ليزا. انتقلي إلى حيث يعيش خالك، وأنت، يا أخ... يا أخي، نم في حجرة الجلوس. لا يهم لليلة واحدة.

- لا يهم، يا أختي. سأضطجع على الأرض.

- أظنه جميلاً، إذا كان طالعاً على أبيه. على الأقل لو أنظر إليه، إلى محبوبي... فقط أن يكون في علمك أن أباه كان وسيماً، يا ليزا. إلى أين ننقل هذه الطاولة؟ ضعيها هنا. - قالت آنا فيدروفنا منشغلة. - اجلبي سريرين. خذي واحداً من القهرمان.

ثم خذي من الصوان الشمعدان البلور الذي أهداه لي أخي في عيد قديسي الشفيع، وضعي شمعة دهنية فيه.

وأخيراً تهيأ كل شيء. وأعدت ليزا غرفتها للضابطين على ذوقها الخاص، رغم تدخل أمها. وأخرجت بياضات للسرير نظيفة معطرة بعطر الخزامى، وهيأت السريرين. وأمرت بوضع دورق للماء وشموعاً على طاولة قرب السرير، وأحرقت بعض أوراق البخور في حجرة الخادمات، وسوت فراشها في غرفة خالها. هدأت آنا فيدروفنا قليلاً، وجلست في مكانها ثانية، بل وتناولت شدة الورق، ولكنها لم تستخرها، واتكأت على مرفقها الممتلئ، واستغرقت تفكر. وهمست في سرها مؤكدة: «آه،

الزمن، الزمن، كيف ينقضي بسرعة. وهل انقضى وقت طويل؟ كأنني أراه الآن. آه، كم كان عابثاً! ـ وتندت عينيها بالدموع. ـ الآن ليزانكا... ولكنها ليست هي كما كنت أنا في سنها... فتاة حلوة، ولكنها ليست كما كنت...».

ـ ليزانكا، حبذا لو ارتديت ثوبك الموسلين دولين للمساء.

ـ ولكن هل ستستضيفينهما، يا ماما؟ الأفضل لا، ـ أجابت ليزا، شاعرة بانفعال قاهر، لدى تفكيرها بأنها سترى الضابطين ـ الأفضل أن لا تفعلي، يا ماما!

وبالفعل كانت لا تشعر بالرغبة في رؤيتهما، بقدر ما كانت تخاف من سعادة مثيرة كانت تتخيل أنها في انتظارها.

ـ ربما سيرغبان هما في التعرف، ليزانكا! ـ قالت آنا فيدروفنا، وهي تمسد على شعرها، وتفكر في الوقت ذاته: «لا، ليس كذلك الشعر الذي كان لي في تلك السنين... أوه، يا ليزانكا، كأنني أتمنى لك...» وبالفعل كانت تتمنى لابنتها شيئاً وبشدة، ولكن ما كان في ميسورها أن تتصور زواج ابنتها بالكونت؛ كما ليس من الممكن لها أن ترغب في علاقات من تلك التي كانت لها مع أبيه، ولكنها كانت ترغب جداً، جداً في شيء لابنتها، فلعلها كانت تود أن تعيش مرة أخرى في شخص ابنتها تلك الحياة التي عاشتها مع الراحل.

كما كان ضابط الخيالة العجوز قلقاً بعض الشيء من قدوم الكونت. دخل حجرته، وأغلق بابها عليه. وبعد ربع ساعة خرج منها في صدار خيالة مقصب، وبنطال أزرق، ودخل إلى الحجرة التي أعدت للضيفين، وقد ارتسم على وجهه رضى مرتبك، كذلك الذي يرتسم على وجه فتاة ترتدي ثوباً للرقص لأول مرة.

ـ لأنظر أي فرسان هم فرسان اليوم، يا أختي! لقد كان الكونت الراحل فارساً حقاً. لأنظر، لأنظر.

وكان الضابطان قد دخلا إلى الحجرة المخصصة لهما من المدخل الخلفي.

ـ هاك أنظر، ـ قال الكونت، وهو يستلقي على الفراش المعد له، كما هو، في حذائه المترب الطويل العنق. ـ أليس هذا أفضل من كوخ الصراصير ذاك؟

ـ أفضل، أفضل، ولكننا سنكون مدينين لأهل البيت...

ـ هراء! يجب أن تكون واقعياً في كل شيء. أظنهم مرتاحين تماماً... ثم صاح: ـ يا خادم! أطلب شيئاً نسد له على هذه النافذة وإلا فسيحصل تيار في الليل.

وفي ذلك الحين دخل العجوز ليتعارف مع الضابطين. وطبيعي أنه رغم احمراره قليلاً، لم يحجم عن القول بأنه كان رفيقاً للكونت الراحل، وبأنه كان يتمتع بالحظوة عنده، بل وقال إنه صاحب أفضال على المرحوم. وطبيعي أن العجوز لم يوضح فيما إذا كان يشير بهذه الأفضال على المرحوم إلى المائة روبل التي استدانها الكونت منه ولم يردها، أو إلى إلقاء الكونت له على تل الثلج، أو إلى شتمه له. أبدى الكونت الشاب احترامه الشديد لضابط الخيالة العجوز، وشكره على إيوائه.

ـ أعذرونا على تواضع مسكننا، يا كونت (وكاد يقول يا صاحب السيادة، فقد نسي الآن كيف يخاطب الناس ذوي الأهمية) بيت أختي صغير. وسنعلق الآن شيئاً على النافذة، وسيكون مريحاً ـ أضاف العجوز ذلك وخرج من الغرفة شاحطاً بقدميه متذرعاً بالستارة، فالأهم أن يتحدث أسرع ما يمكن عن الضابطين.

جاءت أوستيوشكا الحلوة ومعها شال السيدة لتعلقه على النافذة بدل الستارة. وفضلاً عن ذلك أمرتها السيدة بأن تسأل فيما إذا كان السيدين يحبان أن يشربا الشاي.

والظاهر أن السكن المريح أثر تأثيراً طيباً في مزاج الكونت.

فقد أخذ يتمازح مع أوستيوشكا مبتسماً بمرح، حتى إن أوستيوشكا نعتته بالعابث، وسألها هل سيدتهم الصغيرة مليحة، وأجاب على عرضها الشاي بأن الشاي لا بأس لو قدم، ولكن الأهم منه ـ ما دام عشاؤه لم يحضر بعد ـ أن يقدم شيء من الفودكا، وبعض المشهيات وليكيور الخيرس، إن وجدت.

كان الخال مغتبطاً من احترام الكونت الشاب له، رفع إلى السماء الجيل الفتي من الضباط، قائلاً إن رجال اليوم أكثر تقدماً من رجال الجيل السابق بما لا يقاس.

ولم توافقه آنا فيدروفنا ـ فليس هناك من يفضل الكونت فيدور ايفانيتش ـ وأخيراً غضبت عن جد، واكتفت بالقول في جفاف: «بالنسبة لك، يا أخي، آخر من أطرى عليك هو الأفضل. من المعروف، بالطبع، أن الناس الآن صاروا أكثر ذكاء، ومع ذلك فإن الكونت فيدور ايفانيتش كان يجيد رقصة الايكوسيس ويتلطف مع الناس، حتى كانوا يجنون به جنوناً، إذا أمكن القول. سوى أنه لم يتعرف إلا علي. ومعنى ذلك كان هناك أناس طيبون، حتى في الماضي».

وفي تلك اللحظة وصل الخبر بأن الكونت يريد فودكا ومشهيات وليكيور الخيرس. فبادرت آنا فيدروفنا تقول:

ـ طيب، ما رأيك، يا أخي! دائماً لا تفعل ما ينبغي عليك أن

تفعله. كان يجب أن يؤمر بتهيئة العشاء. ليزا، تصرفي، يا صديقتي العزيزة!

هرعت ليزا إلى حجرة المؤنة لجلب الفطر والزبدة الطازجة، وطلبت من الطباخ أن يهيئ كفتة محمصة.

ـ لا أدري هل بقيت عندك خيرس، يا أخي؟

ـ لا، يا أختي. ولم تكن عندي.

ـ كيف لا! أنت تشرب شيئاً مع الشاي؟

ـ هذا روم، يا آنا فيدروفنا.

ـ وهل هناك فرق؟ قدم الروم، على أية حال. ثم أليس من المستحسن دعوتهما إلى هنا، يا أخي؟ أنت تعرف كل شيء. أظنهما لا يتكدران من ذلك.

وأعلن ضابط الخيالة أنه يتعهد بأن الكونت لما له من طيبة لن يرفض، وأنه سيأتي بهما حتماً. وذهبت آنا فيدروفنا لتلبس ثوبها من الحرير السميك للمناسبة. وقلنسوتها الجديدة. وكانت ليزا مشغولة جداً، بحيث لم يتسن لها الوقت لتخلع ثوبها القطني الوردي الذي كانت تلبسه بردنيه العريضين. كما أنها كانت منفعلة بشكل مريع، فقد كانت تتخيل أن في انتظارها شيئاً مذهلاً، وكأن سحابة سوداء واطئة تخيم على قلبها. فقد تصورت هذا الكونت الفارس، الجميل، مخلوقاً جديداً عليها تماماً، غير مفهوم، ولكنه بديع. وتخيلت أن خلقه وعاداته وكلامه لا بد أن تكون غير اعتيادية كلها لم تصادفها من قبل. وكل ما يفكر فيه ويقوله لا بد أن يكون ذكياً وصادقاً. وكل ما يفعله أو يأتيه لا بد أن يكون نقياً، وكل مظهره لا بد أن يكون رائعاً. ولم يراودها شك في ذلك.

فلو كان قد طلب حماماً من العطور، لا المشهيات وليكيور الخيرس، لما اندهشت، ولما اتهمته بشيء، ولظلت شديدة الوثوق بأن ذلك ضروري ولازم للغاية.

وافق الكونت على الفور حين أعرب ضابط الخيالة عن رغبة أخته، فمشط شعره، ولبس معطفه، وأخذ علبة سكائره. وقال لبولوزوف:

- لنذهب.

- الأفضل أن لا نذهب، حقاً. - أجاب الملازم الثاني، - Ils feront des frais pour nous recevoir*.

قال الكونت بالفرنسية:

- هراء. سيسعدهم ذلك. كما أنني استطلعت بالفعل، وعرفت أن لهم ابنة حلوة... لنذهب.

- Je vous en prie, messieurs** - قال الضابط ذلك لمجرد أن يشعر صاحبه بأنه هو الآخر يعرف الفرنسية، وفهم ما قاله الكونت.

- ١٢ -

احمرت ليزا، وغضت بصرها، وتظاهرت بأنها مشغولة بصب الشاي، خائفة من النظر إلى الضابطين، حين دخلا الغرفة. وعلى العكس من ذلك هبت آنا فيدروفنا عجلى، وانحنت، وأخذت تتحدث للكونت دون أن تصرف بصرها عن وجهه، عن الشبه الشديد التي تجده بينه وبين أبيه، ثم تقدم له ابنتها، ثم تعرض عليه الشاي والمربى أو معجنات

---

* سيبذرون لكي يستقبلونا (بالفرنسية).

** تفضلوا، يا سادة (بالفرنسية).

الفاكهة الريفية. ولم يلق أحد التفاتاً إلى الملازم الثاني لمظهره المتواضع مما سره كثيراً، لأنه ظل، بقدر ما تسمح اللياقة، يتمعن وينفذ إلى الدقائق في جمال ليزا التي بهرته بشكل مباغت، على ما يظهر. وكان الخال، وهو يستمع إلى حديث أخته مع الكونت، ينتهز الفرصة السانحة، وقد هيأ الكلام على لسانه، ليتحدث عن ذكرياته، وهو ضابط خيالة.

أشعل الكونت على الشاي سيغاره القوي الذي كانت ليزا بسببه تجد صعوبة في كبح سعالها، وصار أكثر ميلاً إلى الحديث، وحلاوة المعشر، في البداية كان يدخل حكاياته في فترات الانقطاع التي كانت تنشأ في أحاديث آنا فيدروفنا المتواصلة ثم سيطر على الحديث كلياً في آخر الأمر. شيء واحد غريب بعض الشيء أذهل المستمعين إليه. وهو أنه في حكاياته كان غالباً ما ينطق بكلمات جريئة نوعاً ما، وإن كانت لا تعتبر مؤذية في مجتمعه، حتى إن آنا فيدروفنا فزعت قليلاً، أما ليزا فقد احمرت حتى أذنيها، ولكن الكونت لم يلحظ ذلك، وظل كما هو بسيطاً هادئاً ولطيف المعشر.

كانت ليزا تصب الأقداح صامتة، دون أن تسلمها إلى أيدي الضيفين، بل تضعها على مقربة منهما. وتستمع إلى أحاديث الكونت، وهي ما تزال غير متغلبة على انفعالها. كانت بساطة حكاياته، وتلعثمه في الحديث يهدئانها شيئاً فشيئاً. لم تسمع منه أشياء ذكية جداً، كما كانت تتوقع، ولم تجد في كل شيء تلك الأناقة التي كانت تتوقع بشكل مبهم أن تجدها فيه. وحتى في القدح الثالث من الشاي بعد أن التقت عيناها المتهيبتان ذات مرة بعينيه، فلم يخفضهما، وتابع النظر إليها بهدوء جم مبتسماً ابتسامة خفيفة، شعرت حتى بشيء من العداء نحوه،

وسرعان ما وجدت أنه خلو من أي شيء مميز، بل ولا يختلف في شيء عن جميع الذين رأتهم، ولا يستحق منها أن ترهبه، لا شيء سوى أظافر نظيفة، طويلة، بل وليس فيه أي جمال ملحوظ. وفجأة تخلت ليزا عن حلمها، وليس بدون شيء من الوحشة الباطنية، ولم تقلقها إلا نظرة الملازم الثاني الصموت، تلك النظرة التي كانت ليزا تشعر بأنها مصوبة إليها. وراحت تفكر: «ربما ليس هو، بل هذا!».

ـ ١٣ ـ

بعد الشاي دعت العجوز الضيفين إلى حجرة أخرى، وجلست في مكانها من جديد. وسألت:

ـ ربما تريد أن تستريح، يا كونت؟ ـ وبعد أن تلقت جواباً بالنفي تابعت تقول: ـ بم أسامركما، يا ضيفي العزيزين؟ أتلعب الورق يا كونت؟ حبذا يا أخي، لو سامرتنا، ولعبت معنا لعبة ما.

أجاب ضابط الخيالة:

ـ ولكنك تجيدين لعبة البرفيرنس، فالعبوها سوية. ألا تريد، يا كونت، وأنت ألا تريد أن تلعب؟

أعلن الضابطان موافقتهما على أن يفعلا كل ما يحب أهل البيت الكرام.

جلبت ليزا من حجرتها شدة ورق قديمة كانت تستخيرها فيما إذا كان وجع الأسنان سيزايل آنا فيدروفنا قريباً، أو هل يعود الخال من المدينة اليوم، حين يخرج إليها، أو هل ستأتي الجارة اليوم لزيارتهم، إلى غير ذلك. وكانت شدة الورق هذه، رغم استخدامها شهرين، أنظف من شدة الورق التي كانت آنا فيدروفنا تستخيرها.

سأل الخال:

- ربما لا تحبان أن تلعبا برهان صغير، بينما أنا وآنا فيدروفنا نلعب بنصف كوبيك... ومع ذلك تغلبنا جميعاً.

أجاب الكونت:

- آه، أنا مسرور بأي رهان تشاؤون.

- طيب، بكوبيك من أوراق النقد. وليكسب الضيفان العزيزان كل نقودي، أنا العجوز، إذا كان ذلك ملائماً لهما. - قالت آنا فيدروفنا ذلك، وهي تتربع على مقعدها الوثير، وتعدل طرحتها.

بينما قالت لنفسها: «أو ربما أكسب منهما روبلاً» - وقد صار لعب الورق هواية صغيرة في شيخوختها، قال الكونت:

- إذا شئت علمتك لعبة طريفة جداً.

وأعجب الجميع كثيراً بلعبة بطرسبورغ الجديدة هذه. وأنشأ الخال يؤكد أن هذه تشبه لعبة البوستون، ولكنه قد نسيها قليلاً. أما آنا فيدروفنا فلم تفهم شيئاً، وبقيت على عدم فهمها وقتاً طويلاً حتى اضطرت إلى أن تبتسم وتهز رأسها باستحسان، وتؤكد على أنها تفهم الآن، وأن كل شيء واضح لها. وحدث الكثير من الضحك، في وسط اللعبة، حين طرحت آنا فيدروفنا الآس والملك فقط، بعد أن قالت «ميزر» وأبقت بيدها الستة. بل أخذت ترتبك، وتبتسم بتخوف، وتؤكد على عجل أنها لم تتعود بعد تماماً على اللعبة الجديدة. ومع ذلك فقد سجلوا عليها كثيراً، لا سيما وأن الكونت الذي تعود أن يلعب للربح كان يلعب بتحفظ، ويموه بشكل جيد جداً، ولم يفطن قط إلى ضربات التنبيه التي كان زميله الملازم الثاني يرسلها برجله إليه تحت الطاولة، وإلى أخطائه الشديدة في الأوراق التي يطرحها.

جلبت ليزا معجنات أخرى من الفواكه، وثلاثة أنواع من المربى، وتفاحات مخمرة بطريقة خاصة، ووضعتها وراء ظهر أمها، وراحت تتفرج على اللعب، ناظرة من حين إلى آخر إلى الضابطين، ولا سيما إلى يدي الكونت البيضاوين بأظافرهما المقلمة الوردية الرقيقة، حين كانت هاتان اليدان تلقيان الأوراق وتأخذان المكاسب عن خبرة وثقة وبطريقة جميلة.

ومرة أخرى، أصاب آنا فيدروفنا بعض الحماس، وتكلفت بأن تربح سبعة مكاسب في سباقها مع الآخرين، ولكنها قصرت عن رهانها بأربعة، وبناء على طلب أخيها خطت رقماً مشوهاً، وتحيرت واستعجلت.

ـ لا تهتمي، يا ماما، ستردين خسارتك. ـ قالت ليزا باسمة راغبة أن تخرج أمها من الوضع المضحك الذي وقعت فيه. ـ ستوقعين خالي، وعندئذ سيكون في وضع لا يحسد عليه.

ـ على الأقل لو ساعدتني، يا ليزوتشكا! ـ قالت آنا فيدروفنا، وهي تنظر إلى ابنتها برعب. ـ لا أعرف كيف...

أجابت ليزا، وهي تعد في سرها خسائر أمها:

ـ ولكنني لا أعرف كيف ألعب هذه اللعبة أيضاً. وخسارتك حتى الآن كثيرة، يا ماما! ـ وأضافت مازحة، ـ لن يبقى ما تشتري لبيموتشكا ملابسها.

قال الملازم الثاني وهو ينظر إلى ليزا، ويود التحدث معها:

ـ نعم، بهذا الشكل يمكن أن تخسري عشرة روبلات فضية بسهولة.

فسألت آنا فيدروفنا، وهي تجيل بصرها في الجميع:

ـ ألسنا نلعب بأوراق النقد؟

قال الكونت:

ـ لا أدري. ولكنني لا أعرف كيف أحسب بأوراق النقد. كيف ذاك؟ أقصد ما هي أوراق النقد هذه؟

ـ نعم، لا أحد يحسب الآن أوراق النقد. ـ بادر الخال، الذي كان يلعب بشحة، وكان يربح.

طلبت العجوز أن تعد منقوع الفواكه الفوار، وشربت قدحين، واحمرت، وبدت، وكأنها يائسة من كل شيء. بل وإنها لم تعدل خصلة شعرها الأشيب التي أفلتت من تحت القلنسوة. ولربما بدا لها أنها خسرت الملايين، وألقت نفسها في التهلكة كلياً. وكان الملازم الثاني يخز الكونت برجله أكثر فأكثر. وكان الكونت يسجل خسارات العجوز. وأخيراً انتهت اللعبة. ومهما حاولت آنا فيدروفنا أن تضيف إلى حساباتها، ضاغطة على ضميرها، وتتظاهر بأنها تخطأ في الحساب، ولا تستطيع أن تحسب، ومهما ارتعبت من ضخامة خسارتها، تبين في نهاية الحساب أنها خسرت تسعمائة وعشرين رهاناً وكانت تسأل عدة مرات «أيساوي هذا تسعة روبلات من أوراق النقد؟» ولم تدرك جسامة خسارتها، إلا حين أوضح لها أخوها، وهي مذعورة، أنها خسرت اثنين وثلاثين روبلاً ونصفاً من أوراق النقد، وأن عليها أن تدفع لا محالة. ونهض الكونت بعد نهاية اللعب، حتى دون أن يحصي ربحه، وتقدم من النافذة التي كانت ليزا تضع المشهيات عندها، وتخرج الفطر من العلبة إلى صحن للعشاء، وقام بهدوء تام وبساطة بما كان الملازم الثاني يريده طوال المساء، ولا يستطيع إتيانه، إذ دخل مع ليزا في حديث عن الطقس.

وكان الملازم الثاني في ذلك الوقت يجد نفسه في وضع محرج للغاية. وطفح غضب آنا فيدروفنا صراحة بعد أن حافظت على مزاجها

المرح، حين خرج الكونت وليزا بشكل خاص. قال بولوزوف لمجرد أن ينطق بشيء ما:

- على أية حال مؤسف أن يجعلوك تخسرين بهذا الشكل. إن ذلك مخجل تماماً.

- وعلاوة على ذلك ابتدعوا لعبة الجداول والميزارات هذه، وأنا لا أعرفها. - راحت تسأل: - كم المجموع في أوراق النقد؟

- اثنان وثلاثون روبلاً، اثنان وثلاثون ونصفاً، - كان ضابط الخيالة يردد، طلق الأسارير مما كسب. - هاتي النقود، يا أختي... هاتي.

- سأعطيكم كل شيء. ولكن لن تظفروا بي مرة أخرى. وحتى لو حصل فلن أستطيع أن أسترد خسارتي طوال حياتي.

وذهبت آنا فيدروفنا إلى حجرتها في مشية سريعة متمايلة، وعادت، وجلبت تسعة روبلات من أوراق النقد، ولم تدفع كل ما عليها إلا بعد مطالبة أخيها الملحة.

خشي بولوزوف قليلاً من أن تقرعه آنا فيدروفنا، إذا دخل في حديث معها. فانصرف عنها بتؤدة وصمت، وانضم إلى الكونت وليزا اللذين كانا يتحدثان عند النافذة المفتوحة.

كانت شمعتان من الشحم تضيئان في الحجرة على المائدة التي أعد العشاء عليها. وكان نسيم ليلة أيار الطري الدافئ يداعب ضوئيهما من آن لآخر. كما كانت النافذة المطلة على الحديقة مضاءة أيضاً، ولكن بضوء يختلف كلياً عن ضوء الحجرة. وكان البدر التمام تقريباً، وقد فقد لمعته الذهبية يطوف فوق قمم أشجار الزيزفون العالية، ويضيء أكثر فأكثر الغيوم البيض الرقيقة التي كانت تحجبه أحياناً، وكانت الضفادع

تنق في البركة التي كانت تلوح من خلال الدرب المعرش، وقد فضض البدر جانباً منها.

وكانت بعض الطيور الصغيرة تتقافز قليلاً وتنفش ريشها تحت النافذة تماماً، في دغل الليلك العبق الذي كان يهز أزاهيره الندية ببطء وبين حين وآخر.

قال الكونت، وهو يقترب من ليزا، ويجلس على النافذة الواطئة:

ـ أي طقس رائع! أظن أنك تتنزهين كثيراً.

ـ نعم، ـ ردت ليزا دون أن تشعر الآن، لسبب ما، بأي ارتباك في الحديث مع الكونت، ـ في الصباح أطلع لشؤون البيت في حوالي الساعة السابعة، فانتزه قليلاً مع بيموتشكا، الفتاة التي تبنتها أمي.

ـ الحياة في القرية لطيفة، ـ قال الكونت بعد أن وضع العدسة على عينه، وراح ينظر إلى الحديقة مرة، وإلى ليزا مرة أخرى. ـ وفي الليالي، ألا تتنزهين في ضوء القمر؟

ـ لا، ولكن قبل عامين كنت أتنزه مع الخال، حين يطلع القمر. كان عنده مرض غريب: الأرق. ما أن يكمل القمر ويصير بدراً حتى يأرق. وحجرته هذه تطل على الحديقة، والنافذة واطئة. والقمر يضرب عليه.

قال الكونت:

ـ غريب، يبدو أن هذه حجرتك؟

ـ لا، هنا سأنام اليوم فقط. حجرتي تسكنونها.

ـ صحيح؟... آه، يا إلهي!... طوال حياتي لن أغفر لنفسي إقلاقي لك بهذا الشكل، ـ قال الكونت ملقياً العدسة عن عينه إمارة على صدق عاطفته، ـ لو كنت أعرف أنني سأزعجك.

ـ لا إزعاج! على العكس، أنا مسرورة جداً. فإن حجرة خالي رائعة بهيجة، والنافذة واطئة، وسأجلس هناك حتى أغفو، أو أعبر النافذة إلى الحديقة، وأتنزه في الليل أيضاً.

وفكر الكونت مع نفسه وقد وضع العدسة على عينه من جديد: «أية فتاة ماجدة!»، ونظر إليها، وحاول متظاهراً بالجلوس على النافذة أن يمس قدمها بقدمه، وتابع تفكيره: «وبأية طريقة ماكرة أشعرتني بأنني أستطيع أن أراها عند النافذة في الحديقة، إذا كنت أريد». حتى إن ليزا فقدت جزءاً كبيراً من فتنتها في عينيه، لأن الظفر بها لاح له سهلاً.

قال الكونت، وهو ينظر ساهماً إلى الدروب المعرشة المعتمة:

ـ متعة رائعة، بالتأكيد، قضاء مثل هذه الليلة في حديقة مع الشخص الذي تحبينه.

ارتبكت ليزا قليلاً لهذه الكلمات، ولتكرار مسه لقدمها، وكأن ذلك عرضاً. وقبل أن تفكر قالت شيئاً لمجرد أن لا يلحظ عليها ارتباكها. قالت: «نعم، النزهة رائعة في الليالي المقمرة». وأحست بشيء من الامتعاض. ربطت العلبة التي كانت تضع منها الفطر، وهمت بالابتعاد عن النافذة حين أقبل الملازم الثاني عليها، فأرادت أن تعرف أي شخص هو. قال الملازم الثاني:

ـ يا له من ليل فاتن!

فكرت ليزا مع نفسها: «كلكم تتحدثون عن الطقس لا غير».

ومضى الملازم الثاني يقول:

ـ أي منظر خلاب! ـ وأضاف: ـ ولكنني أعتقد أنكم قد ضجرتم منه ـ متحدثاً حسب طبيعته المجبول عليها عن أشياء تجلب بعض الضيق للذين يعجب بهم كثيراً.

ـ ولماذا تظن ذلك؟ قد يضجر الإنسان من الطعام الواحد، واللباس الواحد، ولكنه لا يضجر من الحديقة الجميلة، حين يحب التمشي فيها، لا سيما حين يرتفع القمر في كبد السماء. البركة كلها ترى من غرفة خالي. سأنظر اليوم.

ـ لا أظن لديكم بلابل؟ ـ قال الكونت وقد استاء كثيراً من قدوم بولوزوف، وإعاقته له عن معرفة شروط اللقاء النهائية.

ـ بلى، كانت عندنا دائماً. ولكن الصيادين اصطادوا واحداً في السنة الماضية، وفي الأسبوع الماضي سمعت بلبلاً يغرد تغريداً جميلاً، ولكن رئيس شرطة القضاء جاء بعربته ذات الجرس، وأرعبه. قبل عامين كنت وخالي نجلس في درب معرش تحت الأشجار ونستمع إلى تغريده حوالي ساعتين.

قال الخال، وهو يقترب من المتحدثين:

ـ ماذا تحدثكما هذه الثرثارة؟ ألا تحبان أن تتمززا؟

خلال العشاء استطاع الكونت بإطرائه للطعام وبشهيته، أن يخفف قليلاً من مزاج السيدة العكر، وبعد ذلك استأذن الضابطان، وذهبا إلى حجرتهما. بعد أن صافح الكونت الخال، فأدهش آنا فيدروفنا بذلك، وشد على يدها أيضاً، دون أن يقبلها، وصافح يد ليزا، محدقاً في عينيها، خلال ذلك، وابتسم ابتسامته اللطيفة الخفيفة. وأربكت هذه النظرة الفتاة مرة أخرى.

وفكرت مع نفسها: «حلو جداً، ولكنه يهتم بنفسه كثيراً».

ـ ١٤ ـ

قال بولوزوف حين عاد الضابطان إلى حجرتهما:

ـ طيب، ألا تستحي؟ حاولت عن عمد أن أخسر، وكنت أوخزك بقدمي تحت الطاولة. طيب، ألا تخجل؟ العجوز تضايقت تماماً.

ضحك الكونت بقهقهة عالية.

ـ يا لها من سيدة مضحكة! كم تأذت!

وعاد إلى الضحك، حتى إن خادمه يوحنا، الواقف أمامه، أطرق ببصره، وابتسم ابتسامة خفيفة في ناحية.

ـ ابن صديق العائلة، هذا أنا!... ها، ها، ـ مضى الكونت يضحك.

قال الملازم الثاني:

ـ ليس هذا صحيحاً، بالفعل. حتى أخذتني الشفقة عليها.

ـ هراء! ما تزال غراً! يعني كنت تريدني أن أخسر؟ ولماذا يجب أن أخسر؟ كنت أخسر، حين كنت لا أجيد اللعب. عشرة روبلات تنفع، يا أخ. يجب أن تنظر إلى الحياة نظرة واقعية، وإلا فستستغفل دائماً.

لزم بولوزوف الصمت. وفضلاً عن ذلك كان يريد أن يفكر لوحده في ليزا التي بدت له مخلوقاً نقياً بشكل غير اعتيادي، ورائعاً. خلع ملابسه الخارجية، واستلقى على الفراش الناعم النظيف المعد له.

فكر وهو ينظر إلى النافذة التي أسدل عليها شال، والتي تتسلل منها أشعة القمر: «أي هراء هذه الأمجاد والشرف العسكري!

السعادة هنا، في العيش في ركن هادئ، مع زوجة حلوة ذكية بسيطة! هذه هي السعادة الراسخة الحقيقية!».

ولكنه، لسبب ما، لم يعلن هذه الأماني لصديقه، بل ولم يرد على

لسانه ذكر للفتاة الريفية، رغم أنه كان واثقاً أن الكونت أيضاً يفكر فيها.

سأل الملازم الثاني الكونت الذي كان يتمشى في الحجرة:

ـ لماذا لا تخلع ملابسك؟

ـ لا يأتيني النوم بعد، لسبب ما. اطفئ الشمعة، إذا شئت. سأستلقي بدونها.

ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهاباً.

ـ لا يأتيني النوم بعد، لسبب ما، كرر بولوزوف، وهو يشعر نفسه بعد أمسية اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، بتأثير الكونت السيئ والقادر على أن يثيره ضده. فكر مع نفسه يخاطب توربين في سره: «أنا أتصور أية أفكار تدور الآن في رأسك ذي الشعر المصفف! لقد رأيت مبلغ إعجابك بها. ولكنك عاجز عن فهم هذا المخلوق البسيط الطاهر. ما تريده هو مينا ورتبة العقيد. فلأسأله، بالفعل، ما رأيه فيها».

واستدار بولوزوف نحوه، ولكنه تخلى عن فكرته. فقد شعر ليس فقط بعدم قدرته على مناقشته إذا كان رأي الكونت في ليزا هو نفس الرأي الذي كان يتصوره، بل وبعدم قدرته على أن لا يوافقه على ذلك. إلى هذا الحد تعود إلى الخضوع للتأثير الذي كان يزداد كل يوم ثقلاً عليه، وإجحافاً به.

ـ إلى أين؟ ـ سأل، حين لبس الكونت طاقيته، وتقدم من الباب.

ـ ذاهب إلى الإسطبل، لأرى هل كل شيء على ما يرام.

ـ «غريب!» ـ فكر الملازم الثاني، ولكنه أطفأ الشمعة، محاولاً أن يطرد ما تسللت إلى ذهنه من أفكار الغيرة السخيفة والعداء نحو صديقه السابق، واستدار إلى جنبه الآخر.

وخلال ذلك كانت آنا فيدروفنا قد رسمت علامة الصليب، وقبلت برقة، وعلى مألوف عادتها، أخاها، وابنتها، والفتاة التي تبنتها، وانصرفت إلى غرفتها أيضاً. فقد مضى زمن طويل، والعجوز لم تشهد في يوم واحد هذا القدر الذي شهدته اليوم من الانطباعات، حتى إنها لم تستطع أن تصلي بهدوء، فقد ظلت تطارح ذهنها ذكريات حزينة حية عن الكونت الراحل وعن الشاب الغندور الذي غلبها في اللعب بلا حياء. ومع ذلك، فقد خلعت ثيابها، بحكم العادة، وشربت نصف قدح من مشروب الكفاس، كان جاهزاً على الطاولة الصغيرة قرب سريرها، واستلقت في فراشها. انسلت قطتها المحبوبة إلى حجرتها بهدوء. نادتها آنا فيدروفنا، وأخذت تمسد عليها مصغية إلى بربرتها الخافتة. ولم يأتها النوم.

فكرت في سرها: «القطة هي التي تمنع عني النوم». - فطردتها. وقعت القطة على الأرض بنعومة، وقفزت إلى سطح الموقد، وهي تهز ذيلها الوثير ببطء. ولكن الخادمة التي كانت تنام على الأرض في غرفتها دخلت في تلك اللحظة، لتفرش بساطها اللبادي، وتطفئ الشمعة، وتوقد قنديل النوم. وأخيراً راحت الخادمة تشخر أيضاً، وظل النوم لا يراود آنا فيدروفنا، ولا يهدئ خيالها المستثار. وبقي وجه الفارس يتراءى لها، حين أغمضت عينيها، وبدا وكأنه يتخذ في الغرفة أشكالاً غريبة مختلفة، حين كانت تفتح عينيها وتنظر في ضوء القنديل الباهت، إلى طاولة السرير، وإلى المنضدة الصغيرة، والثوب الأبيض المعلق. وكانت تستشعر الحر والاختناق تارة، وتتضايق بشدة من دقات الساعة على الطاولة تارة أخرى، ومن شخير الخادمة من أنفها تارة

ثالثة. أيقظتها وأمرتها بأن تكف عن الشخير. وعادت الأفكار تتضارب في رأسها بغرابة فتفكر في ابنتها، وفي الكونت العجوز والشاب، وفي لعبة الورق. والآن راحت ترى نفسها ترقص الفالس مع الكونت العجوز وتتخيل كتفيها البيضاوين المتلئتين، وتستشعر عليهما لثمات شخص ما، ثم تراءت لها ابنتها، في أحضان الكونت الشاب. وعادت أوستيوشكا تشخر من جديد...

«لا، ليس ناس اليوم كما كانوا أمس. كان مستعداً أن يلقي نفسه في النار من أجلي. وكان له ما يستحق أن يفعل ذلك من أجله. أما هذا فأظنه ينام الآن كالمغفل، مسروراً لأنه قد ربح. ولا يكلف نفسه أن يغازل قليلاً. بينما كان الآخر يركع على ركبتيه ويقول: «ماذا تريدين أن أفعل لك؟ أن أقتل نفسي الآن؟ وماذا تريدين؟» وكان سيقتل نفسه لو طلبت منه ذلك.

وفجأة تردد وقع أقدام حافية في الممر، ودخلت ليزا الحجرة راكضة وليس عليها غير الشال ملقى على كتفيها، وقد شحبت كلياً وراحت ترتعش، وكادت تسقط على سرير أمها...

وكانت ليزا قد ودعت أمها، وذهبت وحدها إلى حجرة خالها الكبيرة. حيث لبست بلوزتها البيضاء، وأخفت ضفيرتها الكثيفة الطويلة في المنديل، وأطفأت الشمعة، ورفعت الشباك، وجلست متربعة بقدميها على مقعد، متفرسة بعينيها المفكرتين في البركة التي كانت في تلك اللحظة تلمع كلية بلألاء فضي.

بغتة بدت أمامها كل مشاغلها واهتماماتها المعتادة في ضوء جديد كلياً: أمها العجوز الهوائية، وحبها القاطع الذي صار جزءاً من روحها،

وخالها الهرم واللطيف في الوقت ذاته، والخدم، والفلاحون، الذين يعبدون سيدتهم الصغيرة، وأبقار الحلب والعجول؛ كل هذه الطبيعة التي تموت وتبعث مرات لا تعد، كل هذه الطبيعة التي ترعرعت في أحضانها وأحبت الآخرين فيها وأحبها الآخرون، كل ما كان يعطيها راحة نفسية خفيفة ومريحة، كل ذلك بدا لها فجأة لا كما كان من قبل، كل ذلك بدا لها موحشاً، وغير ضروري. كأن أحداً قال لها: أيتها الحمقاء الصغيرة، أيتها الحمقاء الصغيرة! أضعت عشرين سنة من عمرك تخدمين هذا وذاك، دون أن تعرفي ما هي الحياة، وما هي السعادة! كان كل ذلك يجول في ذهنها الآن، وهي تحدق في عمق الحديقة المنورة الساكنة، وكان يجول أشد وأقوى بكثير مما كان يجول في ذهنها من قبل. فما الذي جعل هذه الخواطر تخطر في بالها؟ ليس هو، على الإطلاق، حبها للكونت، كما كان يمكن أن نخمن. كان الأحرى بها أن تميل إلى الملازم الثاني ولكنه قبيح، وفقير، وميال إلى الصمت. وقد نسيته دون أن تدري، وكانت تسترجع صورة الكونت في ذهنها بحنق وضيق. قالت لنفسها: «لا، ليس هذا الذي أريد». فقد كان مثالها خلاباً! كان مثالاً يمكن أن يكون محبوبها في مثل هذه الليلة، وهذه الطبيعة دون أن يفسد عليها جمالها مثالاً لم يتجسد قط ليصب في واقع فظ.

في البداية كانت كل قوة الحب التي غرستها العناية الإلهية في قلب كل إنسان بالتساوي، كامنة في نفسها سليمة راكدة، بسبب عزلتها وغياب الذين يمكن أن يثيروا انتباهها. والآن مضى وقت طويل جداً، وهي تعيش سعادة حزينة بإحساسها بانطواء نفسها على ذلك الشيء الذي كان من حين لآخر يفتح شغاف قلبها، ويستمتع بنضوج ثرواته، كل

ما كان فيه على شخص ما، دون أن يتروى بشيء. فعسى الله أن يجعلها تتمتع بهذه السعادة الشحيحة حتى القبر. ومن يدري فلربما هذا أفضل لها وأقوى؟ ولعله وحده الحقيقي والممكن؟

وراحت تفكر: «يا إلهي! أيعقل أنني أضعت سعادتي وصباي عبثاً، ولن يكون... لن يكون أبداً؟ أصحيح هذا؟» وأخذت تتمعن في السماء الوضيئة العالية قرب البدر، السماء المغطاة بسحب بيضاء متماوجة تتقدم نحو البدر مغطية على النجوم. وفكرت: «إذا حجبت هذه الغيمة البيضاء العليا وجه القمر، فمعنى ذلك صحيح».

سرى شريط دخاني مضبب على النصف الأسفل من القرص المنير، وصار الضوء أشحب قليلاً على العشب، وأعالي أشجار الزيزفون، وعلى البركة. وخفتت الظلال السوداء للأشجار. ومرت نسمة خفيفة على أوراق الشجر، وكأنها تلاحق الظل الكئيب الذي شمل الطبيعة، وحملت إلى النافذة رائحة الأوراق الندية، والأرض الرطبة، والليلك الزاهر.

عزت ليزا نفسها قائلة لها: «لا، ليس هذا صحيحاً. وإذا زغرد بلبل هذه الليلة، فمعنى ذلك أن كل ما أتصوره هراء، ولا حاجة إلى اليأس». وبعد ذلك بقيت صامتة لوقت طويل، منتظرة أحداً ما، رغم أن كل شيء قد تنور من جديد، وبعثت فيه الحياة، وداهمت السحب القمر عدة مرات، وتغبش كل شيء. وغلبها النعاس، وهي جالسة إلى النافذة، فأيقظها بلبل بزغردة سريعة سرت صداحة في البركة إلى الأسفل. وفتحت الفتاة الريفية عينيها. ومرة أخرى تجددت روحها كلها في متعة جديدة بهذا الاندماج الغامض بالطبيعة التي انداحت أمامها بهدوء وتنور شديدين. ارتفقت بكلتا يديها. واكتظ صدرها بشعور حلو مضن بالحزن،

واغرورقت عيناها بدموع الحب الصافي الرحب المتعطش إلى الإشباع، بدموع حلوة باعثة على العزاء. طوت ذراعيها على أفريز النافذة، ووضعت رأسها عليهما، وقفزت إلى ذهنها صلاتها المفضلة، وكأنما تلقائياً، وعلى هذه الصورة غفت ندية العينين.

مستها يد، فاستيقظت. ولكن هذه اليد مستها مساً خفيفاً لطيفاً. أخذت اليد تضغط على يدها بقوة أشد. وفجأة تذكرت الواقع، فصرخت، ووثبت، وخرجت راكضة من الحجرة، وهي تؤكد لنفسها أنها لم تعرف أن الشخص الذي كان واقفاً تحت النافذة مغموراً بأشعة القمر هو الكونت.

ـ ١٥ ـ

كان هذا الكونت بالفعل. سمع صيحة الفتاة، وتأوهات الحارس وراء السياج، وقد جاء على هذه الصيحة، فانطلق بسرعة وعجالة، وبشعور اللص الواقع بالمصيدة، راكضاً على العشب الرطب الندي إلى أعماق الحديقة. كان يردد بلا وعي:

«أنا أحمق حقاً، أفزعتها. كان يجب أن أوقظها بشكل أهدأ، بالكلمات. آه، أنا بهيمة خرقاء!» توقف، وأرهف سمعه. اجتاز الحارس السياج، وسار في الحديقة يجرجر عصاه على الدرب الرملي. كان على الكونت أن يختفي. انطلق نحو البركة. أخذت الضفادع تنط من تحت قدميه إلى الماء عجلى وتجعله يرتجف.

قرفص هناك، رغم تبلل قدميه، واسترجع في ذهنه كل ما فعل. كيف انسل عبر السياج، وبحث عن نافذتها، وأخيراً رأى شبحاً أبيض. راح يدنو ويبتعد عن النافذة عدة مرات، ويلتقط أدنى حفيف، فيتخيل

تارة أنها تنتظره لا محالة حانقة على بطئه، ويتصور تارة أخرى أن من المستحيل أن تقدم على هذا اللقاء بمثل هذه السهولة، وأخيراً ظن أن تظاهرها بالنوم ليس إلا نتيجة اضطرابها، وهي الفتاة الريفية، فتقدم منها بعزيمة، ورأى حالتها بوضوح، ولكنه لسبب ما ارتد يركض راجعاً إلى الوراء. إلا أنه خجل من جبنه، فاقترب منها بجرأة، ومس يدها. تنحنح الحارس مرة أخرى، وصرف باب الحديقة الخارجي، حين خرج منها. انصفقت نافذة حجرة الآنسة، وأسدلت صفاقتها من الداخل. وتأذى الكونت كثيراً من رؤية ذلك. وكان مستعداً أن يقدم ثمناً باهظاً لكي يبدأ كل شيء من جديد. الآن، ما كان من الممكن أن يتصرف بتلك الحماقة التي تصرف بها... «فتاة رائعة! غضة! الفتنة بعينها! فكيف فوت الفرصة... أنا بهيمة حمقاء!» كما أن النوم لم يتسرب إلى عينيه، فسار بخطى حاسمة لإنسان محنق مندفعاً إلى الأمام في الدرب المعرش بأشجار الزيزفون.

ولكن تلك الليلة أهدت، حتى له، حزناً مهدئاً وحاجة إلى الحب كثمار من عطاياها الباعثة إلى السكينة. كان الدرب الطيني بما فيه من سيقان العشب البارضة أو الأغصان الجافة مضاء بدوائر من الضوء المتسرب من أشجار الزيزفون الكثيفة، وبأشعة القمر المستقيمة الشاحبة. وأحياناً كان الضوء الساقط من جانب على غصن ملتو يبدو كالصوفة البيضاء النامية فوقه. وكانت الأوراق تتهامس من حين لآخر مفضضة. انطفأت الأضواء في البيت، وسكتت جميع الأصوات، وكان البلبل وحده يبدو وكأنه يملأ بصداحه كل هذه الرحاب الشاسعة الوضاءة والصامتة. راح الكونت يفكر مستنشقاً هواء الحديقة العطر: «يا إلهي، أية ليلة!

أية ليلة رائعة. شيء واحد يؤسفني. كأنني غير راض عني وعن الأصدقاء، غير راض عن الحياة كلها. ولكن الفتاة رائعة، حبيبة إلى القلب. ربما تكدرت، بالفعل...» واتخذت أحلامه وجهة أخرى، فتصور نفسه في هذه الحديقة مع الفتاة الريفية في أشد الأوضاع غرابة. ثم حلت فتاته اللطيفة مينا مكان الفتاة. «أي أحمق أنا! كان يجب أن أمسكها من خصرها، وأقبلها». وعاد الكونت إلى الحجرة وهذا الندم في قلبه.

كان الملازم الثاني ما يزال مستيقظاً، انقلب على السرير فوراً مديراً وجهه إلى الكونت. سأله الكونت:

- لست نائماً؟

- لا.

- هل أحدثك بشيء ما؟

- حسناً.

- لا، الأفضل أن أسكت... أم أحدثك. أعكف رجليك.

طرد الكونت من ذهنه اللقاء الذي فوته، وجلس على سرير زميله وعلى فمه ابتسامة منعشة.

- يمكنك أن تتصور أن هذه الفتاة حددت لي rendez- vous*.

- أهذا صحيح؟ - هتف بولوزوف، قافزاً من السرير.

- طيب، اسمع.

- ولكن كيف؟ متى؟ غير ممكن!

- حسناً، بينما كنتم تعدون نقاط اللعبة قالت لي إنها ستجلس إلى

* لقاء غرامي (بالفرنسية في الأصل).

النافذة في الليل، والنافذة واطئة يمكن الصعود منها. هذا هو الرجل العملي! وبينما كنت والعجوز تحسبان قمت بشغلتي. ولكنك سمعتها. فقد قالت في حضورك أنها ستجلس الليلة، عند النافذة، وتتفرج على البركة.

ـ ولكنها لم تعن شيئاً بذلك.

ـ بالضبط، ولكنني لا أعرف هل تعني شيئاً بكلامها أم لا.

ربما، بالفعل لم ترد رأساً أن تعني شيئاً بذلك، ولكن هذا لم يكن ظاهراً. وانتهى الأمر نهاية غريبة. لقد تصرفت تصرف الأحمق تماماً! ـ أضاف مبتسماً بازدراء من نفسه.

ـ ولكن كيف؟ أين كنت؟

وحكى له الكونت كل ما حصل ما عدا تردداته المتكررة.

ـ أفسدت الأمر بنفسي. كان يجب أن أكون أكثر جرأة.

راحت تصرخ، وابتعدت عن النافذة راكضة.

ـ إذن، راحت تصرخ، وابتعدت عن النافذة. ـ قال الملازم الثاني بابتسامة حرجة رداً على ابتسامة الكونت التي كان لها تأثير طويل وقوي عليه.

ـ نعم، والآن حان وقت النوم.

أدار الملازم الثاني ظهره إلى الباب من جديد، واستلقى صامتاً زهاء عشرة دقائق. والله يعلم ماذا كان يعتمل في سره خلال تلك الدقائق، ولكنه حين انقلب ثانية كان وجهه يعكس معاناة وحزماً.

قال بصوت متقطع:

ـ كونت تورbين!

رد الكونت بسكون:

- أتهذي في نومك أم كيف؟ ماذا يا ملازم بولوزوف؟

- كونت توربين! أنت وغد! - صاح بولوزوف، وقفز من سريره.

-١٦-

في اليوم التالي رحلت الكوكبة. ولم ير الضابطان ولم يودعا أهل البيت. كما لم يكلم أحدهما الآخر. واتفقا على أن يتبارزا في أول وقفة تصادفهما. ولكن النقيب شولتس، صديقهما الطيب، والفارس الممتاز، والمحبب إلى جميع من في الفوج، والشاهد الذي اختاره الكونت له، استطاع أن يسوي الأمر، فلم تقع المبارزة، بل ولم يسمع أحد بما حدث، وظل توربين وبولوزوف وإن لم يكونا على علاقاتهما الودية السابقة، يلتقيان على الغداء والعشاء ويخاطب أحدهما الآخر بضمير المفرد.

١١ نيسان ١٨٥٦

ثلاث ميتات
قصة

-١-

كان الفصل خريفاً. وكانت عربتان تسيران خبباً في الطريق الكبيرة. في العربة الأمامية امرأتان إحداهما سيدة من علية القوم نحيلة شاحبة، والثانية وصيفة صقيلة الخدين ممتلئة الجسم.

سرح شعر قصير جاف من تحت القبعة الناصلة اللون، فعدلته يد حمراء في قفاز ممزق بحركة حادة. وكان الصدر الناهد من تحت المنديل المشجر يشع عافية. وكانت العينان السوداوان السريعتان تتنقلان بين مراقبة الحقول المتراكضة من خلال النافذة، وبين الرنو إلى السيدة بوجل، والنظر إلى زوايا العربة بقلق. كانت قبعة السيدة المربوطة إلى شبكة تتأرجح أمام أنف الوصيفة، ويرقد جرو على ركبتيها، وكانت قدماها مرفوعتين بسبب العلب الموضوعة على أرضية العربة، فكانت تضربان بها ضرباً لا يكاد يسمع وسط أصوات قرقعة النوابض، واهتزاز الزجاج.

وكانت السيدة قد وضعت يديها على ركبتيها، وأغمضت عينيها، وراحت تتأرجح بوهن على الوسائد الموضوعة وراء ظهرها، وتسعل سعالاً عميقاً، مغضنة وجهها قليلاً. كانت تضع على رأسها طاقية ليلية بيضاء، ولفاحاً مثلثاً أزرق مربوطاً على رقبتها الرقيقة الشاحبة.

وكان مفرق شعرها المستقيم في وسط الرأس، وهو يختفي تحت الطاقية، يشطر شعرها الأشقر السبط للغاية المطلي بدهان عطري، ويشف بياض جلدته عن شيء يابس بلا حياة. وكانت بشرة وجهها الذابلة المصفرة قليلاً تلتصق برخاوة على قسماته الرقيقة الجميلة وتتورد على الخدين والوجنتين. وكانت شفتاها يابستين مضطربتين، ورموشها الهزيلة لا ترف. ومبذل السفر المصنوع من الجوخ يتثنى طيات مستقيمة على صدرها الخاسف. ووجهها، ورغم إغماض عينيها، ينم عن تعب وضيق ومعاناة معتادة.

كان الخادم قد وضع مرفقه على ذراع كرسيه، وهوم قرب الحوذي، وكان حوذي عربة البريد يسوق الرباعي الضخم العرق من الخيول، صائحاً عليه بهمة، ملتفتاً من حين لآخر إلى الحوذي الآخر الذي كان يصيح على خيوله المركبة وراءه. وكان الخطان المتوازيان العريضان اللذان تخلفهما العجلات يمتدان باستقامة وسرعة على وحل الطريق الكلسي. وكانت السماء رمادية باردة، والعتمة الرطبة تسترخي على الحقل والطريق. كان جو المركبة خانقاً يفوح برائحة الكولونيا والغبار. سحبت المريضة رأسها من متكئه، وفتحت عينيها ببطء. كانت عيناها الوسيعتان لامعتين داكنتين دكنة جميلة.

ـ مرة أخرى.

قالت دافعة بيدها النحيلة الجميلة في عصبية، طرف رداء الوصيفة الذي مس قدمها مساً خفيفاً، واعوج فمها بشكل سقيم.

جمعت ماتروشا رداءها بكلتا يديها، ورفعت جسمها قليلاً على رجليها القويتين وابتعدت في جلستها. واصطبغ وجهها النضر بتورد

وهاج. تابعت عينا المريضة الداكنتان الجميلتان حركات الوصيفة بنهم. استندت السيدة على المقعد بكلتا يديها، وأرادت أيضاً أن ترفع جسمها قليلاً، لتجلس أعلى من جلستها الأولى، إلا أن قواها خانتها. تلوى فمها، وتشوه وجهها كله بما ارتسم عليه من العجز والتهكم الحانق.

ـ على الأقل لو ساعدتني!.. آه! لا حاجة! أستطيع لوحدي، فقط ألا تضعي ورائي أكياسك، اعملي معروفاً!... الأفضل ألا تفعلي شيئاً، إذا كنت لا تعرفين!

وأغمضت السيدة عينيها إلا أنها رفعت جفنيها بسرعة، ونظرت إلى الوصيفة. عضت ماتروشا على شفتها السفلى الحمراء، وهي تنظر إليها. انبعثت زفرة ثقيلة من صدر المريضة، إلا أنها لم تتم، وتحولت إلى سعال. أشاحت بوجهها، وغضنت وجهها، وأمسكت صدرها بكلتا يديها. وحين زالت نوبة السعال، أغمضت عينيها ثانية، وواصلت جلستها الجامدة، دخلت العربة والمركبة قرية.

أخرجت ماتروشا يدها الممتلئة من تحت المنديل، ورسمت علامة الصليب.

سألت السيدة:

ـ ما هذا؟

ـ محطة، يا سيدتي.

ـ أنا أسأل: لماذا ترسمين علامة الصليب؟

ـ هذه كنيسة، يا سيدتي.

استدارت المريضة نحو نافذة المركبة، وأخذت ترسم علامة الصليب ببطء، محدقة بكل عينيها الواسعتين في كنيسة خشبية استدارت حولها مركبة المريضة.

وتوقفت المركبة والعربة سوية عند المحطة. نزل من العربة زوج المرأة المريضة ودكتور، وتقدما من المركبة. وسأل الدكتور وهو يجس نبضها:

ـ كيف تشعرين؟

وسأل الزوج بالفرنسية:

ـ هل أنت متعبة، يا عزيزتي؟ ألا تودين أن تنزلي؟

جمعت ماتروشا الصرر، وانكمشت في ركن كيلا تعيق الحديث.

أجابت المريضة:

ـ لا بأس. نفس الشيء. لا أنزل.

وقف الزوج برهة، ودخل في مبنى المحطة. نزلت ماتروشا من المركبة بخفة، وسارت في الوحل إلى البوابة على أطراف أصابعهما.

وقالت المريضة مبتسمة مخاطبة الدكتور الذي كان يقف عند نافذة المركبة:

ـ إذا كنت متوعكة، فليس ذلك سبباً لكي تمتنعوا عن الإفطار.

«لا أحد له شأن بي ـ أضافت السيدة في سرها، حالما غادر الدكتور، مبتعداً عنها بخطو هادئ، واختطف درجات المحطة خطفاً أنهم بخير، ولهذا لا يهمهم شيء. أوه، يا إلهي!».

ـ ماذا، يا إدوارد ايفانوفيتش ـ قال الزوج، لدى التقائه بالطبيب، وهو يفرك يديه بابتسامة مرحة ـ لقد أمرت بجلب صندوق المؤونة فما رأيك في هذا؟

أجاب الطبيب:

ـ ممكن.

ـ كيف هي؟

سأل الزوج متنهداً، مخفضاً صوته، رافعاً حاجبيه.

ـ قلت كثيراً: إنها لا تستطيع الوصول إلى إيطاليا. بل وحمداً لله إذا وصلت إلى موسكو، لا سيما في هذا الطقس.

ـ ما العمل إذن؟ آه، يا إلهي، يا إلهي! ـ وغطى الزوج وجهه بيده. ثم أضاف مخاطباً الرجل الذي جلب صندوق المؤنة ـ هاته هنا.

هز الدكتور كتفيه، وأجاب:

ـ كان يجب البقاء.

فقال الزوج معترضاً:

ـ ولكن قل لي: ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ فقد استخدمت كل الوسائل لإبقائها، وأنا أقصد بذلك الأموال، والأطفال التي يتوجب علينا أن نتركهم، وأعمالي. ولكنها لا تريد أن تصغي إلى شيء، فهي تضع الخطط للعيش في الخارج وكأنما تملك عافيتها. والتحدث عن حالتها كان سيعني نهايتها.

ـ ولكنها منتهية بالفعل، وهذا ما يجب أن تعرفه، يا فاسيلي دميتريتش. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش إذا كان قد استنفد رئتيه، وليس من المستطاع خلق رئتين جديدتين. الأمر مفجع ومرهق. ولكن ما العمل؟ إن مهمتنا ومهمتك تنحصر في أن نجعل نهايتها هادئة قدر المستطاع. نحن نحتاج هنا إلى كاهن.

ـ أوه، يا إلهي! ولكن افهم وضعي، لو ذكرت لها الوصية. لن أقول لها ذلك، وليكن ما يكون. فأنت تعرف كم هي طيبة...

ـ على أية حال حاول أن تقنعها بالبقاء حتى يحل الشتاء وتكتسي الطرق بالثلوج. ـ قال الدكتور هازاً رأسه بمغزى ـ وإلا فإن الطريق يمكن أن يضرها...

ـ اكسيوشا، يا اكسيوشا! ـ قالت ابنة ناظر المحطة بصوت كالوأوأة، وقد ألقت عليها كنزة، وصوتت قدماها، وهما تطآن مدخل البيت الخلفي الموحل ـ تعالي نتفرج على بنت الذوات، يقال إنهم يأخذونها إلى الخارج لإصابتها بمرض الصدر. أنا لم أر مسلولين قط.

اندفعت اكسيوشا إلى العتبة، وركضت الفتاتان إلى ما وراء بوابة المحطة وإحداهما تمسك بيد الأخرى. أبطأتا خطوهما، ومرتا بالمركبة، ونظرتا في النافذة التي أنزل زجاجها. أدارت المريضة لهما رأسها، إلا أنها تجهمت وأشاحت بوجهها حين لاحظت فضولهما.

ـ آه، يا أمي! ـ قالت ابنة ناظر المحطة، وهي تدير رأسها بسرعة ـ كم كانت فائقة الجمال. والآن كيف صارت؟ ونحيفة أيضاً.

هل رأيت، اكسيوشا، هل رأيت؟

فجارتها اكسيوشا قائلة:

ـ نعم، ما أهزلها! تعالي نتفرج مرة أخرى، وكأننا ذاهبتان إلى البئر، أدارت وجهها، ولكنني رأيت شيئاً آخر. كم هي بائسة، يا ماشا.

ـ نعم، وأية قذارة!

ردت ماشا، وركضت الفتاتان عائدتين إلى البوابة.

فكرت المريضة مع نفسها: «يبدو أنني صرت مرعبة. لا أرجو إلا أن أسافر إلى الخارج في أقرب وقت، وسأتعافى هناك بسرعة».

ـ والآن، كيف أنت، يا خليلتي؟

قال الزوج، وهو يقترب من المركبة ويمضغ لقمة.

فكرت المريضة مع نفسها: «نفس السؤال دائماً، وهو نفسه يأكل».

تمتمت من بين شفتيها:

ـ لا بأس.

ـ أخشى، يا خليلتي، أن تسوء حالتك أكثر في الطريق في هذا الطقس. وإدوارد ايفانيتش يقول الشيء ذاته. ألا يتوجب علينا أن نعود؟

التزمت الصمت غضبى.

ـ سيعتدل الطقس، ربما، ويتحسن الطريق، وسيكون ذلك أروح لك، فنسافر جميعنا سوية.

ـ اعذرني. لو كنت قد امتنعت منذ زمان عن الإصغاء إليك، لكنت الآن في برلين، ولكنت في عافية تامة.

ـ ما العمل، يا ملاكي، فقد كان ذلك مستحيلاً، وأنت تعرفين.

والآن لو تمكثين شهراً فستشفين جيداً، وسأنهي أنا أعمالي، وسنأخذ الأطفال معنا.

ـ الأطفال أصحاء، وأنا لا.

ـ ولكن أرجو أن تفهمي، يا خليلتي، إذا كان السفر في مثل هذا الطقس، يجعلك أسوأ حالاً، عندئذ في البيت على الأقل...

ـ ماذا في بيتي؟ أموت في بيتي؟

ردت المريضة محتدة. ولكن كلمة الموت قد أفزعتها، على ما يبدو، فنظرت إلى زوجها متضرعة متسائلة. فغض الزوج بصره، ولزم الصمت. فإذا بفم المريضة يتلوى كفم طفلة، وتنهمر الدموع من عينيها. غطى الزوج وجهه بمنديل، وابتعد عن المركبة.

ـ لا، سأذهب ـ قالت المريضة رافعة بصرها إلى السماء، وطوت ذراعيها، وأخذت تهمس بكلمات غير مترابطة ـ يا إلهي!

ما ذنبي؟ - قالت ذلك، وزاد انهمار الدموع من عينيها. وراحت تصلي بحرارة، ولوقت طويل. ولكن صدرها ظل على ألمه واختناقه، والسماء والحقول والطريق بقيت، كما كانت، رمادية، مربدة، وعتمة الخريف، بقيت على حالها، بلا زيادة أو نقصان، تجثم على وحل الطريق، وعلى السطوح، وعلى المركبة، وعلى فروات الحوذية الذين كانوا يتحدثون بأصوات قوية مرحة، ويدهنون المركبة، ويشدون العدة عليها...

- ٢ -

شدت الخيول إلى المركبة، إلا أن الحوذي كان يتباطأ، دخل في مبنى المحطة الخشبي. كان جو المبنى حاراً خانقاً، ومظلماً ثقيلاً، فيه رائحة سكن، وخبز طازج وكرنب وفراء غنم. كان بعض الحوذية في حجرة الطعام، والطباخة مشغولة عند الموقد، وعلى سطح الموقد رقد مريض على فروات غنم.

- يا عم خفيدور! يا عم خفيدور، - خاطب المريض حوذي شاب في فروة طويلة، عند دخوله الحجرة والسوط في حزامه. فرد أحد الحوذية:

- ما شأنك بفيدكا، أيها العاطل والناس ينتظرونك في المركبة!

- أريد أن أطلب منه حذاءً، فقد تآكل حذائي، - أجاب الشاب، وهو يدفع شعره إلى الوراء، ويعدل قفازيه المحشورين وراء حزامه.

- هل هو نائم؟ - وكرر ثانية وهو يتقدم من الموقد: - ها، يا عم خفيدور؟

- ماذا ؟ - تردد صوت واهن، وانحنى من فوق الموقد وجه نحيف أصهب، وامتدت يد عريضة هزيلة شاحبة مغطاة بالشعر لتحشر القفطان على كتف ناتئة في قميص قذر، وقال الصوت.

ـ أعطني أشرب، يا أخ، ماذا بك؟

قدم الشاب له كوز ماء، وقال مغيراً لهجته:

ـ أظنك، يا فيديا، لا تحتاج الآن إلى حذاء جديد، أعطني إياه، ما دمت ستلازم الفراش، على ما أظن، لا تلبسه.

أمال المريض رأسه المتعب إلى الكوز القصديري، وراح يشرب الماء الداكن بونى وعطش مبللاً به شاربيه الهزيلين المرتخيين، كانت لحيته الملتفة الشعر قذرة. وبمجاهدة رفع إلى وجه الشاب عينيه الكابيتين الغائرتين. انصرف عن الماء، وأراد أن يرفع يده، ليمسح شفتيه المبللتين، إلا أنه لم يقو على ذلك، فمسحها بكم القفطان. حدق في عيني الشاب صامتاً ثقيل الأنفاس، يستجمع قواه.

ـ ربما وعدت به أحداً من قبل، ـ قال الشاب. ـ هكذا بلا مقابل. المهم في الأمر أن الطقس رطب، وعلي أن أسافر في مهمة، فقلت لنفسي: دعني أطلب من فيدكا حذاءه، فهو لا يحتاج إليه، على ما أظن. قل لي بصراحة ربما أنت تحتاج إليه...

أخذ شيء يتحشرج ويقرقر في صدر المريض، فطوى جذعه، وانتابته نوبة سعال من أسفل الحنجرة لا قرار لها.

ـ ما حاجته إليه الآن ـ زعقت الطباخة غاضبة فجأة، وملأ صوتها أرجاء البيت ـ هذا هو الشهر الثاني، وهو لا ينزل من سطح الموقد. ألا تسمع السعال يمزق صدره، والألم ينفذ حتى إلى حناياي عندما أسمعه. فما حاجته إلى الحذاء؟ لن يدفنوه في حذائه الجديد. وأجله حان من زمان. والمغفرة لله على خطيئتي هذه. ها أنت تراه يتمزق من السعال. فإما أن ينقل إلى بيت آخر، أو إلى محل آخر! يقال إن في المدينة

مستشفيات. وإلا فليس من المعقول أن يشغل الركن كله، أقام ما فيه الكفاية. المكان ضيق. وفضلاً عن ذلك يطلبون منك النظافة.

صاح في الباب رقيب محطة البريد:

ـ يا سريوغا! استقل عربتك، فالسادة في الانتظار.

هم سريوغا بالانصراف، دون أن ينظر جواباً، إلا أن المريض أعلمه بعينيه، أثناء السعال، أنه يريد أن يجيبه.

ـ خذ الحذاء، يا سريوغا ـ قال بعد أن كبت سعاله، واستراح قليلاً ـ ثم أضاف بصوت متحشرج ـ شرط أن تشتري شاهداً لقبري، حين أموت.

ـ شكراً، يا عم. سآخذه، وأشتري لك شاهداً، والله العظيم.

ـ ها أنتم سمعتم، يا شباب ـ استطاع المريض أن ينطق بذلك، وطوى جذعه إلى الأسفل مرة أخرى. واختنقت أنفاسه.

ـ كفى، سمعنا ـ قال أحد الحوذية ـ اذهب واجلس في عربتك، يا سريوغا، وإلا فإن رقيب المحطة سيأتي ثانية. السيدة مريضة.

خلع سريوغا بحركة نشيطة حذاءه المهترئ الكبير عليه، وألقاه تحت التخت. ولبس حذاء العم فيدور الجديد، فكان على مقاسه تماماً، وخرج إلى المركبة، وهو يتطلع إليه.

ـ أوه، حذاء جديد! دعني أزينه ـ قال حوذي والمزيتة في يده، حين خرج سريوغا، وصعد إلى مقعده، وأمسك المقود ـ أعطاه لك مجاناً؟

ـ أتحسدني عليه؟ ـ أجاب سريوغا، وقد رفع جسمه قليلاً، ليعكف أطراف قفطانه قرب قدميه ـ انطلقي! هيا، يا لطاف! ـ صاح على الخيول ملوحاً بسوطه، وانطلقت المركبة والعربة بركابهما وحقائبهما في الطريق المبللة مختفيتين في ضباب رمادي خريفي.

وبقي الحوذي المريض على سطح الموقد في البيت الخشبي الخانق الهواء، ودون أن ينفث كل ما في صدره في سعاله، جاهد وانقلب على جنب آخر، وهدأ.

وحتى المساء كان الناس يدخلون البيت الخشبي ويخرجون منه، ويتقدمون فيه دون أن يسمعوا المريض. وقبل أن يحل الليل بقليل صعدت الطباخة إلى سطح الموقد، وأخذت الفروة من وراء رجليه. فتكلم المريض:

- لا تزعلي مني، يا ناستاسيا. قريباً سأخلي ركنك هذا.

دمدمت ناستاسيا قائلة:

- بس، بس. لا بأس. ما الذي يوجعك يا عم؟ أخبرني.

- تآكل كل شيء في الداخل. الله يعلم أي شيء هذا.

- أظن أن حنجرتك تؤلمك حين تسعل؟

- الألم في كل مكان. حانت منيتي، وهذا كل ما في الأمر. آه، آه، آه!

راح المريض يئن.

- غط رجليك بهذا الشكل.

قالت ناستاسيا، وسحبت القفطان عليه، وهي تنزل من الموقد.

في الليل كان القنديل الليلي يضيء البيت الخشبي بضوء خافت. وناستاسيا وحوالي عشرة حوذية ينامون على الأرض والتخوت يشخرون شخيراً عالياً. والمريض وحده كان يتأوه بخفوت، ويسعل، ويتقلب على سطح الموقد. وقبيل الصباح سكن تماماً.

- عجيب الحلم الذي رأيته الليلة في نومي - قالت الطباخة، وهي

تتمطى في الضوء الشاحب في الصباح التالي. ـ رأيت وكأن العم خفيدور نزل من سطح الموقد وخرج ليكسر الحطب. ويقول لي: دعيني أساعدك، يا ناستاسيا، فأقول له: وهل تستطيع أن تكسر الحطب؟ بينما هو يمسك بالفأس، ويأخذ بتكسير الحطب بهمة ونشاط، فلا أرى غير الجذاذات تتطاير، فأقول له: ولكنك كنت مريضاً. فيقول لي: لا. أنا موفور الصحة. وراح يضرب الخشب، حتى أصابني الرعب من ضرباته. ورحت أصرخ حتى استيقظت. ألعله مات؟ يا عم خفيدور! يا عم!

ولم يرد فيدور على النداء.

ـ ربما مات؟ أنا ذاهب لأرى.

قال واحد من الحوذية الذين كانوا قد استيقظوا.

كانت اليد النحيلة المغطاة بشعر أصهب، والمتدلية من الموقد باردة شاحبة اللون.

قال الحوذي:

ـ أنا ذاهب لأخبر ناظر المحطة. يبدو أنه مات.

ولم يكن لخفيدرو أقارب. فقد كان من منطقة بعيدة. وفي اليوم التالي دفن في المقبرة الجديدة وراء الدغل. وظلت ناستاسيا عدة أيام تقص على الجميع الحلم الذي رأته، وكيف أنها كانت أول من افتقد العم فيدور.

ـ٣ـ

حل الربيع. وراحت السيول العجولة تخرخر في شوارع المدينة المبتلة بين قطع الجليد الملوثة بالرث. كانت ألوان الملابس وأصوات المارة المتحدثين بهيجة. وكانت براعم الأشجار في الحدائق الصغيرة وراء

الأسيجة قد انتفخت، وأغصانها تتمايل مع النسيم الطري بحفيف لا يكاد يسمع. وكانت قطرات ماء شفافة تتساقط في كل مكان... والعصافير تزقزق زقزقة غير متساوقة، وترفرف بأجنحتها الصغيرة. وكان كل شيء يتحرك ويتلألأ في الجانب المشمس، على الأسيجة والبيوت والأشجار. وكان الجذل والشباب يبدوان على السماء والأرض، وفي قلب الإنسان.

في أحد الشوارع الرئيسية، وأمام بيت كبير من بيوت الأشراف فرش تبن طازج على الأرض، وكانت في هذا البيت تلك المريضة المشرفة على الموت التي كانت تتعجل السفر إلى الخارج.

وعند باب حجرة مغلق وقف زوج المريضة وامرأة تخطت سن الشباب. وجلس الكاهن على أريكة وقد أطرق بصره. وأمسك شيئاً مغلفاً بوشاح القسس. وفي أحد الأركان رقدت على مقعد وثير عميق عالي الظهر امرأة مسنة هي أم المريضة. وكانت تبكي بمرارة، وبالقرب منها وصيفة تمسك بيدها منديل يد نظيفاً، منتظرة أن تطلبه العجوز، بينما كانت وصيفة أخرى تدلك صدغي العجوز بشيء ما، وتنفخ في شعرها الشائب تحت الطاقية.

ـ المسيح معك، يا صديقتي ـ كان الزوج يقول للمرأة الكهلة الواقفة عند الباب ـ إنها تثق بك ثقة كبيرة، ولك من القدرة على التحدث معها، حاولي أن تقنعيها بشكل جيد، فاذهبي، يا عزيزتي ـ وأراد أن يفتح لها الباب في الحال، ولكن ابنة أخيه أمسكته، نشفت عينيها بالمنديل عدة مرات، ونفضت رأسها، وقالت:

ـ والآن يلوح وكأنني لم أبك.

وفتحت بنفسها الباب. ودخلت.

كان الزوج في قلق شديد، وفي غاية الحيرة. اتجه نحو العجوز، إلا أنه استدار بعد أن قطع بضع خطوات، وسار في الغرفة، وتقدم من الكاهن. تطلع الكاهن إليه، ورفع حاجبيه نحو السماء، وارتعش. كما أن لحيته الكثيفة التي وخطها الشيب قد ارتفعت إلى الأعلى أيضاً وانخفضت.

قال الزوج:

- يا إلهي! يا إلهي!

- ما العمل؟

قال الكاهن متنهداً، وارتفع إلى الأعلى حاجباه ولحيته أيضاً، وانخفضت.

قال الزوج في يأس تقريباً:

- وأمها هنا! إنها لا تتحمل ذلك. فهي تحبها حباً شديداً... أنا لا أدري... على الأقل، يا أبانا. لو حاولت أن تهدئها، وتقنعها بالانصراف.

نهض الكاهن، وتقدم من العجوز. وقال: - حقاً، لا أحد يستطيع أن يقيم قلب الأم. ولكن الله رحيم.

وفجأة صار وجه العجوز يختلج كله، وصدر عنها فواق هستيري.

- الله رحيم - تابع الكاهن كلامه حين هدأت قليلاً - أود أن أخبرك بأن شخصاً مريضاً في ابرشيتي كان أسوأ حالاً بكثير من ماريا دميتريفنا، ومع ذلك فإن رجلاً «بسيطاً» من الأهالي شفاه بالأعشاب في وقت قصير. وهذا الرجل في موسكو الآن. كنت أقول لفاسيلي

دميتريفيتش أن من الممكن أن يجرب علاجه. على الأقل كان ذلك سلوى وتسرية للمريضة. والله على كل شيء قدير.

ـ لا، لا أظنها ستعيش ـ قالت العجوز ـ بدلاً من يأخذني الله، يأخذها هي.

واشتد الفواق الهستيري، حتى فقدت العجوز الوعي.

غطى زوج المريضة وجهه بيديه، وخرج راكضاً من الحجرة.

وكان أول من التقاه في الرواق طفل في السادسة كان يلاحق أخته الصغيرة بكل ماله من قوة.

سألت المربية:

ـ هل تأمر بإدخال الولدين إلى أمهما؟

ـ لا، إنها لا تريد أن تراهما. فذلك يثير شجنها.

توقف الطفل برهة، وتفرس في وجه أبيه، وفجأة نط على رجل واحدة، وتابع ركضه بصياح مرح. وصاح وهو يشير إلى أخته:

ـ هي التي تلعب دور الفرس السوداء، يا بابا!

وخلال ذلك كانت ابنة الأخ تجلس قرب المريضة، وتحاول ببارع الحديث أن تهيئ ذهنها للموت. وكان الدكتور يخلط مشروباً عند نافذة أخرى.

كانت المريضة ترقد على السرير في روب أبيض، محاطة بالوسائد، تنظر إلى ابنة الأخ صامتة.

ـ آه، يا صديقتي ـ قالت مقاطعة إياها بشكل مفاجئ ـ لا تلقنيني. ولا تعتبريني طفلة. أنا مسيحية وأعرف كل شيء. أعرف أن حياتي لم يبق منها غير القليل. وأعرف أن زوجي، لو سمع كلامي من قبل، لكنت

الآن في إيطاليا، ولربما، بل والأرجح لكنت قد شفيت. وكان الجميع يقول له ذلك. ولكن لا حيلة في اليد، فالظاهر أن هذه مشيئة الرب. جميعنا نتحمل خطايا كثيرة، وأنا أعرف ذلك، ولكنني آمل في رحمة الرب، وسيسامحنا الرب جميعاً، على ما أظن، حاولت أن أفهم نفسي. وأنا أنوء بخطايا كثيرة، يا صديقتي، ولكنني مقابل ذلك كم تحملت من عذابات.

وحاولت أن أتحمل العذابات بصبر...

قالت ابنة الأخ:

ـ هكذا أدعو الكاهن صديقتي؟ سيكون أخف عليك لو تناولت القربان المقدس.

أحنت المريضة رأسها إمارة على الموافقة. وهمست:

ـ يا إلهي، اغفرلي، أنا الخاطئة.

خرجت ابنة الأخ، وغمزت للكاهن. وقالت للزوج، والدموع تترقرق في عينيها:

ـ إنها ملاك!

أخذ الزوج يبكي، دخل الكاهن الباب، وكانت العجوز ما تزال في غيبوبتها، وران على الحجرة الأولى سكون مطبق. وبعد خمس دقائق خرج الكاهن من الباب، وأزاح، الوشاح، وعدل شعره. وقال:

ـ حمداً لله، إنها أهدأ الآن. تريد أن تراكما.

خرجت ابنة الأخ والزوج. كانت المريضة تبكي، وهي تنظر إلى الأيقونة. قال الزوج:

ـ أهنئك، يا صديقتي.

ـ أشكرك! أية راحة أحس بها الآن، وأي عذوبة غير مفهومة تغمرني ـ كانت المريضة تقول، وقد رفت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة خفيفة ـ ما أوسع رحمة الله! أليس هو الرحيم القدير على كل شيء؟ ـ وعادت تحدق في الأيقونة بابتهال ظامئ، والدموع تملأ عينيها.

ثم بدا وكأنها تذكرت شيئاً فجأة. فأشارت إلى زوجها بأن يدنو منها. وقالت بصوت واهن مستاء:

ـ أنت لا تقبل أبداً أن تفعل ما أرجوه منك.

مد الزوج عنقه، واستمع إليها طائعاً.

ـ ما هو، يا صديقتي؟

ـ كم مرة قلت إن هؤلاء الدكاترة لا يعرفون شيئاً وأن هناك مطببين بسطاء يشفون... ها هو الأب كان يقول... رجل من الأهالي... دعه يجيء.

ـ من الذي يجيء، يا صديقتي؟

ـ يا إلهي، أنت لا تريد أن تفهم!..

وغمضت المريضة وجهها، وأغمضت عينيها.

تقدم الدكتور منها، وأمسك يدها. كان نبضها يضعف شيئاً فشيئاً، وبشكل ملحوظ. أومأ الدكتور للزوج. ولاحظت المريضة هذه الإيماءة، وأجالت ببصرها مذعورة. أشاحت ابنة الأخ بوجهها، وشرعت تبكي. قالت المريضة:

ـ لا تبكي، ولا تعذبي نفسك وتعذبيني. فإن ذلك ينتزع آخر السكينة في نفسي.

ـ أنت ملاك!

قالت ابنة الأخ، وهي تقبل يدها.

ـ لا، قبليني هنا، فالأموات فقط تقبل أيديهم. يا إلهي! يا إلهي!

في ذلك المساء ذاته كانت المرأة جثماناً، والجثمان في تابوت مسجى في صالة البيت الكبير. وفي الحجرة الكبيرة، وراء الأبواب الموصدة جلس مرتل يرتل مزامير داود بصوت أخن متساوق.

وكان ضوء الشموع الساطع يسقط من الشمعدانات الفضية على جبين المتوفاة الشاحب، وعلى يديها الشمعيتين الثقيلتين، وعلى الثنيات المتصلبة للغطاء المرتفع عند الركبتين وعلى أصابع القدمين بشكل مرعب. كان المرتل يقرأ بوداعة، دون أن يفهم الكلمات، فكانت تتردد في أرجاء الحجرة غريبة، وتتجمد. ومن حين لآخر كانت تترامى من حجرة بعيدة أصوات أطفال، وطبطبة أقدامهم.

كان وجه المتوفاة قاسياً هادئاً ومهيباً، ولم يتحرك شيء في جبينها الصافي البارد، ولا في شفتيها المطبقتين بقوة. كانت منتبهة بكليتها. ولكن هل كانت تفهم الآن هذه الكلمات العظيمة على الأقل؟

ـ ٤ ـ

بعد شهر كان يرتفع فوق قبر المتوفاة مصلى حجري. أما فوق قبر الحوذي فلم ينتصب شاخص حجري بعد، ولم يظهر غير عشب أخضر يانع على الحدبة التي كانت الدليل الوحيد على وجود سالف لإنسان.

وكانت طباخة المحطة تقول ذات مرة:

ـ ولكنك ستجلب على نفسك الخطيئة، يا سريوغا، إذا كنت لا تشتري الشاخص لقبر خفيدور. كنت تقول: الشتاء، الشتاء، والآن ألا تفي بكلمتك؟ لقد وعدته بحضوري. لقد جاء إليك مرة وطلب منك إذا لا تشترى فسيأتي مرة أخرى ويأخذ بخنقك.

أجاب سريوغا:

ـ وهل تحسبينني أنكر؟ سأشتري الشاخص، كما وعدت، سأشتريه بروبل ونصف. أنا لم أنس، ولكن يجب أن أجلبه. حين تسنح فرصة للذهاب إلى المدينة سأشتريه.

ـ على الأقل لو أقمت صليباً على القبر ـ بادر حوذي عجوز بهذا القول ـ وإلا فإنه الشؤم بعينه. فأنت ترتدي الحذاء.

ـ ومن أين آخذ هذا الصليب؟ كيف لي أن أنحته من قطع الحطب؟

ـ ما هذا الكلام؟ طبعاً لا يمكنك أن تنحته من قطع الحطب. ولكن خذ فأساً، واخرج إلى الدغل في وقت مبكر، ويمكنك أن تنحته من شجرة دردار مثلاً. وستحصل على صليب جيد. وقد تضطر إلى أن ترشي راعي الغابة بالفودكا. أو أنك لا تستطيع أن تنفق الفودكا على كل شيء تافه. قبل أيام كسرت ذراع عربتي، فقطعت ونحت ذراعاً جيدة جديدة، ولم يقل أحد كلمة.

في الصباح الباكر، حالما بزغ الفجر، تناول سريوغا فأساً، وذهب إلى الدغل، كان الندى ما يزال يتساقط، قبل أن يمسه ضوء الشمس، ويكون غشاءً بارداً كامد اللون يلف كل شيء.

وكان الشرق قد تنور بشكل ملحوظ، عاكساً ضوءه الواهن على قبة

السماء الملفعة بسحب رقيقة. وما من حركة ترف في أي نصل عشب في الأسفل، ولا في أية ورقة في أغصان الشجر العالية.

ومن حين لآخر فقط كانت تحطم سكون الغابة خفقات أجنحة في الأعماق، وهسهسة على الأرض. وفجأة ترامى صوت غريب دخيل على الطبيعة، وتلاشى في حافة الغابة. إلا أن الصوت ارتفع مرة أخرى، وراح يتكرر بترداد منسق إلى الأسفل قرب جذع إحدى الأشجار الساكنة، أخذت إحدى ذرى الأشجار تهتز بشكل غير اعتيادي، وتهامست أوراقها الطرية بشيء ما، وصفق أبو حناء بجناحيه مرتين صافراً وهازاً ذيله، وكان جالساً على أحد أغصان هذه الشجرة، فغادرها وحط على شجرة أخرى.

كان الفأس في الأسفل يتردد متوغلاً أعمق فأعمق، والخشبات البيضاء الطرية تتطاير على العشب الندي، وصوت انكسار خفيف يسمع في إثر الضربات. اهتزت الشجرة بكل كيانها، وانحنت، وانتصبت بسرعة، وترنحت مذعورة على جذرها، وللحظة سكن كل شيء إلا أن الشجرة عادت فانحنت مرة أخرى، وانهبدت بقمتها على الأرض الرطبة مهشمة عساليجها، منكسة أغصانها. وسكتت أصوات الفأس ووقع الأقدام. وصفر أبو الحناء، ورفرف محلقاً أعلى. اهتز الغصن الذي تشريك بجناحيه لبعض الوقت، وسكن، شأن الأغصان الأخرى بكل أوراقها. وكانت الأشجار في الفسحة الجديدة تزهو بأغصانها الساكنة بمرح أشد.

نفذت أشعة الشمس الأولى من خلال سحابة، والتمعت في السماء،

وسرت في رحاب الأرض والسماوات. وأخذ الضباب ينسكب أمواجاً في المنخفضات، والندى يتلألأ لامعاً على الخضرة، والغيوم المبيضة الشفافة تتراكض مسرعة على القبة المزرورقة، والطيور تتقافز في الغابة، وكالضائعة تسقسق بشيء بهيج، والأوراق الريانة تتهامس في أعالي الأشجار بغبطة وهدوء، وأغصان الأشجار الحية تتمايل ببطء وعظمة فوق الشجرة الميتة المرداة على الأرض.

عام ١٨٥٨

بوليكوشكا

-١-

كان الوكيل يقول:

- كما تأمرين، يا سيدتي! سوى أنني أرثي لآل دوتلوف. فإنهم أناس طيبون جميعاً وبلا استثناء، وإذا لم نرسل ولو واحداً من الخدم، فلا مناص من أن يذهب واحد منهم. لا سيما فإن الجميع الآن يشيرون إليهم. ومع ذلك فالأمر أمرك.

ووضع الوكيل يده اليمنى على يده اليسرى، وأبقى كلتيهما أمام بطنه، وأحنى رأسه إلى جانب آخر، واستف شفتيه الرقيقتين، حتى كاد يتمطق، وقلب عينيه، وصمت في نية ظاهرة لأن يصمت طويلاً، ويسمع، بدون اعتراض، كل ذلك الهراء الذي كان يجب أن تقوله السيدة له في هذا الموضوع.

كان هذا الوكيل من حشم الضيعة، حليق الوجه، في سترة رسمية طويلة (اللباس الخاص بالوكلاء) يمثل في أمسية خريفية أمام سيدته يقدم لها تقريراً. وكان التقرير، في مفهوم السيدة، يعني أن تصغي إلى حسابات الأعمال التي جرت في الضيعة، وتصدر الأوامر عن الأعمال المقبلة. أما بالنسبة للوكيل يغور ميخائيلوفيتش فقد كان التقرير، حسب

مفهومه، فريضة الوقوف باستقامة، في ركن، على كلتا رجليه المعوجتين، ووجهه متجه إلى الأريكة، والاستماع إلى شتى صنوف الثرثرة غير المتعلقة بالموضوع، وحمل السيدة بمختلف الوسائل، على أن ترد بسرعة ونفاد صبر «طيب، طيب» على كل مقترحات يغور ميخائيلوفيتش.

كان موضوع الكلام عن التجنيد. وكان يجب إرسال ثلاثة رجال من ضيعة بكروفسكويه. وكان القدر نفسه قد عين، بدون شك، اثنين منهم، لانطباق الشروط العائلية والخلقية والاقتصادية عليهما. وما كان من الممكن أن يكون أي تردد بشأنهما، لا من قبل مجمع القرية ولا من قبل السيدة، ولا من قبل الرأي العام.

أما الثالث فكان موضع جدل. وكان الوكيل يريد أن يحمي دوتلوف الذي كان له ثلاثة معيلين، ويرسل الخادم بوليكوشكا صاحب العائلة، والذي كانت له سمعة سيئة جداً، وشوهد، غير مرة، متلبساً بسرقة الأكياس والألجمة والدريس. كانت السيدة غالباً ما تتلاطف مع أولاد بوليكوشكا ذوي الأسمال، وتقوم أخلاقه بمواعظ الانجيل، فكانت لا تريد التخلي عنه. وفضلاً عن ذلك لم تكن تريد أن تلحق أذى بآل دوتلوف الذين لم تكن تعرفهم، ولم تكن تراهم أبداً.

ولكنها لسبب ما لم تستطع أن تتفهم الأمر قط، بينما لم يعزم الوكيل أن يوضح لها بصريح العبارة أن عدم ذهاب بوليكوشكا سيعني ذهاب دوتلوف. فكانت تقول له بعاطفة: «ولكنني لا أريد أن ألحق أذى بآل دوتلوف». وكان يجب أن يقول لها في الرد على ذلك: «ادفعي إذن ثلاثمائة روبل عن بديل له». ولكن اللياقة لم تسمح له بذلك.

وهكذا كان يقف بهدوء، بل واتكأ بشكل غير ملحوظ، على أسكفة الباب، إلا أنه احتفظ على مسحة التذلل في وجهه، وراح ينظر إلى شفتي السيدة، وهما تتحركان، وكشكش طاقيتها ينط مع ظله على الحائط تحت لوحة صغيرة. ولكنه لم يجد ضرورة على الإطلاق في النفاذ إلى معنى كلامها. فقد كانت السيدة تتحدث طويلاً وبكثرة. اعتراه تشنج تثاؤبي وراء أذنيه، إلا أنه حول هذا التشنج إلى سعال بسهولة، مغطياً فمه بيده، وحمحم بشكل مصطنع. قبل حين شاهدت اللورد بالمرستون جالساً، حاجباً وجهه بقبعته، في الوقت الذي كان عضو المعارضة يعصف بالوزارة، حين نهض فجأة، وأجاب بخطاب استمر ثلاث ساعات عن كل نقاط الخصم. لقد شاهدت ذلك، ولم أدهش لأنني رأيت مثل هذا ألف مرة يجري بين يغور ميخائيلوفيتش، وسيدته. ولعله خشي أن تأخذه غفوة، أو تصور أن السيدة أخذت تسرح بذهنها كثيراً، فنقل ثقل جرمه من الرجل اليسرى إلى اليمنى، وبدأ باستهلال موح، كما كان يبدأ دائماً:

ـ الأمر أمرك، يا سيدتي... سوى أن الاجتماع منعقد الآن عندي في الإدارة، ويجب اتخاذ القرار. وقد نص في الأمر على وجوب إرسال المجندين قبل عيد «بوكروف»*. أما الفلاحون فيشيرون إلى آل دوتلوف، ولا يوجد أحد غيرهم، والحق يقال.

ومجمع القرية لا يراعى مصالحك، ولا يهمه أن نحطم آل دوتلوف. وأنا أعرف كم كدوا وكدحوا. ومنذ أن تسلمت الإدارة، وأنا أراهم

* أحد الأعياد الكنائسية في أواسط الخريف تقريباً ـ المترجم .

يعيشون في فقر. طال انتظار العجوز لابن أخيه الصغير، والآن وما كاد يقربه عيناً، حتى يجب أن يعرض للخراب مرة أخرى.

وأنا، وأرجو أن تعرفي، حريص على ملكك، حرصي على ملكي، خسارة، يا سيدتي، ولكن الأمر متروك لك! ليس لي بينهم قريب ولا حسيب، ولم آخذ منهم شيئاً...

- ولكن ذلك لم يخطر مني على بال، يا يغور، - قالت السيدة، ولكن خطر على بالها في الحال أن آل دوتلوف ربما قد رشوه.

- ... سوى أنهم أفضل عائلة في بكروفسكويه كلها. رجال يخافون الله ويحبون العمل. والعجوز راعي الكنيسة ثلاثين عاماً، لا يذوق طعم الخمرة، ولا يتفوه بكلمة نابية، ويتردد على الكنيسة (كان الوكيل يعرف بأي شيء يستميل). والشيء الرئيسي، وليكن ذلك في علمك، أن للعجوز ولدين فقط، والباقون أبناء أخيه. مجمع القرية يوصي، ولكن الأحرى به، إذا أردنا وجه الحق، أن يلقي قرعة بين الثنائيين الآخرين وحتى بين الثلاثيين* انفصلوا بعوائلهم، لسبب غير وجيه، وهم الآن على حق، أما هؤلاء فيجب أن يشقوا جزاء فضيلتهم.

وعند ذاك لم تعد السيدة تفهم شيئاً، لم تفهم ما كان يعني بـ «قرعة بين الثنائيين» و«الفضيلة»: كانت لا تسمع إلا أصواتاً، وتتأمل الأزرار من القماش القطني السميك على سترة الوكيل.

ربما لأنه كان نادراً ما يزرر الزر الأعلى، فهو محكم في مكانه، أما الزر الأوسط فقد ارتخى تماماً، وتدلى، بحيث كان يحتاج إلى تثبيت منذ

---

* الثنائيون : من لهم معيلان . والثلاثيون من لهم ثلاثة. المترجم .

زمان. ولكن، كما هو معروف للجميع، لا يتطلب الحديث مطلقاً، ولا سيما ما يخص الأعمال، أن تفهم ما يقال لك، بل يتطلب أن تتذكر فقط ما تريد أن تقوله أنت. وهذا ما فعلته السيدة إذ قالت:

ـ أراك لا تريد أن تفهم، يا يغور ميخائيلوف. أنا لا أريد على الإطلاق أن يذهب دوتلوف للعسكرية. يبدو أنك تستطيع، بقدر معرفتك لي، أن تحكم بأنني أفعل كل ما في مستطاعي لأساعد فلاحي ولا أريد لهم سوءاً. ولعلك تعرف أنني مستعدة إلى أن أضحي بكل شيء لتفادي هذه الضرورة المحزنة، فلا أقدم دوتلوف ولا خوريوشكين (لا أدري هل خطر في ذهن الوكيل أنه لتفادي هذه الضرورة المحزنة لا يقتضي التضحية بكل شيء، بل ثلاثمائة روبل كافية. ولكن هذه الفكرة كان من الممكن أن تخطر له بسهولة).

ولكنني أقول لك شيئاً واحداً، وهو أنني لن أتخلى عن بوليكي*، مهما يكن من شيء. بعد قضية الساعة تلك أعترف بنفسه لي، وبكى، وأقسم على إنه سيصلح نفسه، وقد تحدثت معه طويلاً، ورأيت أنه قد تأثر، وندم عن صدق («آه، يا للكثرة الكلام!» ـ قال يغور ميخائيلوفيتش في سره، وأخذ ينظر إلى المربى التي وضعت للسيدة في قدح ماء: أهي مربى برتقال أم ليمون؟ وفكر: «ربما بعلقم»). وقد مضى على ذلك سبعة أشهر، لم يسكر فيها قط، ويتصرف تصرفاً حميداً. وقد قالت لي زوجته إنه أضحى إنساناً آخر. فهل تريدني الآن أن أعاقبه، بعد أن أصلح سلوكه؟ ثم هل من الإنسانية حقاً أن تتخلى عن إنسان له

---

* الاسم الأصلي . «بوليكوشكا» بطل القصة ـ المترجم .

خمسة أطفال، وهو المعيل الوحيد؟ لا، يا يغور، الأفضل ألا تتكلم عن هذا...

ورشفت السيدة من القدح.

راقب يغور ميخائيلوفيتش سريان الماء خلال حلقومها، وبعد ذلك اعترض باقتضاب وجفاف:

- إذن، فأنت تأمرين بتسمية دوتلوف؟

صفقت السيدة يداً بيد:

- كيف لا تستطيع أن تفهمني؟ هل من المعقول أنني أريد أذية دوتلوف؟ هل من المعقول أن في نفسي ولو شيئاً قليلاً ضده؟ الله يشهد علي كم أنا مستعدة لأن أفعل كل شيء من أجلهم (ورمقت اللوحة المعلقة في ركن، ولكنها تذكرت أنها ليست أيقونة. وفكرت مع نفسها «ولكن على أية حال ليست هذه هي المسألة» والعجيب مرة أخرى أنه لم تخطر في بالها الثلاثمائة روبل) ولكن كيف لي أن أفعل؟ أتراني لا أعرف تخاريج الموضوع؟ لا يمكنني أن أعرف ذلك. ولكنني أعتمد عليك، وأنت تعرف ما أريده. فافعل ما يجعل الجميع راضين، وفق القانون. فما العمل؟ ليس هم الوحيدين. والجميع تمر بهم ساعات ضيق. فقط لا يجوز التخلي عن بوليكي. افهم أن ذلك سيكون فظيعاً من جانبي.

وكان من الممكن أن تستطرد في القول، فقد أخذتها الحمية كثيراً، إلا أن وصيفة شابة دخلت الحجرة في تلك اللحظة.

- ماذا وراءك، يا دونياشا؟

- جاء موجيك*، وطلب أن يستفسر من يغور ميخائيلوفيتش عما

---

* رجل ريفي من عامة الناس - المترجم.

إذا كان يأمر أن ينتظر اجتماع الفلاحين مجيئه؟ ـ قالت دونياشا ذلك، ونظرت إلى يغور ميخائيلوفيتش نظرة غضبى، مفكرة مع نفسها: «أي وكيل هذا، أثار أعصاب السيدة، والآن مرة أخرى لن تدعنا نغفو حتى الساعة الثانية».

قالت السيدة:

ـ اذهب، يا يغور، وافعل ما هو أفضل.

ـ سمعاً وطاعة (ولم يقل شيئاً آخر عن دوتلوف)، هل تأمرين بأن نبعث أحداً إلى البستاني لجلب النقود؟

ـ ألم يعد بتروشا من المدينة حتى الآن؟

ـ لا، لم يعد.

ـ وهل يستطيع نيقولاي أن يذهب؟

قالت دونياشا:

ـ أبي طريح الفراش من وجع الظهر.

فسأل الوكيل:

ـ ألا تأمرين بأن أذهب غداً بنفسي؟

ـ لا، فوجودك ضروري هنا، يا يغور. (وغرقت السيدة في التفكير) كم هي النقود؟

ـ أربعمائة واثنان وستون روبلاً.

ـ ابعث بوليكي. ـ قالت السيدة، وهي تحدق في وجه يغور ميخائيلوفيتش بحزم.

أفرج يغور ميخائيلوفيتش شفتيه، وكأنه يبتسم، دون أن يكشف عن أسنانه، ولم يطرأ تغير في وجهه.

ـ سمعاً وطاعة.

ـ أرسله لي.

ـ سمعاً وطاعة.

وذهب يغور إلى إدارة القرية.

ـ٢ـ

كان بوليكي، كرجل ضئيل الشأن، مثلوب، فضلاً عن كونه من قرية أخرى، لا يجد حماية لا من جانب مديرة شؤون البيت، ولا من جانب الطباخ، ولا من جانب الوكيل، ولا من جانب الوصيفة، فكان له أسوأ «مأوى»، رغم أنه كان صاحب عائلة وذرية. كانت هذه «المآوي» التي بناها السيد المرحوم على الشكل التالي: كوخ حجري مساحته عشرة أذرع يتوسطه موقد روسي تحيط به مسافة فارغة ـ الدلهيز* (وهو الاسم الذي كان يطلق عليها الخدم)، وفي كل ركن مأوى محجوز بألواح خشبية. فالمكان، إذن، صغير، لا سيما في مأوى بوليكي، الأقصى عند الباب. مخدع كئيب فيه لحاف ومخدات من القطن الخشن، ومهد يرقد فيه طفل، ومنضدة صغيرة ثلاثية القوائم، يعد عليها الطعام، ويغسل، وتوضع كل حاجيات البيت، ويعمل عليها بوليكي نفسه (كان بيطاراً)، وبرميل صغير، وملابس، ودجاجات، وعجل صغير، وأفراد العائلة السبعة أنفسهم كانوا يملأون المأوى كله، وما كان من الممكن أن يتململوا لو لم يترك لهم الموقد المشترك ربعه، حيث كانت الأشياء وأهل المأوى

* كلمة مشوهة من «دهليز» . . المترجم .

ينطرحون عليه، لو لم يكن ثمة منفذ للخروج إلى مدخل المسكن. وأحسب ذلك لم يكن ليجدي كثيراً. فالجو في تشرين الأول بارد في مدخل البيت، ولم يكن هناك من لباس دافئ غير جبة حوذي يتقاسمها السبعة جميعاً، ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يتدفأ الأطفال بالركض، والكبار بالشغل، وهؤلاء وأولئك بالصعود إلى سطح الموقد، حيث كانت الحرارة تصل إلى أربعين درجة مئوية ولعل من الفظاعة العيش في مثل هذه الظروف، ولكنهم لم يجدوا في ذلك عسراً، فقد كان من الممكن أن يعيشوا. كانت أكولينا تغسل ملابس الأولاد والزوج وتخيط لهم، وتغزل، وتحوك، وتبيض قطع الخيش، وتسلق وتخبز في الموقد المشترك، وتتبادل الشتائم والأقاويل مع الجيران. وكانت الأجور الشهرية كافية ليس للأطفال فقط، بل ولدريس البقرة. وكان الحطب مباحاً، وكذلك علف الماشية. وكان التبن يؤخذ من الاسطبل، وكان هناك حديقة خضروات صغيرة. وكانت البقرة ولوداً، وكانت لهم دجاجاتهم أيضاً.

وكان بوليكي يعمل في الاسطبل، يعتني بمهرين، ويحجم الخيول والماشية، وينظف حوافرها، ويشغل المضخات، ويصنع دهونات من اختراعه، فكان يحصل من ذلك، بين الحين والآخر، على بعض النقود والمؤونة. كما كان يتبقى شيء من شعير السيدة. وكان في القرية موجيك أريحي كان يعطي كل شهر في انتظام عشرين رطلاً من لحم الضأن لقاء مكيالين من الشعير. وكان من الممكن أن يعيشوا، لو لم تكن محنتهم النفسية. وكانت المحنة كبيرة على العائلة كلها. لقد كان بوليكي منذ صباه يعمل في مزرعة تنسيل الخيول، وكان السائس الذي صادف أن اشتغل معه اللص الأول في الناحية كلها، وقد أرسل إلى المنفى، وعلى

يد هذا الرجل تلقى بوليكي تعليمه الأول، وهكذا تعود على هذه الأشياء التافهة منذ نعومة أظفاره، حتى إنه فيما بعد كان يسعده لو يتخلص منها، ولكنه لم يقدر، كان رجلاً فتياً ضعيف الإرادة، يتيم الأبوين، لم يكن له من يتعلم منه. وكان يحب شرب الخمرة. لكنه لم يكن يحب أن يترك شيئاً وقع في طريقه من غير راع*. وكان كل شيء يستهوى بوليكي ايليتش سواء أكان هذا الشيء سيراً لشد الحصان، أو سرجاً، أو قفلاً، أو مسماراً قارناً، أو شيئاً أغلى من ذلك بقليل.

وكان يجد في كل مكان أناساً يتقبلون هذه الأشياء الصغيرة، ويدفعون عنها نبيذاً أو نقوداً، حسب الاتفاق. وهذه أسهل الأرزاق، لا تحتاج، كما يقول الناس، لا إلى علم ولا إلى فهم، وإذا جربها الإنسان مرة لم تنازعه نفسه إلى شغل آخر. شيء واحد غير لطيف في هذه الأرزاق، وهو رغم أن من الممكن أن تحصل على كل شيء برخص، وبلا مشقة، وأن تعيش بارتياح إلا أن هذه الحرفة قد تنهار فجأة بسبب أهل السوء، فإذا بك تدفع ثمن كل شيء دفعة واحدة، وتشقى في حياتك.

وهذا ما حصل بوليكي. لقد تزوج بوليكي، ووفقه الله في ذلك، فإن زوجته، وهي ابنة راعي مواش، امرأة مكتملة، ذكية شغول، كانت تنجب له أولاداً واحداً أحسن من الآخر. لكن بوليكي لم يترك حرفته وكان كل شيء على ما يرام. وفجأة خانه التوفيق، وانكشف أمره. وقد انكشف أمره بسبب توافه: فقد كان قد أخفى أعنة جلدية لدى أحد الريفيين. فوجدوها وضربوه، وأبلغوا السيدة بذلك، وصاروا يراقبونه. ثم انكشف مرة ثانية، وثالثة.

---

* يقصد دون أن يسرقه - المترجم .

وأخذ الناس يشينونه، وهدده الوكيل بالتجنيد، ووبخته السيدة، وأخذت زوجته تبكي وتتوسل، وانقلب كل شيء إلى ضده. كان رجلاً طيباً، مبرءاً من الخبث، سوى أنه ضعيف النفس، يحب الخمرة، وصارت هذه عادة مستحكمة فيه، حتى لم يستطع أن يتغلب عليها قط. وكانت زوجته تأخذ بشتمه، بل وتضربه حين يأتي إليها سكران، فيبكي ويقول: «أنا رجل تعيس، فماذا أفعل بنفسي؟ أقسم لك إنني سأترك، لن أفعلها مرة أخرى» ويترك البيت بعد شهر، ويسرف في الشرب، ويختفي يوماً أو يومين. وكان الناس يقولون: من أين «يأخذ الفلوس ليشرب؟». وكانت آخر قضية له هي قضية ساعة الإدارة. فقد كانت في الإدارة ساعة حائطية معلقة قديمة توقفت منذ زمان. وذات مرة تعين عليه أن يدخل الإدارة المفتوحة لوحده، فأغوته الساعة، فأخذها، وباعها في المدينة. وشاءت المصادفة السيئة أن يكون صاحب الدكان الذي باع له الساعة خطاب إحدى الخادمات، فجاء في يوم العيد إلى القرية، وحكى للناس عن الساعة. وأخذوا يتحققون كأنما كانت هناك حاجة إلى ذلك. وكان الوكيل لا يضمر الود لبوليكي. وعرفوا ذلك الشخص، وأبلغوا الأمر للسيدة. فاستدعت السيدة بوليكي، فوقع على ركبتيه أمامها متضرعاً بعاطفة وتأثر، واعترف بكل شيء، مثلما لقنته زوجته. وقد نفذ كل ذلك بشكل جيد جداً، وأخذت سيدته تعيده إلى صوابه، وظلت تتحدث وتتلو المواعظ عن الرب، والفضيلة، وعن الحياة الآخرة، وعن الزوجة، والأطفال، حتى جعلته يذرف الدموع. وقالت السيدة:

ـ أسامحك، فقط أن تعدني بأن لا تعود إلى فعل ذلك أبداً.

ـ لن أفعل طوال عمري! ولتغيبني الأرض، ولتبقر أحشائي! ـ قال بوليكي ذلك، وبكى بعاطفة جياشة.

وذهب بوليكي إلى البيت، وظل في البيت يخور كالعجل الصغير طوال اليوم، وينطرح على سطح الموقد، ومنذ ذلك الحين لم يلحظ شيء ضده قط. سوى أن حياته أضحت خالية من الفرح، فقد كان الناس ينظرون إليه، كما ينظرون إلى لص، فلما جاء وقت اختيار الذين يرسلون للتجنيد كان جميع الناس يشيرون إليه.

كان بوليكي بيطاراً، كما ذكر من قبل. ولا أحد من الناس يعرف كيف انقلب بوليكي إلى بيطار، بل هو نفسه أقلهم معرفة بذلك.

فهو في مزرعة تنسيل الخيول، حين كان مساعداً للسائس الذي نفي، لم يزاول عملاً آخر غير تنظيف الحظائر من الروث، وأحياناً تنظيف الخيول، وجلب الماء، ولم يكن ميسراً له أن يتعلم هناك.

ثم عمل نساجاً، وبعد ذلك اشتغل في بستان، ينظف الممرات، ثم في كسر الآجر عقاباً له، ثم استؤجر بواباً لدى تاجر. كان ذلك ليدفع بدل تسريح*. ومعنى ذلك أنه في هذه أيضاً لم يتلق ممارسة. ولكنه في إقامته الأخيرة في بيته أخذت تشيع شيئاً فشيئاً سمعة براعته غير الاعتيادية، بل والخارقة بعض الشيء في فن البيطرة. حجم مرة، ثم أخرى، ثم طرح أحد الخيول، ونبش في فخذه، وطلب أن ينقل الحصان إلى الملزمة، وحز القسم الأسفل من الحافر حتى أدماه، رغم أن الحصان كان يرفس، ويعول، وقال إن ذلك معناه «تصريف دم ما تحت الحافر» ثم أوضح للريفي صاحب الحصان أن من الضروري أن يحجم من كلا الوريدين «لتزيد خفته».

---

* بدل تسريح : يدفعه الفلاح القن لسيده عيناً أو نقداً لقاء تسريحه ليشتغل في عمل آخر. المترجم .

ثم أخذ يضرب مبضعاً كليلاً بمطرقة خشبية. ثم أخذ يشد تحت بطن حصان البواب مشداً من منديل الزوجة. وأخيراً أخذ ينثر الزاج على كل بثرة، وينقع من قارورة، وأحياناً يزرق في الداخل ما يطرأ على باله.

وكلما ازداد تعذيبه للخيول وقتله لها ازداد ائتمان الناس له، وجلبهم الخيول إليه.

أنا أشعر أن إخواننا السادة لا يليق بهم تماماً أن يضحكوا من بوليكي، فإن الطرائق التي استخدمها للإيحاء بالثقة هي نفس الطرائق التي كانت تؤثر في آبائنا، وفينا وستؤثر في أطفالنا. فإن ذلك الريفي (الموجيك) الذي وقع ببطنه على حصانه الوحيد الذي لم يكن ثروته فقط بل جزءاً من عائلته تقريباً، وراح ينظر بإيمان وفزع إلى وجه بوليكي المتجهم في تعبير عن الأهمية، وإلى ذراعيه النحيلتين المطويتي الأكمام واللتين كان يضغط بهما تعمداً على موضع الألم، ويشق الجسد الحي بجرأة في نية مبيتة على أن «فليكن ما يكون» متظاهراً بأنه يعرف أين الدم، وأين المادة، وأين العرق الجاف وأين الرطب، بينما هو يمسك بين أسنانه خرقة شاقية أو قارورة من الزاج، إن هذا الريفي لا يقدر أن يتصور أن يد بوليكي، وهي ترتفع، لا تعرف كيف تشق.

فهو نفسه ما كان في مستطاعه أن يفعل ذلك. وما إن يقع الشق، حتى لا يلوم نفسه على أنه قبل بأن يشق حصانه بلا جدوى.

وأنا لا أعرف ما هو شعوركم، ولكنني كنت أعاني ذلك الشعور بالذات مع الدكتور الذي كان يعذب أناساً قريبين إلى قلبي بناء على رجائي. أليس المبضع وقارورة بيضاء للسليماني*، وأسماء نباتات طيبة

---

* مادة كيمياوية .

وكلمات مشوهة وما إلى ذلك. أليست هي نفس المرادفات التي تستعمل لتسمية الأعصاب والروماتزم والعضويات وما إلى ذلك.

Wage du zu irren und zu tràumen* !ـ هذا لا ينطبق على الشعراء بقدر ما ينطبق على الأطباء والبياطرة.

ـ٣ـ

في ذلك المساء نفسه، بينما كان اجتماع يضج عند الإدارة ليختار المجند، في تلك العتمة الباردة من ليل تشرين الأول، كان بوليكي جالساً على حافة فراشه عند المنضدة يسحق عليها بزجاجة دواء للخيول، لم يكن هو نفسه يعرف ما هو. كان خليطاً من السليماني والكبريت، وملح الجلوبر، وعشب جمعه بوليكي بنفسه، بعد أن صور لنفسه أن هذا العشب بالذات مفيد جداً لربو الخيل، ولم يجد من الفضول أن يستخدمه في علاج أمراض أخرى. وكان الأطفال قد رقدوا، اثنان منهم على سطح الموقد، واثنان على سرير، وواحد في المهد، حيث جلست أكولينا تغزل. وكان عقب الشمعة، وهو من شموع السيدة التي كانت متروكة من غير راع، موضوعاً في شمعدان خشبي على النافذة، وكانت أكولينا، لكيلا ينصرف زوجها عن عمله المهم، تنهض وتعدل فتيلة الشمعة بأصابعها. كان ثمة متشككون يعتبرون بوليكي بيطاراً فارغاً، وإنساناً فارغاً، والآخرون، وهم الأكثرية يعتبرونه إنساناً سيئاً، ولكنه أستاذ كبير في فنه.

---

* «تجرأ على الهيام والحلم!» ـ كلمة من قصيدة شيللر «تيكلا» (١٨٠٢) .

أما أكولينا، التي كانت غالباً ما تشتم زوجها، بل وتضربه، فقد كانت تعتبره، دون أن يداخلها أي ريب، البيطار الأول والرجل الأول في الدنيا. نثر بوليكي الدواء في قبضته (كان لا يستخدم الميزان، ويسخر من الألمان الذين يستخدمونه قائلاً: «ليست هذه صيدلية!» ووزنه في يده، وهزه، ولكنه بدا له قليلاً، فنثر عشر مرات أكثر منها وقال لنفسه: «اضعها كله، فيؤثر أحسن». التفتت أكولينا بسرعة إلى صوت صاحبها، منتظرة إيعازاً منه، ولكنها هزت كتفيها، حين عرفت أن الأمر لا يعنيها. وفكرت مع نفسها: «أوه، يا جاهل، من أين له كل هذا!» وعادت إلى غزلها. وقعت تحت المنضدة الورقة التي كان بوليكي يصب منها الأدوية. فلم تفوت أكولينا هذه الفرصة وقالت:

ـ أنيوتكا! ارفعي ما أوقعه أبوك.

أخرجت انيوتكا قدميها الدقيقتين الحافيتين من تحت الرداء الذي كانت تتغطى به، وانسلت كهرة تحت المنضدة، وأمسكت بالورقة:

ـ هاك، باباتي.

قالت، واندست ثانية في الفراش برجليها المتثلجتين. فصاحت عليها أختها الصغير ترتن بصوتها الناعس:

ـ لا تدفعيني!

قالت أكولينا مهددة:

ـ سأريكما!

فاختفى كلا الرأسين تحت الرداء.

قال بوليكي، وهو يسد الزجاجة:

ـ سيعطيني ثلاثة روبلات، وسأشفي الحصان. ذلك رخيص أيضاً ـ

ثم أضاف ـ جربي أن تخترعي الدواء! اذهبي، يا أكولينا، واطلبي تبغاً من نيكيتا. سأرده له غداً.

وأخرج بوليكي من سرواله شبقاً*، من زيزفون حائل الصبغ، فيه شمع في موضع المبسم، وأخذ يهيئه.

وضعت أكولينا المغزل، وخرجت دون أن تتشربك بشيء، وهو أمر كان في غاية الصعوبة. فتح بوليكي دولاباً صغيراً، وأخرج زجاجة، وقلبها في فمه، إلا أن الزجاجة الفارغة لم تكن فيها أية قطرة من الفودكا. تجهم عابساً، إلا أن زوجته جلبت له التبغ، فراح يحشو غليونه، وأشعله، وجلس على السرير، وقد أضاءت وجهه لمعة الرضى والاعتزاز اللذين يشعر بهما إنسان فرغ من عمله اليومي. ولا ندري هل كان يفكر في أنه سيمسك لسان الحصان في الغد، ويصب في فمه هذا المزيج العجيب، أم كان يفكر في أن الرجل ذا الشأن لا يرفض أحد له طلباً، فهذا نيكيتا قد أرسل له تبغاً على أية حال. لقد كان يحس بارتياح.

وفجأة فتح الباب المعلق من مفصلة واحدة، ودخلت إلى الركن الفتاة من العالي، لا الثانية، بل الصغيرة الثالثة التي كانت تستخدم لإيصال الإرساليات. والعالي، كما يعرف الجميع، يعني بيت السيدة، لو كان يقع في الأسفل. كانت أكسيوتكا ـ وهو اسم الفتاة ـ تأتي دائماً طائرة، كالطلقة، ويداها، أثناء ذلك، غير مطويتين، بل متأرجحتين، مثل بندولين، على قدر سرعة حركتها، لا على الجانبين، بل قدام جسمها، وكان خداها دائماً أكثر حمرة من منديلها الوردي، وكان لسانها يتحرك

---

* غليون طويل ـ المترجم.

دائماً بسرعة مثل سرعة رجليها. دخلت الحجرة طائرة، وأمسكت بالموقد، لسبب ما، وأخذت تتأرجح، وكأنها تريد أن تطلق ما لا يقل عن كلمتين أو ثلاث دفعة واحدة، وفجأة نطقت بما يلي لاهثة مخاطبة أكولينا:

ـ أمرت سيدتي بأن يصعد بوليكي ايليتش إلى العالي بسرعة، في هذه اللحظة، أمرت... (وتوقفت والتقطت أنفاسها بصعوبة). كان يغور ميخاليتش عند السيدة، يتحدث عن التجنيد. ذكروا بوليكي ايليتش... أمرت أفدوتيا ميخائيلوفنا أن يهرع في هذه اللحظة... اقدوتيا ميخائيلوفنا أمرت (وزفرت من جديد) في هذه اللحظة يهرع.

نظرت أكسيوتكا هنيهة إلى بوليكي، وإلى أكولينا، وإلى الأطفال الذين أخرجوا رؤوسهم من تحت الغطاء، واختطفت قشرة جوز كانت على الموقد، وقذفتها على أنيوتكا، وبعد أن كررت مرة أخرى «يهرع في هذه اللحظة» خرجت من الحجرة، كالزوبعة، والبندولان يتأرجحان بالسرعة المعتادة بعرض خط سيرها الوئيد.

نهضت أكولينا ثانية، وأخرجت الحذاء لزوجها. كان الحذاء يائساً مهلهلاً، من أحذية الجنود. رفعت القفطان من الموقد، وقدمته لزوجها، دون أن تنظر إليه.

ـ ايليتش، ألا تريد أن تغير قميصك؟

قال بوليكي:

ـ لا.

لم تنظر أكولينا إلى وجهه مرة واحدة، حين كان يلبس حذاءه ويرتدي ملابسه صامتاً، وقد أحسنت صنعاً، إذ لم تنظر إليه.

فقد كان وجه بوليكي شاحباً، وفكه الأسفل يرتجف، وفي عينيه

ذلك التعبير المتفجع الخنوع والشديد التعاسة، الذي يتفرد به الناس الطيبون الضعاف النفوس، المذنبون. مشط شعره، وهم بالخروج، إلا أن زوجته أوقفته، وعدلت شراشيب ردائه المسترخي على القفطان، وألبسته قبعته.

تردد صوت زوجة النجار من وراء الحاجز:

ـ هل السيدة تستدعيك، يا بوليكي ايليتش؟

وكانت زوجة النجار هذه في صباح اليوم فقط، قد اشتبكت مع أكولينا في شجار حام، لأن أولاد بوليكي دلقوا لها قدر محلول الغسيل القلوي، وقد سرها في الوهلة الأولى أن تسمع أن بوليكي قد استدعي للمثول بين يدي السيدة، فقد يكون ذلك لا عن خير يراد له. فضلاً عن أنها كانت سيدة مرهفة، مداورة، لاذعة. لم يكن أحد يفضلها في اختيار الكلمات اللاذعة، أو ذلك ما كانت تراه في نفسها، على أقل تقدير.

مضت تقول:

ـ ربما يريدون أن يرسلوه إلى المدينة للمشتريات. وهذا ما أتوقعه، أن يختاروا رجلاً أميناً، فسيرسلوك. عندئذ اشتر لي ربع رطل شاي، يا بوليكي إيليتش.

خنقت أكولينا عبراتها، وانطبقت شفتاها في تعبير عن الغيظ، حتى لودت أن تنشب أصابعها في شعر هذه الخنزيرة الهزيل، زوجة النجار. ولكنها ألقت نظرة إلى أولادها، وفكرت في أنهم سيضحون يتامى، وتصير هي أرملة جندي، فنسيت زوجة النجار اللاذعة اللسان، وغطت وجهها بيديها، وجلست على الفراش، وانطرح رأسها على المخدة.

ـ مامي، أنت دستيني! ـ رتنت البنت الصغيرة، وهي تسحب معطفها من تحت كوع أمها.

ـ عسى أن تموتوا جميعاً! ولدتكم للشقاء!

صاحت أكولينا، وأجهشت وملأ نحيبها الركن كله، تسرية لزوجة النجار التي لم تنس بعد محلول الغسيل القلوي الذي اندلق في الصباح.

ـ ٤ ـ

انقضى نصف ساعة. أخذ الطفل يصرخ. نهضت أكولينا، وأرضعته. كانت قد كفت عن البكاء، إلا أنها وسدت وجهها النحيل الجميل يدها، وثبتت عينيها في الشمعة، وهي في رمقها الأخير، وفكرت لم تزوجت، ولم الحاجة إلى كل هذا العدد من الجنود، ثم كيف يمكن أن ترد الحيف لزوجة النجار.

ترددت خطوات زوجها، فمسحت آثار الدموع، ونهضت لتفسح الطريق. دخل بوليكي متبختراً، وألقى قبعته على السرير، وزفر بقوة، وأخذ يحل حزامه.

ـ ماذا إذن؟ لماذا استدعتك؟

ـ المسألة معروفة! بوليكوشكا آخر الناس، ولكن إذا اقتضى أمر، فمن له؟ بوليكوشكا.

ـ ما هو هذا الأمر؟

لم يتعجل بوليكي في الجواب، أشعل غليونه وبصق.

ـ أمرتني بأن أسافر لأجلب النقود من تاجر.

سألت أكولينا:

ـ تجلب نقوداً؟

ابتسم بوليكي ابتسامة مقتضبة، وهز رأسه: ـ ما أحذقها في الكلام! قالت لي: إنهم يعتبرونك رجلاً غير أمين، وأنا وحدي أثق بك أكثر من أي شخص آخر (كان بوليكي يتكلم بصوت عال ليسمعه الجيران). قالت لي: لقد وعدتني بإصلاح نفسك، وها هو أمامك البرهان الأول على أنني أثق بك. فسافر إلى التاجر، وخذ النقود منه، واجلبها. فأقول لها: يا سيدتي، نحن جميعاً خدمك، ويجب أن نخدمك مثلما نخدم ربنا، ولهذا أشعر بأنني أستطيع أن أفعل كل شيء من أجل سلامتك، ولن أستطيع أن أرفض أي واجب.

مريني أنفذ ما تأمرين به، فأنا عبدك. (ومرة أخرى ابتسم تلك الابتسامة التي يتفرد بها إنسان طيب، ضعيف النفس، مذنب) فتقول لي: إذن، فأنت ستقوم بذلك عن صدق؟ هل تعرف أن مصيرك متعلق بذلك؟ كيف لا يمكن أن أفهم أنني أستطيع أن أفعل كل شيء؟ وإذا كانوا قد شنعوا علي، ففي الإمكان أن تلصق التهم بكل إنسان، بينما ما كان من الممكن قط، على ما أتصور حتى أن يخطر في بالي أن أسيئ إليك. وتكلمت كثيراً حتى سيدتي أصبحت لينة تماماً. وتقول لي: ستكون الرجل الأول عندي.

(وصمت قليلاً، وعادت نفس الابتسامة إلى وجهه) أنا أعرف جيداً كيف أتحدث إليهم. عندما كنت أشتغل عند التاجر، لبدل تسريح، كنت أجابه بهجمة عنيفة من أحد ما! ولكن حالما أتحدث معه، وأداهنه حتى يلين ويصير كالحرير.

وعادت أكولينا تسأله:

ـ وهل النقود كثيرة؟

أجاب بوليكي بإهمال:

ـ ثلاث مرات نصف ألف روبل.

هزت أكولينا رأسها:

ـ ومتى ستسافر؟

ـ أمرتني بأن أسافر غداً. وقالت: خذ أي حصان تحب، وعرج على الإدارة، وسافر في حفظ الله.

ـ ممجد أنت، يا رب! ـ قالت أكولينا، ونهضت ورسمت علامة الصليب ـ ليكن الرب في عونك، يا ايليتش ـ أضافت همساً حتى لا يسمعها من كانوا وراء الحاجز، وأمسكته من كم ردائه ـ ايليتش، اسمعني. أحلفك بالمسيح الرب بأن تقبل الصليب حالما تذهب، على أن لا تضع في فمك قطرة من خمر.

ـ كيف أشرب وأنا مسافر مع هذه النقود ـ قال بصوت ناكر، ثم أضاف بعد أن صمت وكشر ابتسامة مقتضبة ـ في البيت هناك كان أحد يعزف على البيانو. لا بد أنها ابنة السيدة. وكنت واقفاً أمامها، أقصد أمام السيدة، عند الدولاب، والسيدة الصغيرة هناك، وراء الباب، ترسل الدندنة وراء الدندنة. دندنة عذبة موزونة. ترن وترن! آه لو عزفت. إذن، لجودت أحسن تجويد. فأنا حاذق في هذه الأشياء. يوم غد هيئي لي قميصاً نظيفاً.

واستلقيا للنوم هانئين.

وخلال ذلك كان اجتماع الفلاحين يضج عند مبنى الإدارة. كانت القضية في غاية الجدية. وقد حضر الاجتماع جميع الرجال تقريباً، وبينما كان يغور ميخائيلوفيتش في زيارة السيدة، كان الرجال قد ارتدوا قبعاتهم من جديد، وارتفع عدد الأصوات في كلام جماعي، وترددت بقوة أشد. وارتخى في الهواء لغط الأصوات المتضخمة يتخلله من حين لآخر كلام مخنوق أجش ضاج، وترامى هذا اللغط، مثل صوت بحر هادر، إلى نوافذ السيدة التي كانت تعاني، بسبب ذلك، قلقاً عصبياً شبيهاً بالإحساس الذي تثيره عاصفة مثيرة قوية.

فقد كان شعورها يتراوح بين الرهبة والانزعاج، كانت تتخيل طوال الوقت أن الأصوات إذا ما ارتفعت أكثر من ذلك بقليل، وتتابعت أكثر فسيحدث شيء ما. فكانت تقول لنفسها: «كأنما غير ممكن أن يجري كل شيء بهدوء وسلام، ودون جدال ولا صياح، حسب الشريعة المسيحية السمحاء الداعية إلى الحب بين البشر؟».

تكلمت أصوات كثيرة دفعة واحدة، إلا أن النجار فيدور ريزون كان يصيح أعلى من الجميع. كان له ابنان، وكان يهاجم آل دوتلوف.

وكان العجوز دوتلوف يدافع. وقد طلع أمام الجمع، بعد أن كان في مؤخرته في بادئ الأمر، وكان يخن بكثرة شديدة، وهو يتلعثم، ويبسط ذراعيه، ويهز لحيته، حتى كان يصعب عليه هو نفسه أن يفهم ما كان يقوله. والابنان وأبناء الأخ، بهجة للناظرين، يقفون منحشرين خلفه، بينما كان العجوز دوتلوف يشبه الأم في لعبة «الحدأة». وكان ريزون الحدأة، وليس ريزون وحده، بل إن جميع الثنائيين، والأحاديين، وجميع

المجتمعين تقريباً هاجموا دوتلوف. وخلاصة الأمر أن أخا دوتلوف كان قد أعطي للجندية، قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً، ولهذا لم يرد دوتلوف أن يكون في فئة الثلاثيين، كان يريد أن تحسب خدمة أخيه له، وأن يساووه مع ذوي الولدين في القرعة العامة، وأن يؤخذ منهم المجند الثالث.

وكان هناك أربعة من الثلاثيين إضافة إلى دوتلوف، ولكن أحدهم كان عمدة، وقد أعفته سيدته، بينما قدمت عائلة ثانية مجنداً منها في الوجبة السابقة، وحدد اثنان من العائلتين الباقيتين، أحدهما لم يجد ضرورة حتى لحضور الاجتماع، ولم تأت إلا امرأته التي كانت تقف خلف الجميع حزينة، منتظرة في ارتياب أن يدور الدولاب لصالحها، بينما وقف المرشح الثاني، وهو رومان الأصهب في جبته المهلهلة، وإن لم يكن فقيراً، متكئاً على واجهة مبنى الإدارة، وقد خفض رأسه، واعتصم بالصمت طوال الوقت، سوى أنه، من حين لآخر، كان يحدق بعناية فيمن كان يبدأ حديثه بصوت أعلى، ثم يخفض رأسه ثانية. حتى إن التعاسة كانت تلوح من كل شخصه.

كان سيميون دوتلوف العجوز رجلاً يمكن لأي امرئ له معرفة قليلة به، أن يأتمنه على مئات وآلاف الروبلات. كان رجلاً بادي الرزانة، تقياً ثرياً، بالإضافة إلى كونه راعي الكنيسة. فكان اندفاعه ملفتاً للنظر.

بينما كان ريزون، النجار، على العكس من ذلك، رجلاً طويلاً، كئيباً صخاباً، سكيراً جسوراً، بارعاً بشكل خاص في النقاشات والكلام في اجتماعات الفلاحين، والأسواق، سواء مع الشغيلة، أو التجار، أو الريفيين أو السادة. وكان الآن هادئاً، قارصاً يخنق بفراهة قامته، وشدة صوته الرنان، وموهبته الخطابية، راعي الكنيسة الذي كان يشهق

بكلامه، ويخرج تماماً عن جادة رزانته. كما كان يشترك في النقاش: غاراسكا كوبيلوف المدور الوجه، والمربع الرأس، الأجعد اللحية، الركين البنيان، الذي يبدو أصغر من سنه الحقيقية، وهو واحد من محبي الكلام من الجيل الأكثر شباباً، الذي يأتي بعد جبل ريزون، كان يبرز دائماً بكلامه الحاد، ويكسب لنفسه وزناً في اجتماع الفلاحين. ثم فيودور ميلنيتشني، الموجيك الأصفر، النحيف، الطويل، المحدودب، الشاب أيضاً، بالشعرات القليلة في اللحية، وعينيه الصغيرتين، الصفراوي دائماً، الكئيب، والذي كان يجد في كل شيء جانباً خبيثاً، وكثيراً ما يربك اجتماع الفلاحين بأسئلته وملاحظاته المفاجئة المتقطعة. ومحبا الكلام هذان كان كلاهما في صف ريزون. وبالإضافة إلى ذلك كان اثنان من الثرثارين يتدخلان من حين لآخر: أحدهما ذو وجه بادي الطيبة، ولحية كتانية عريضة، هو خرابكوف، الذي كان لا يفتأ يردد «يا صديقي المؤدب»، والآخر صغير، له وجه الطائر، هو جيدكوف، الذي كان يردد أيضاً في كل الأحوال: «إذن، يا إخواني» ويتوجه الجميع، ويتحدث بسلاسة، ولكن بدون سبب ولا داع. وكلاهما كان يميل تارة إلى هذا، وتارة إلى ذاك ولكن أحداً لم يستمع إليهما.

وكان هناك آخرون مثلهم، إلا أن هذين الاثنين ظلا على حركتهما الدائبة بين الناس إرضاء لهم، وكانا أكثر الناس صراخاً، مثيرين الخوف في نفس السيدة، وأقل من يسمع لهما، مسلوبي اللب بالضجيج والصياح، مأخوذين كلياً بمتعة تحريك اللسان. كما كان هناك الكثير من مختلف الأوزاع من الفلاحين الريفيين: منهم عابسون، ومنهم أصحاب استقامة، ومنهم غير مكترثين، هلعون. وكانت هناك نسوة أيضاً وراء

الرجال يحملن عكاكيز، ولكنني، إن شاء الله، سأتحدث عن جميعهم في مرة أخرى. وكان الجمهور يتكون، بشكل عام، من الريفيين الموجيك، الذين كانوا يقفون في الاجتماع، كما في كنيسة، ومن الذين كانوا يتكلمون في الخلف همساً عن شؤونهم البيتية، أو ينتظرون صامتين هل ينتهي الزعيق بسرعة.

كما كان هناك أغنياء لا يستطيع الاجتماع أن يضيف أو ينقص شيئاً من رخائهم، من مثل يرميل ذي الوجه العريض الصقيل الذي كان الريفيون الموجيك ينعتونه بأبي كرش، لأنه كان غنياً.

وستاروستين الذي كان وجهه يحمل تعبير الرضى عن النفس لما لها من سلطة، وكأنه يقول: «مهما قلتم فلن يستطيع أحد أن يمسني. لي أربعة أولاد، ولكني لن أعطي واحداً منهم». وكان المفكرون الأحرار ككوبيل وريزون يتحرشون بهم من حين لآخر، فكانوا يردون، ولكن بهدوء وثبات، وبوعي بحصانتهم. وإذا كان دوتلوف يشبه الأم في لعبة «الحدأة»، فإن فتيانه لا يشبهون الفراخ أبداً. فقد كانوا لا يرفرفون ولا يزقزقون، بل كانوا يقفون هادئين وراءه. كان أكبرهم، وهو ايغنات، قد بلغ الثلاثين من العمر، والثاني، فاسيلي، كان متزوجاً أيضاً، ولكنه غير صالح للتجنيد، أما الثالث، ايلوشكا، ابن الأخ، فقد كان تزوج لتوه، وكان أبيض البشرة، مورد الوجه في جبة متأنقة (كان يعمل حوذياً) ينظر إلى الناس، ويهرش قفاه تحت القبعة أحياناً، وكأنما الأمر لم يكن يعنيه، بينما كان الحداء يريدون أن يرسلوه بالذات.

كان ريزون يقول:

ـ جدي قد خدم في الجندية، وهذا ليس سبباً لأرفض الاشتراك في

القرعة. لا يوجد مثل هذا القانون. يا أخ. في الوجبة السابقة أخذوا ميخييتشيف، بينما عمه لم يرجع بعد إلى بيته.

وكان دوتلوف يقول في نفس الوقت:

ـ لا أبوك ولا عمك خدم القيصر، كما أنك لم تخدم السادة، ولا مجمع القرية، وليس لك غير السكر والعربدة. كما أن أبناءك انفصلوا عنك، لأن العيش معك مستحيل. وهذا هو منطقك. تشير إلى أولاد الآخرين. بينما أنا عملت كمساعد لشرطة القرية عشر سنين، وعينت عمدة، ونكبت بحريق مرتين، ولم يساعدني أحد، فتريدون أن تدمروني لأن بيتي وادع مبرأ من النقيصة؟ أعيدوا لي أخي. أظن أنه مات هناك. احكموا بالعدل، وبما أشار الله، أيها المؤمنون، لا بما تصغون إلى ما يفوه به سكير.

وفي نفس الوقت كان غيراسيم يقول لدوتلوف:

ـ أنت تذكر أخاك، ولكن أخاك لم يرسل إلى الجندية من قبل مجمع القرية، بل أرسله السادة لفسوقه، فلا تجعل منه ذريعة.

وقبل أن يتم غيراسيم كلامه شرع فيدور ميلنيتشني الأصفر الطويل، وهو يخرج إلى الأمام:

ـ أجل، السادة يرسلون من يعن لهم، وبعد ذلك تعال يا مجمع القرية وحقق. مجمع القرية قرر أن يرسل ابنك، وأنت لا تريد ذلك، فاذهب إلى السيدة، فقد تأمرني بأن أحلق بالموس*، رأسي وأنا معيل واحد عند أبنائي. هذا هو القانون الذي يريدونه ـ قال في صفراوية، ولوح بيده مرة أخرى، وعاد إلى مكانه السابق.

---

* حلاقة الرأس إلى النصف كانت عادة شائعة اللذين يجندون ـ المترجم .

رفع رومان الأصهب رأسه، وكان قد وقع الاقتراع على ابنه، وردد: «تمام، تمام!» ـ بل وجلس على الدرجة في ضيق.

ولكن هذه ليست كل الأصوات التي تكلمت دفعة واحدة. فإن الثرثارين لم ينسوا مهمتهم، إلى جانب الذين كانوا يتحدثون عن شؤونهم، وهم واقفون إلى الخلف.

كان جيدكوف الصغير يقول مردداً كلمات دوتلوف:

ـ بالضبط، أيها المؤمنون. يجب أن تحكموا بروح المسيحية. إذن، يا إخواني، بروح المسيحية يجب أن تحكموا!!

ـ يجب الحكم بما يمليه الضمير، يا صديقي المؤدب ـ كان يقول خرابكوف الطيب القلب، مردداً كلمات كوبيلوف، جاذباً دوتلوف من جبته ـ هذه كانت مشيئة السيدة، وليس قرار مجمع القرية.

وكان آخرون يقولون:

ـ صحيح! بالضبط!

فاعترض ريزون قائلاً:

ـ من هذا السكران الذي يهذي؟ هل كنت تقدم لي المشروب، أم أن ابنك الذي يلتقطه الناس من الطريق، سيعيرني بالخمرة؟

يا إخوان، يجب اتخاذ قرار. وإذا كنتم تريدون التسامح مع دوتلوف، فانتخبوا حتى الأحاديين وليس الثنائيين وحدهم. فإنه سيضحك منا، على أية حال.

ـ يجب أن يرسل دوتلوف! من كل بد!

وقالت أصوات:

ـ المسألة معروفة! يجب على الثلاثيين أن يجروا القرعة أولاً.

وارتفع صوت:

ـ والله اعلم ماذا ستأمر السيدة أيضاً. قال يغور ميخائيلوفيتش إنها كانت تريد تقديم أحد من الخدم.

أعاقت هذه الملاحظة الجدل بعض الوقت، إلا أنه سرعان ما احتدم من جديد، وتحول مرة أخرى إلى الأشخاص.

أخذ ايغنات الذي قال عنه ريزون أن الناس كانوا يلتقطونه من الطريق، يثبت لريزون أنه سرق منشاراً من نجارين عابرين، وأنه ضرب زوجته، وهو سكران، حتى أوشكت أن تموت.

فيرد ريزون بأنه يضرب زوجته صاحياً كان أو سكران، ومع ذلك فهذا قليل بحقها. وبقوله هذا أضحك الجميع. أما بخصوص المنشار، فقد استاء فجأة، وتقدم من ايغنات وأخذ يسأله:

ـ من سرقه؟

ـ أنت سرقته. ـ قال ايغنات الضخم، بجرأة، وهو يدنو منه أكثر.

صرخ ريزون:

ـ من سرقه؟ ألست أنت؟

صاح ايغنات:

ـ لا، بل أنت!

وبعد الإشارة إلى المنشار، تحولت الأحاديث إلى حصان مسروق، وإلى كيس شوفان، وإلى شريط حديقة خضروات ضمن حدود القرية، وإلى جثة شخص ما. وقد أفضى الرجلان كلاهما بأشياء رهيبة، حتى لو أن واحداً بالمئة مما لاما أنفسهما عليه كان حقيقة لأستحق كلاهما، قانونياً، النفي إلى سيبريا، أو الإبعاد، على الأقل.

وخلال ذلك اختار العجوز دوتلوف نوعاً آخر من الدفاع. لم يعجبه

صياح ابنه، فأوقفه وهو يقول: «هذا إثم، فتوقف! اسمع كلامي»، وراح يثبت أن الثلاثيين ليسوا هم فقط الذين لهم ثلاثة أولاد يعيشون سوية، بل والذين انقسموا إلى عوائل. كما أنه ذكر ستاروستين أيضاً.

ابتسم ستاروستين ابتسامة خفيفة، وبأبأ، ومسد على لحيته على طريقة الموجيك الغني، وأجاب أن ذلك مشيئة السيدة. وإذا كانت قد أمرت بإبقاء ابنه، فلا بد أنه استحق ذلك.

كما أن غيراسيم فند براهين دوتلوف بخصوص العوائل المقسمة، إذ قال، كان يجب ألا يسمح بالتقسيم، كما كان الحال في زمن السيد العجوز، فما فات فات، والآن لا يجند الابن الوحيد للعائلة.

وترددت أصوات المنقسمين:

ـ وهل قسمت العوائل دلالاً ودلعاً؟ فلماذا نحطمها الآن، كلياً؟

وانضم الثرثاران إلى هذه الأصوات.

وقال ريزون لدوتلوف:

ـ ادفع عن بديل له، إذا كنت لا تحب، وتتخلص!

أخذ دوتلوف يضم طرفي قفطانه في يأس، ووقف وراء الريفيين الأخريين.

ـ الظاهر أنك عددت فلوسي ـ قال في حنق ـ ها هو يغور ميخائيلوفيتش ماذا سيقول لنا بعد نقلاً عن السيدة.

ـ ٦ ـ

وبالفعل خرج يغور ميخائيلوفيتش من بيت السيدة. في هذه الأثناء ارتفعت القبعات فوق الرؤوس واحدة بعد الأخرى، وكلما كان الوكيل يقترب أكثر، كانت الرؤوس تنحسر واحداً بعد الآخر، رؤوس صلعاء في

اليافوخ، أو عند الناصية، شيباء ونصف شيباء، حمراء الشعر وسوداء، وكتانية، وهدأت الأصوات شيئاً فشيئاً، حتى سكتت كلياً. وقف يغور ميخائيلوفيتش على مدخل المبنى، وأظهر من هيئته أنه يريد أن يتكلم. كان في سترته الطويلة، ويداه محشورتان في جيبيه الأماميين بطريقة غير مريحة، وقبعته المعملية الصنع المدفوعة إلى أمام، وفي وقفته منفرج الساقين على العلوة بثبات، مشرفاً على هذه الرؤوس المرفوعة والمتجهة نحوه، الشائخة في جزء كبير منها، والجميلة الملتحية في جزء آخر كبير أيضاً، يبدو في مظهر مختلف تماماً عن مظهره وهو ماثل أمام السيدة. لقد كان مهيب الطلعة.

ـ هذا هو قرار السيدة، يا شباب: إنها لا تود التخلي عن خدمها. ومن تعينونه من بينكم سيرسل. نحن نحتاج اليوم إلى ثلاثة. في الحقيقة إلى اثنين ونصف. والنصف الآخر سيذهب فيما بعد. لا فرق. إذ لم يكن الآن، ففي المرة القادمة من كل بد.

ترددت أصوات:

ـ معلوم! هذه هي الحقيقة!

ـ في رأيي ـ تابع يغور ميخائيلوفيتش كلامه ـ مكتوب على خوريوشكين وعلى فاسكا ميتيوخين أن يذهبا. هذا ما أراده الله نفسه.

ترددت أصوات:

ـ صحيح، بالضبط.

ـ أما الثالث فأما أن يكون دوتلوف أو واحداً من الثنائيين.

فماذا تقولون؟

ـ دوتلوف. آل دوتلوف من ذوي الثلاثة.

ومن جديد بدأ الصياح شيئاً فشيئاً، ومرة أخرى تحول الحديث إلى المنشار، وإلى شريط الأرض ضمن حدود القرية، وإلى سقط متاع سرق من بيت السيدة. كان يغور ميخائيلوفيتش يدير الضيعة منذ عشرين عاماً، وهو رجل ذكي ومحنك. ولذلك وقف قليلاً، وأصغى زهاء ربع ساعة، وإذا به يأمر الجميع بأن يسكتوا، وأن يسحب القرعة واحد من أبناء دوتلوف الثلاثة. قطعت قصاصات القرعة بأسماء المقترعين. وأخذ خرابكوف يسحب من القبعة التي خلطت فيها القصاصات، والتي هزها، فأخرج قصاصة ايليوشكا. وغرق الجميع في الصمت.

قال ايليوشكا بصوت ممزق:

- وقعت القرعة علي؟ أروني.

صمت الجميع. أمر يغور ميخائيلوفيتش بأن تجلب نقود التجنيد في الغد، بمقدار سبعة كوبيكات عن كل حصان وأعلن أن كل شيء قد انتهى، وفض الاجتماع. تحرك جميع الفلاحين مرتدين قبعاتهم في وراء المنعطف، مثيرين الضجيج بكلامهم ووقع خطواتهم. وقف الوكيل على مدخل المبنى، ناظراً إلى المنصرفين. ولما مر فتيان دوتلوف وراء المنعطف، دعا دوتلوف العجوز إليه، وكان قد توقف بنفسه، ودخل الاثنان مبنى الإدارة.

- إنني مشفق عليك، يا شيخ - قال يغور ميخائيلوفيتش، وهو يجلس على كرسي أمام المنضدة - الدور عليك. فهل ستدع لبديل عن ابن أخيك أم لا؟

نظر العجوز إلى يغور ميخائيلوفيتش نظرة ذات مغزى، دون أن يرد، فأجاب يغور ميخائيلوفيتش عن نظرته:

ـ لا غنى عن ذلك.

ـ يا ليت أن أدفع، ولكن اليد قصيرة، يا يغور ميخائيلوفيتش، أضنينا الحصانين في الصيف، لأزوج ابن أخي. هكذا مصيرنا، كما يبدو، لأننا نعيش بنزاهة. إنه يجيد الكلام (متذكراً بذلك ريزون).

مسح يغور ميخائيلوفيتش وجهه بيده، لقد ضجر، في الظاهر، وقد حان وقت احتساء الشاي. قال:

ـ أوه، يا عجوز، لا تأثم، وابحث في الزوايا، وأظنك ستجد أربعاً من فئة المائة روبل القديمة. سأشتري لك بديلاً مذهلاً. قبل أيام أبدى أحد الأشخاص رغبته.

ـ في المقاطعة.

سأل دوتلوف، وهو يقصد المدينة بالمقاطعة.

ـ هل ستشتريه إذن؟

ـ يا ليت، قسماً بالله، ولكن...

قاطعه يغور ميخائيلوفيتش بحدة:

ـ كفى، اصغ إلي، يا شيخ، يجب أن لا يعمل ايليوشكا شيئاً على نفسه، طالما أرسل طلباً إليه، اليوم أو غداً يجب أن تسافر معه حالاً، وتكون مسؤولاً عنه، وإذا ما حصل له شيء، لا سمح له، فآخذ منك ابنك الكبير. هل تسمع؟

ـ ولكن ألا يجوز أن يكون التعيين من الثنائيين، يا يغور ميخائيلوفيتش، أنا مظلوم ـ قال بعد أن صمت قليلاً ـ أخي مات وهو يخدم في الجندية، وعلاوة على ذلك يأخذون ابنه: على أي شيء امتحن هذه المحنة؟

قال وهو يكاد يبكي، موشكاً على أن يتهاوى.

قال يغور ميخائيلوفيتش:

- اذهب، اذهب، لا يجوز أبداً. نظام. عليك أن تراقب ايليوشكا، فأنت مسؤول عنه.

ذهب دوتلوف إلى بيته سارح الفكر، يضرب بالعصا نتوآت الطريق.

-٧-

في بكرة صباح اليوم التالي كانت تقف أمام مدخل «جناح» الخدم عربة (كان يقلها الوكيل أيضاً) شد عليها فرس أصهب مخصي ضخم العظام كان يسمى «برابان»* لسبب غير معروف.

وكانت أنيوتكا ابنة بوليكوشكا الكبرى تقف أمام الحصان حافية القدمين رغم المطر المشوب بالبرد، ورغم الريح الباردة، ممسكة بعيداً منه مقوده بيد واحدة، في هيئة ذعر، واضعة اليد الأخرى على رأسها لتمسك بالبلوزة الخضراء المصفرة المستخدمة بين أفراد العائلة كدثار، وفروة، وغطاء رأس، وبساط، ومعطف لبوليكي، وفي وظائف أخرى كثيرة. في الركن حركة واضطراب.

وكان الظلام ما يزال مخيماً، والضوء الصباحي ليوم ممطر يتسلل قليلاً جداً من خلال نافذة ألصقت بالورق هنا وهناك. كانت أكولينا قد تركت لوقت قصير الطبيخ في الموقد، والأطفال في حالهم، والصغار

* براباان : بالروسية تعني الطبل - المترجم .

منهم لم ينهضوا بعد، وقد تثلجوا بعد أن أخذ منهم الدثار ليستخدم لباساً، وأعطي لهم منديل رأس أمهم، وتفرغت أكولينا لتهيئة زوجها للسفر. وكانت قد غسلت الرداء، والحذاء الذي تهرأ وصار مثل الشدق المفتوح، كما يقولون، كان شغلاً شاغلاً لها.

فهي، أولاً، قد خلعت عنها الجوربين الصوفيين السميكين الوحيدين، وأعطتها لزوجها. وثانياً، كان ايليتش قد جلب للبيت قبل ثلاثة أيام لباد سرج كان مرمياً بدون راع في الاسطبل، فتحايلت أكولينا لتصنع منه بطانتين للحذاء لتسدا الثقوب، ولتحفظا قدمي ايليتش من الرطوبة. وكان ايليتش نفسه يتربع على السرير مشغولاً بفتل حزامه حتى لا يبدو مثل حبل قذر. أما الطفلة الغاضبة التي ترتن بكلامها فقد أرسلت إلى نيكيتا تطلب منه قبعة، فكانت تتعثر بالفروة التي كانت تلتف بين قدميها، حتى وهي على رأسها. وزاد من الحركة توافد الخادمات والخدم يطلبون من ايليتش أن يشتري لهم من المدينة: لهذه إبرة، ولتلك شاياً، ولثالثة زيتاً لمصباح الأيقونة، ولآخر تبغاً، وطلبت زوجة النجار سكراً، وكانت قد لحقت أن تنصب السماور استرضاء لايليتش، وتجلب له في قدح مشروباً سمته شاياً. ورغم امتناع نيكيتا من إعطاء القبعة واضطرار ايليتش إلى إصلاح شأن قبعته، أي حشر بطانتها الطالعة والمدلاة، وخياطة الثقب بإبرة بيطرية، ورغم أن الحذائيين المفروشين بلباد السرج لم يدخلا في قدميه في بادئ الأمر، ورغم أن أنيوتكا قد تثلجت وكادت تطلق مقود «برابان» وذهبت ماشكا الصغيرة المتدثرة في الفروة إلى مكانها، ثم اضطررت بعد ذلك إلى التخلي عن الفروة، وخرجت اكولينا نفسها لتمسك «برابان»، إلا أن الأمر قد

انتهى، على أية حال، بأن يضع ايليتش على نفسه كل ملبوس العائلة، ولم يبق غير البلوزة والحذاء، ولما تهيأ، جلس في العربة، والتف بفروته، وعدل الدريس، والتف ثانية، وأمسك بالمقودين، وزاد من إحكام فروته عليه، كما يفعل الرزينون جداً، وتحرك بالعربة.

خرج طفله ميشكا إلى مدخل البيت، وطالب أن تسير به العربة قليلاً. كما طالبت ماشكا المترتنة بأن «تسير بها أيضاً وبأنها لا تشعر بالبرد بدون جبة». فأوقف بوليكي «برابان» وابتسم ابتسامته الضعيفة، فأجلست اكولينا الطفلين في العربة، وانحنت نحوه، وهمست له بأن يتذكر القسم، ولا يشرب شيئاً في السفر. سار بوليكي بالطفلين إلى دكان الحدادة، وأنزلهما، والتف من جديد، وعدل القبعة أيضاً، ومضى لوحده في خبب بسيط متزن، يهتز خداه عند الرجات، وتضرب قدماه على طرف العربة. وانطلق ميشكا وماشكا على المنحدر الزلق إلى البيت حافيين، في عدو سريع وزعيق شديد، حتى إن الكلبة التي كانت تركض من القرية إلى فناء بيت السيدة، نظرت إليهما، وعكفت ذيلها، وعادت تعدو إلى القرية نابحة نباحاً زاد زعيق نجلي بوليكي أضعافاً مضاعفة.

كان الطقس رديئاً، والريح تحز الوجه، ومن حين لآخر كان شيء ما بين الثلج والمطر والبرد يضرب وجه ايليتش ويديه العاريتين اللتين خبأهما مع المقودين الباردين تحت كمي الجبة، ويضرب السطح الجلدي لربقة الحصان ورأسه العجوز، وكان برابان يلصق أذنيه، ويقلص عينيه.

ثم انقطع ذلك فجأة، وصفا الجو في لمحة واحدة، ولاحت بوضوح السحب الثلجية الضاربة إلى الزرقة، وبدا وكأن الشمس على وشك أن تطل، ولكن بتردد وبدون بهجة مثل ابتسامة بوليكي نفسه. ورغم ذلك،

فقد كان ايليتش غارقاً في أفكار حلوة. إن هذا الرجل الذي أرادوا أن ينفى، وهدد بالجندية، وشتمه وضربه كل من هب ودب، وكان يرسل دائماً إلى أسوأ ما يكون، يسافر الآن ليتسلم مبلغاً من النقود، ومبلغاً كبيراً، والسيدة تأتمنه، ويسافر في عربة الوكيل، يجرها براباان الذي تستخدمه السيدة نفسها، يسافر كصاحب حال على عربة بسيرين جلديين ومقودين. ولهذا كان بوليكي يجلس رافعاً هامته أكثر، ويعدل البطانة في قبعته، ويزيد من لف فروته على جسده. وبالمناسبة، إذا كان ايليتش يتصور أنه تام الشبه بصاحب حال ميسور، فهو على ضلال. حقاً أن كل إنسان يعرف أن التجار ممن يملكون عشرة آلاف روبل فأكثر يركبون عربة لها مقود وعدة من جلد. ولكن هذا ليس كل الحقيقة. فأنت ترى رجلاً ذا لحية، في قفطان أزرق أو أسود يقل عربة يجرها حصان مشبع، متفرداً في حوض العربة بنفسه، فتعرف على التو، هل يملك آلاف الروبلات أو مئاتها، تعرف ذلك من امتلاء الحصان، ومن امتلائه هو، ومن عدة الحصان، ومن عجلات العربة، ومن حزام الرجل. إن كان إنسان مجرب، ما أن ينظر عن كثب إلى بوليكي، وإلى يديه، وإلى وجهه، وإلى لحيته المرسلة قبل وقت قصير، وإلى حزام الحوذي الذي يتمنطق به، وإلى الدريس الملقى في الصندوق حسبما اتفق، وإلى «براباان» النحيل، وإلى العجلات المحكوكة، حتى يدرك في الحال أن المسافر ليس تاجراً، ولا بائع ماشية، ولا صاحب حال، بل خادم ضئيل الشأن لا يملك ألفاً ولا مئة ولا عشرة روبلات. ولكن ايليتش لم يفكر في أنه على ضلال، فكان ضلاله حلواً له. سيحمل أنصاف الألف الثلاثة من الروبلات في طية صدره. وإذا رغب استطاع أن يسوق «براباان» إلى حانة أوديست بدلاً

من البيت، ويذهب إلى حيث يشاء الله. ولكنه لن يقدم على ذلك، بل سيعود بالفلوس إلى السيدة بالتأكيد، وسيقول: إنه قد تسنى له أن يحمل فلوساً أكثر. حاذى «برابان» حانة، فأخذ يجذب المقود الأيسر، ويتوقف، ويلتفت، إلا أن بوليكي جعل السوط يصفر فوقه واجتازها، رغم أن في حوزته نقوداً أعطيت له للمشتريات. وفعل نفس الشيء عند حانة أخرى، وعند الظهر نزل من العربة، وفتح باب بيت التاجر الذي كان يتوقف فيه جميع رجال السيدة، وقاد العربة، وفك الحصان، ووضعه أمام الدريس، وتناول غداءه مع شغيلة التاجر، وما امتنع عن الرضى في ذكر مهمته العظيمة التي جاء من أجلها، وذهب إلى البستاني، والرسالة في قبعته. كان البستاني يعرف بوليكي، وقد قرأ الرسالة، واستفسر في ارتياب ظاهر عما إذا كان عهد إليه حقاً بجلب النقود. أراد ايليتش أن يبدي تكدره، ولكنه لم يستطع، واكتفى بأن ابتسم ابتسامته المعهودة. أعاد البستاني قراءة الرسالة وأعطاه النقود. تسلم بوليكي النقود، ووضعها في طية صدره، وذهب إلى مكان إقامته. ولم يغوه مشرب ولا خمارة. وكان يحس بانفعال لطيف في كل كيانه، وقد توقف غير مرة عند الحوانيت ببضائعها المغرية: من الأحذية الطويلة، والقفاطين، والقبعات، والأقمشة القطنية، والمأكولات. بل كان يقف برهة، وينصرف يخامره شعور جميل بأنه قادر على أن يشتري كل شيء، ولكنه لن يفعل. ذهب إلى السوق الريفية ليشتري ما أوصي به، وحصل على كل شيء، وماكس على فروة من الجلد المدبوغ كان البائع قد طلب عليها خمسة وعشرين روبلاً. وقد نظر البائع إلى بوليكي، ولسبب ما لم يصدق بأنه قادر على شرائها.

إلا أن بوليكي أشار إلى ما في طية صدره، قائلاً إنه قادر على شراء كل ما في حانوته، إذا كان يريد، وطلب بأن يقيس الفروة، ودعكها بيده، وهزها، ونفخ على صوفها، بل وتشبع برائحتها، وأخيراً خلعها في حسرة، وقال: «سعر غير ملائم، فلو تنازلت عن عشرة روبلات تقريباً». ألقى التاجر الفروة عبر المنضدة غاضباً، وخرج بوليكي، واتجه إلى مكان إقامته مرح النفس. تناول عشاءه وسقى برابان، وقدم له الشوفان، وانسل إلى سطح الموقد، وأخرج الظرف، وعاينه طويلاً، وسأل خادماً يعرف القراءة والكتابة، أن يقرأ له العنوان والكتابة على الظرف: «في طيه ألف وستمائة وسبعة عشر روبلاً من الأوراق النقدية». كان الظرف من ورق بسيط، وكانت الأختام من الشمع البني عليها رسم مرساة: ختم كبير في الوسط، وأربعة في الزوايا، وفي ناحية قطرة شمع. وقد تفحص ايليتش ودرس كل ذلك، بل تلمس حوافي الأوراق البارزة، وأحس بارتياح طفولي لأنه يعرف أن في حوزته هذه النقود. دس الظرف في شق قبعته، ووضع القبعة تحت رأسه، واستلقى، ولكنه حتى في الليل استيقظ عدة مرات، وتلمس الظرف. وكلما وجد الظرف في مكانه، خامره شعور لذيذ من يقينه بأن هو بوليكي المدموغ بالعار، والمستذل يحمل مثل هذه النقود، وسيوصلها بتأكيد أكثر مما لو يوصلها الوكيل نفسه.

-٨-

في حوالي منتصف الليل أيقظ طرق على الباب، وصياح رجال ريفيين شغيلة التاجر وبوليكي. كان هؤلاء المجندين الذين سيقوا من قرية بوكروفسكويه. وكانوا زهاء عشرة أشخاص: خوريوشكين،

وميتيوشكين، وإيليا (ابن أخي دوتلوف)، وبديلان، والعمدة، والعجوز دوتلوف، وسائقو العربات. كانت المسرجة تضيء البيت الخشبي، والطباخة نائمة على تخت تحت الأقونات. وثبت من مكانها، وأشعلت الشمعة. واستيقظ بوليكي أيضاً، وأطل من فوق الموقد، وراح يتمعن الرجال الداخلين. دخل الجميع، ورسموا علامة الصليب، وجلسوا على التخوت. وكانوا جميعاً هادئين تمام الهدوء، حتى كان من المستحيل معرفة من الذاهب منهم إلى الجندية ومن الموصل.

سلموا، وتكلموا، ورجوا أن يتبلغوا بشيء من الطعام. حقاً إن بعضهم كان صموتاً حزيناً، بينما البعض الآخر كان مرحاً بشكل غير اعتيادي، والظاهر أنه قد احتسى بعض الخمرة. ومن هؤلاء كان ايليا الذي لم يشرب من قبل أبداً.

سأل العمدة:

ـ هل سنتعشى يا شباب، أم نأوي للنوم؟

ـ نتعشى ـ أجاب إيليا، وبسط فروته، بعد أن جلس على التخت. ـ اطلب فودكا.

ـ كفى فودكا ـ أجاب العمدة بسرعة، وخاطب الآخرين من جديد ـ إذن، كلوا شيئاً من الخبز، يا شباب. فلماذا نوقظ الناس؟

ـ فودكا ـ كرر إيليا، دون أن ينظر إلى أحد، وبصوت نم على أنه سيصر طويلاً.

أطاع الرجال نصيحة العمدة، وأخرجوا من العربات خبزاً، وأكلوا، وطلبوا شيئاً من الكفاس*، واستلقواليناموا بعضهم على الأرض، والبعض الآخر على سطح الموقد.

---

* مشروب غير كحولي من خبز الشعير ـ المترجم.

وظل إيليا يكرر من حين لآخر: «قدموا الفودكا، هيا، قدموا الفودكا»، وفجأة وقع بصره على بوليكي.

ـ ايليتش، يا ايليتش. أنت هنا، يا صديقي المؤدب؟ وأنا ذاهب إلى الجندية. ودعت إلى الأبد أمي وزوجتي... وكم بكت وأعولت! أبعدوني إلى الجندية. اوص على فودكا لي.

أجاب بوليكي:

ـ ليس لدي نقود ـ ثم أضاف، وهو يهدئه ـ عسى الله أن ينجيك من حلق القفا*.

ـ لا، يا أخ، أنا نظيف كشجرة بتولا، ولم أر علة تكلكل علي. فأي علة بي؟ سوف لا يجد القيصر جنوداً أكثر عافية مني.

أخذ بوليكي يقص حكاية شخص أعطى نقوداً للطبيب فأعفاه من الخدمة.

تحرك إيليا نحو الموقد، وأنشأ يقول:

ـ لا، لا ايليتش، انتهى الأمر الآن، وأنا نفسي لا أريد أن أبقى. أقصاني عمي. فهل من المعقول أننا لم نكن قادرين على أن ندفع لبديل عني؟ لا، ولكنه مشفق على ابنه، ومشفق على نقوده.

فهم يتخلون عني... والآن أنا نفسي لا أريد (كان يتكلم بخفوت، وائتمان، تحت تأثير حزن هادئ)، وأنا لا أشفق إلا على أمي العزيزة، فكم بكت وانتحبت! وزوجتي أيضاً، أسلموها للموت لغير سبب، والآن ستهلك، زوجة الجندي هذه. كان الأحرى بهم ألا يزوجوني. فلماذا زوجوني؟ ستأتيان غداً.

---

* كان يجري حلق الأقفاء الذين كانوا غير صالحين للخدمة العسكرية بسبب علة ما ـ المترجم .

فسأل بوليكي:

ـ حقاً، لماذا أخذوكم في هذا الوقت المبكر؟ لا ذكر لشيء، وفجأة...

ـ يخافون أن أفعل بنفسي شيئاً ـ قال ايليوشكا مبتسماً ـ ولكن لا اظن أنني سأفعل شيئاً. لن أضيع حتى في الجندية، سوى أنني أشفق على أمي. لماذا زوجوني؟

كان يقول ذلك بخفوت وأسى.

وفتح الباب، وصفق بقوة، ودخل العجوز دوتلوف، ونفض قبعته. وكان في خفيه الضخمين دائماً يبدو وكأنه ينتعل قاربين.

ـ أفاناسي ـ قال مخاطباً الخادم، ورسم علامة الصليب. ـ ألا يوجد فانوس نستنير به لنشر الشوفان؟

لم ينظر دوتلوف إلى إيليا، وأخذ يشعل بقية الشمعة بهدوء. كان يحشر قفازيه وسوطه وراء حزامه، وقد تنطق قفطانه بعناية، وكأنه قد جاء مع قافلة عربات، وكان وجهه الكادح بسيطاً عادياً وديعاً ومثقلاً بالمشاغل الاقتصادية.

صمت إيليا حين رأى عمه، وعاد فأنزل بصره بجهامة نحو التخت، وقال وهو يخاطب العمدة:

ـ هات فودكا يا يرميلا، فأنا راغب في شرب خمرة.

كان صوته محنقاً موحشاً.

ـ أيه خمرة الآن ـ أجاب العمدة، وهو يأكل من صحنه ـ أنت ترى الناس قد أكلوا، واستلقوا ليناموا، فلماذا تثور؟

والظاهر أن كلمة «تثور» مدته بفكرتها.

ـ يا عمدة، سأقوم بعمل منكر، إذا لم تقدم لي الفودكا.

ـ على الأقل لو تعيده إلى رشده ـ خاطب العمدة بذلك دوتلوف الذي كان قد أشعل الفانوس، إلا أنه توقف، على ما يظهر، ليسمع ما سيكون بعد، ونظر إلى ابن أخيه من مؤخر عينه بمواساة، وكأنما ذاهل من رعونته.

أطرق إيليا رأسه، ثم عاد فقال:

ـ أعطني فودكا، وإلا فعلت منكراً.

ـ كفى، إيليا ـ قال العمدة باقتضاب ـ الأفضل أن تكف.

ولكن ما كاد يتم نطق هذه الكلمات، حتى وثب إيليا، وضرب بقبضته الزجاج، وصرخ بأعلى صوته:

ـ لا تريدون أن تصغوا، فهاكم!

واندفع إلى النافذة الأخرى ليحطم زجاجها.

وفي لمحة عين تدحرج ايليتش مرتين، واختفى في ركن الموقد، حتى أفزع جميع الصراصير. ألقى العمدة الملعقة، وهرع نحو إيليا. وضع دوتلوف الفانوس ببطء، وحل حزامه، متلمظاً بلسانه، وهز رأسه، وتقدم من إيليا، الذي كان يصارع العمدة والخادم اللذين كانا يصدانه عن النافذة. وقد أمسكا به من يديه، وقبضا عليه بقوة، ولكن ما أن رأى إيليا عمه يمسك حزامه حتى تضاعفت قوته عشرة مرات، فانتزع نفسه، وتقلبت مقلتاه، وتقدم من دوتلوف وقبضته مضمونة.

ـ لا تتقدم، سأقتلك، يا همجي! أهلكتني، أنت وابناك المحتالان، أنت أهلكتني، لماذا زوجتموني؟ لا تتقدم، سأقتلك!

كان ايليوشكا رهيب المنظر، كان وجهه قرمزياً، وعيناه لا تستقران على حال، وكان جسده الفتي المعافى يرتعش كله، وكأنما من قشعريرة حمى.

وكان، على ما يبدو، يريد ويقدر على قتل الرجال الثلاثة الهاجمين عليه.

ـ تشرب دم أخيك، يا شارب الدم!

التمع شيء في وجه دوتلوف الهادئ دائماً. وتقدم خطوة إلى الأمام.

ـ لا تريد بالحسنى ـ قال ذلك وأمسك ابن أخيه بحركة سريعة، وبقوة مفاجئة لا أحد يعرف من أين أتى بها، وأسقطه بجسمه أرضاً، ولوى ذراعيه بمساعدة العمدة. وتصارعوا زهاء خمس دقائق، وأخيراً نهض دوتلوف بمساعدة الرجلين، منتزعاً من فروته يدي ايليا المتشبثتين بها ـ نهض، ثم أنهض إيليا الموثوق اليدين وراء ظهره، وأجلسه في زاوية على التخت.

ـ كنت أقول ستكون الحال أسوأ ـ قال وهو ما يزال يلهث من الصراع، معدلاً حزام ردائه ـ لماذا ترتكب معصية؟ كلنا سنموت. ضع الجبة تحت رأسه ـ أضاف مخاطباً الخادم ـ وإلا فسيصعد الدم إلى رأسه. ـ وتناول هو الفانوس، وتحزم بحبل، وخرج ثانية إلى الخيول.

أجال إيليا بصره في الغرفة وكأنه يجاهد أن يتذكر أين هو. كان ملتبك الشعر، ممتقع الوجه، مقلوب القميص. جمع الخادم شظايا الزجاج، وسد النافذة بفروة منعاً لنفاذ الريح. وجلس العمدة ثانية إلى صحنه.

ـ آه، يا إيليوخا، يا إيليوخا! أنا متأسف عليك، حقاً. ولكن ما في اليد حيلة! ها هو خوريوشكين، متزوج أيضاً. لا مجال لتفادي ذلك، على ما يبدو.

ـ أهلك من جراء الشرير عمي ـ كرر إيليا بغيظ شديد.

ـ إنه يخاف على ابنه... قالت لي أمي إن الوكيل أمر بأن يدفع

لبديل عني... ولكنه لا يريد. يقول: ليس عندنا نقود. وهل جلبت أنا وأخي القليل إلى بيته؟.. إنه لئيم، والله العظيم!...

دخل دوتلوف البيت، وصلى للأيقونات، وخلع ملابسه، وجلس إلى العمدة. قدمت له العاملة مقداراً آخر من الكفاس، وملعقة. لزم إيليا الصمت، واستلقى على الجبة، مغمضاً عينيه. أومأ العمدة نحوه صامتاً، وهز رأسه. لوح دوتلوف بذراعه.

ـ وهل يعقل أنني لا آسف عليه؟ ابن شقيقي. رغم أنني متأسف عليه فجعلوني أمامه لئيماً. أدخلت زوجته في رأسه، وهي امرأة ماكرة، ولو أنها شابة، أن لنا منْ النقود ما يمكننا أن ندفع لبديل له. وها هو يوبخني. بينما مشفق على الشاب هذا.

قال العمدة:

ـ آوه، شاب طيب.

ـ لم تعد لي قوة عليه. غداً سأرسل ايغنات، كما أن زوجته كانت تريد أن تأتي.

ـ حسناً، أرسله ـ قال العمدة، ونهض، وانسل إلى سطح الموقد ـ وما الفلوس؟ الفلوس شر.

ـ ومن سيضن بها، إذا كانت موجودة؟ ـ قال شغيل التاجر. رافعاً رأسه.

فرد دوتلوف قائلاً:

ـ آه، الفلوس، الفلوس! أصل الكثير من البلاء. فيها من الإثم أكثر مما في أي شيء آخر في الدنيا، كما جاء في الكتاب المقدس.

قال الخادم:

ـ كل شيء جاء فيه. ذات مرة قال لي شخص إن أحد التجار جمع فلوساً كثيرة، ولم يرد أن يبقي شيئاً بعده. وكان يحب فلوسه حباً جماً حتى إنه أخذها في تابوته. عندما حضرته الوفاة أوصى فقط بأن توضع وسادته في تابوته. ولم يحدسوا السبب.

وفيما بعد أخذ أولاده يبحثون عن فلوسه. وحدس واحد منهم أن الفلوس لا بد أن تكون في الوسادة. وبلغ الأمر إلى القيصر، فسمح بنبشه. وماذا تتصور؟ فتحوا التابوت، ولم يجدوا إلا الديدان تملأ التابوت. فطمروه ثانية. هذا ما فعلته الفلوس.

قال دوتلوف:

ـ هذا معلوم. إثم كثير.

ونهض، وأخذ يصلي للرب.

ولما انتهى من صلاته نظر إلى ابن أخيه. كان هذا نائماً.

دنا منه، وفك حزامه، واستلقى. وذهب رجل آخر لينام على مقربة من الخيول.

ـ ٩ ـ

ما إن هدأ كل شيء، حتى انسل بوليكي كمن أذنب، وأخذ يجمع حاجياته. فقد أحس، لسبب ما، بالرهبة في أن ينام مع المجندين. كان صياح الديكة يتردد أكثر فأكثر. وكان براباان قد التهم كل شوفانه، وانجذب إلى المسقى. شده ايليتش إلى العربة، وخرج مجتازاً عربات الريفيين من قريته. كانت قبعته مع محتوياتها سالمة، وعادت عجلات العربة الصغيرة تدق على طريق بوكروفسكايا المتجمد. ولم يشعر

بوليكي بالراحة، إلا بعد أن غادر المدينة. وإلا فقد كان يخيل إليه دائماً، ولسبب ما، أنه يسمع من يطارده من الخلف، وسيوقفه، فتلوى يداه إلى الخلف، بدلاً من إيليا، ويساق غداً إلى الجيش. فكانت القشعريرة تسري في ظهره إما من البرد أو من الفزع، فكان لا يفتأ يستحث برابان.

كان أول من التقى به قس يرتدي قبعة شتائية عالية، يصحبه شغيل أعرج. وتطير بوليكي وازداد رهبة. إلا أن هذا الخوف قد زايله قليلاً بعد خروجه من المدينة. سار برابان بتؤدة، ولاح الطريق أكثر وضوحاً إلى الأمام. خلع ايليتش قبعته، وتلمس النقود. وقال لنفسه: «هل أضعها في طية صدري؟ ولكن سيتعين علي أن أفك حزامي. عندما سأهبط هذا المنحدر، سأنزل من العربة، وأصلح من هندامي. القبعة مخاطة بأحكام من الأعلى، ولا يمكن أن تخرج الفلوس من الأسفل، من تحت البطانة. وأنا لن أخلع القبعة حتى أصل إلى البيت». هبط برابان المنحدر، وصعد في التل في حركة تلقائية دافعة، ولم يعقه بوليكي عن ذلك، لأنه كان مثله متشوقاً إلى الوصول إلى البيت في أقرب وقت. وكان كل شيء على ما يرام، أو هذا ما تخيله، على أقل تقدير، فغرق في أحلامه عن امتنان السيدة له، وعن الروبلات الخمسة التي ستقدمها له، وعن فرحة أفراد عائلته. خلع قبعته، وتلمس الرسالة مرة أخرى، وحشر القبعة في رأسه أعمق من ذي قبل، وابتسم.

كان مخمل القبعة قد تهرأ، ولأن أكولينا في عشية السفر خاطته بعناية في الموضع الممزق، فقد انفتق في طرف آخر، وبسبب حركة بوليكي، إذ خلع القبعة، وفكر في الظلام في أن يدس الرسالة المحتوية

على النقود في مكان أعمق تحت البطانة، فإن هذه الحركة نفسها قد فتقت القبعة، وأخرجت طرف الظرف من تحت المخمل.

أخذت الدنيا تتنور، وراح بوليكي يهوم في سنة من نوم، بعد أن سهر الليل كله. دفع القبعة أوطأ، وبهذه الحركة طلعت الرسالة أكثر. وفي تهويمته راح يضرب رأسه في حافة العربة. ولم يستيقظ إلا قرب القرية. وكان أول ما فعله أن أمسك بالقبعة.

كانت تتربع على رأسه بقوة، فلم يخلعها، واثقاً من أن الظرف في داخلها. جذب عنان برابان، وعدل الدريس، واتخذ هيئة صاحب حال مرة أخرى، وأجال بصره فيما حوله بعظمة، وانطلق نحو البيت.

هذا هو المطبخ، وهذا «الجناح»، وهذه زوجة النجار تحمل الخيش، وهذه إدارة القرية، وهذا بيت السيدة، حيث سيظهر بوليكي بعد لحظة أنه إنسان نزيه مؤتمن وأن «في الإمكان تلطيخ سمعة أي إنسان». ستقول السيدة «شكراً، يا بوليكي، هذه ثلاثة روبلات لك». ولربما خمسة، بل وعشرة، وتأمر أيضاً بأن يجلب الشاي له، ولربما شيء من الفودكا. لا بأس بها في البرد.

وبعشرة روبلات يمكن أن يمرح في العيد، ويشتري حذاء، ولعله سيرد لنيكيتا أربعة روبلات ونصفاً، فإن هذا الرجل صار يلح بالطلب... وقبل حوالي مائة خطوة من البيت، التف بوليكي بفروته مرة أخرى، وعدل حزامه والقلادة، وخلع القبعة، وصفف شعره، ومد يده تحت البطانة في غير ما عجلة. وجاست يده في القبعة أسرع فأسرع، واندست الأخرى فيها، وشحب وجهه، وازداد شحوباً، وخرجت يده من الطرف الآخر. قفز بوليكي على ركبتيه، وأوقف الحصان، وراح يجيل بصره في العربة،

والدريس، والمشتريات، وتلمس طية صدره، والسروال، ولا وجود للفلوس في أي مكان.

- يا قديسون! ما هذا ؟ أي هول! - زعق جاذباً شعره.

ولكنه تذكر أن الناس قد يرونه على هذه الحال، فاستدار بالحصان، ودفع قبعته، وأطلق برابان الذاهل المتضايق عائداً به إلى الطريق.

ولعل برابان كان يقول في نفسه: «لا أحتمل السفر مع بوليكي. مرة واحدة في حياتي أطعمني وسقاني في أوانه، لمجرد أن يخدعني بطريقة غير لطيفة. وكم سعيت لأن أعود إلى البيت! وتعبت! وما كادت رائحة التبن تفوح، حتى عاد بي القهقرى».

آه، أيها الحصان الشائخ، يا ملعون! - صاح بوليكي من خلال الدمع، وقد نهض بقامته على العربة، جاذباً فم برابان بالعنانين، سائطاً إياه بسوطه.

- ١٠ -

طوال هذا اليوم كله لم يشاهد بوليكي أحد في بوكروفسكويه.

سألت السيدة عدة مرات بعد الغداء، وهرعت أكسيوتكا إلى أكولينا، إلا أن أكولينا كانت تقول: إنه لم يصل بعد، وأن التاجر قد أخره، على ما يبدو، أو حصل شيء للحصان: وكانت تقول: «لعله صار يعرج؟ في المرة السابقة سار به مكسيم يوماً بطوله فقطع الطريق كله مشياً على الأقدام». فكانت أكسيوتكا تدير بندوليها عائدة إلى البيت، بينما كانت أكولينا تقلب في ذهنها أسباب تأخر زوجها، وتحاول أن تهدئ نفسها، ولكن دون نجاح!

كانت تشعر بثقل في قلبها، ولم يستقم في يديها أي عمل للعيد بعينها «شخصاً يشبه ايليتش تماماً، وصل إلى الشارع الرئيسي، في الغد. لا سيما وقد عذبها تأكيد زوجة النجار لها بأنها رأته ثم استدار عائداً، كما أن الأطفال انتظروا أباهم بقلق ونفاذ صبر، ولكن لأسباب أخرى. فإن أنيوتكا وماشكا حرمتا من الفروة والجبة اللتين كانت توفر لهما إمكانية الخروج إلى الشارع، بالتناوب على الأقل، فاضطرتا إلى البقاء قرب البيت فقط، وليس عليهما غير ثوبيهما وإلى ركض بالدوران بسرعة مشددة، فكانتا بذلك تضايقان كثيراً جميع قاطني الجناح الداخلين والخارجين. ومرة انقذفت ماشكا على رجلي زوجة النجار، وكانت هذه تحمل ماء، ورغم أنها أخذت تعول مقدماً، بعد اصطدامها بركبتيها، إلا أنها ضربت جزاء على اندفاعها، فزادت من عويلها. وحين لم تكن تصطدم بأحد، كانت تدفع إلى الباب، وتتسلق إلى الموقد بعد أن تصعد على برميل صغير. والسيدة وأكولينا وحدهما كانتا قلقتين على بوليكي بالذات، أما الأطفال فعلى ما يرتديه من ثياب. بينما ابتسم يغور ميخائيلوفيتش، حين سألته السيدة أثناء مقابلته «هل وصل بوليكي، وأين يمكن أن يكون؟» وأجابها قائلاً: «لا أستطيع أن أعرف»، وكان راضياً على ما يظهر، على أن ما كان يتوقعه قد تحقق. وقال بمغزى: «كان يجب أن يصل قبيل وقت الغداء».

وطوال هذا اليوم لم يعرف أحد في بوكروفسكويه شيئاً عن بوليكي، وفيما بعد فقط عرف أن جيرانه قد شاهدوه يركض في الطريق حاسر الرأس ويسأل «ألم تجدوا رسالة؟». ورآه رجل آخر نائماً على حافة الطريق قرب الحصان المربوط مع العربة. وكان هذا الرجل يقول: «ثم

فكرت في أنه سكران، والحصان لم يأكل ولم يشرب حوالي يومين، لانخساف جنبيه». ولم تنم أكولينا الليل كله، مرهفة سمعها طوال الوقت، وإلا أن بوليكي لم يصل حتى في الليل. ولو كانت وحدها، وكان عندها الطباخ والخادمة لكانت أكثر تعاسة، ولكن ما كادت تصيح الديكة للمرة الثالثة حتى نهضت زوجة النجار. وكان على أكولينا أن تنهض، وتنشغل في الموقد، وكان اليوم عيداً، وكان يجب إعداد الخبز، وتحضير الكفاس، وتحميص الفطائر، وحلب البقرة، وكي الثياب، والقمصان، وغسل الأطفال، وجلب الماء، وإعاقة الجارة عن إشغال الموقد كله. وأخذت أكولينا تمارس هذه الأعمال، دون أن تكف عن إرهاف السمع.

وبزغ الفجر، ودقت أجراس الكنيسة للقداس، ونهض الأطفال، وما يزال بوليكي غائباً. وفي عشية البارحة نزل أول الثلج، وتبقع الحقل والطريق والسطوح بالثلج، واليوم، وكأنما إكراماً للعيد، كان النهار جميلاً مشمساً، قارساً جافاً، حتى كان مجال السمع والبصر يمتد بعيداً. ولكن أكولينا وهي واقفة عند الموقد، مادة رأسها في فتحته، منشغلة بتحميص أرغفة الخبز، لم تسمع كيف تقدم بوليكي، ولم تعرف بوصول زوجها إلا من صياح الأطفال.

وكانت أنيوتكا، باعتبارها الكبرى، قد دهنت شعرها، ولبست ثيابها بنفسها. كانت ترتدي ثوباً وردياً من النسيج القطني الخشن ولكنه مدعوك، هو هدية من السيدة، كان متصلباً عليها كالجبيرة، وكالشوكة في عيون الجيران. وكان شعرها يبرق، فقد دهنته بنصف عقب شمعة، وكان حذاؤها ناعماً، رغم أنه غير جديد.

وكانت ماشكا ما تزال في البلوزة، وعلى وسخها، فكانت أنيوتكا لا تسمح بالاقتراب منها، مخافة أن تلوثها. كانت ماشكا في الفناء، حين وصل أبوها، يحمل كيساً. ورتنت ماشكا قائلة: «بابا وسل» واندفعت بسرعة إلى الباب مارة بانيوتكا، ولوثتها. ولم تعد أنيوتكا تخاف من تلويث ثوبها، وضربت ماشكا، ولم تستطع أكولينا أن تترك ما بين يديها من عمل. فاكتفت بأن صاحت بالأطفال: «كفاكم! سأضربكم جميعاً!» ونظرت إلى الباب. كان ايليتش قد دخل الرواق، ومعه كيس، وصعد إلى ركنه في الحال. بدا لأكولينا أنه كان ممتقعاً، وعلى وجهه أثر بكاء أو ابتسامة، ولكن لم يكن لها الوقت لتتأكد من ذلك.

سألت، وهي عند الموقد:

ـ كل شيء بخير، يا ايليتش؟

تمتم ايليتش بشيء لم تفهمه. فصاحت:

ـ ها؟ هل قابلت السيدة؟

جلس ايليتش على السرير في ركنه، مجيلاً بصره فيما حوله كالمتوحش، وابتسم ابتسامته الموغلة في البؤس. وظل وقتاً طويلاً دون أن يجيب.

وصدر صوت أكولينا:

ـ ها، ايليتش؟ لماذا تأخرت؟

ـ أكولينا، أعطيت النقود إلى السيدة، فشكرتني كثيراً. ـ قال فجأة، وأجال بصره بقلق أشد، وراح يبتسم. وتوقفت عيناه القلقتان المفتوحتان كالمحمومتين على شيئين بشكل خاص: على الحبل الذي ربط

المهد به، وعلى الطفل. تقدم من المهد، وأخذ يفك عقدة الحبل في عجالة بأصابعه النحيلة. ثم توقفت عيناه على الطفل، إلا أن أكولينا قد دخلت الركن في تلك اللحظة، والفطائر على اللوحة الخشبية. خبأ ايليتش الحبل في طية صدره بسرعة، وجلس على السرير.

قالت أكولينا:

- ماذا بك، يا ايليتش، كأنك في غير أطوارك؟

أجاب:

- لم أنم.

وفجأة تراءى شيء وراء النافذة، وبعد لحظة اندفعت كالسهم اكسيوتكا الفتاة من العالي، وقالت:

- أمرت السيدة بأن يحضر بوليكي ايليتش في هذه اللحظة. أمرت أفدوتيا ميكولافنا في هذه اللحظة... في هذه اللحظة.

نظر بوليكي إلى أكولينا، وإلى الفتاة.

- حالاً! وماذا بعد؟ - قال ببساطة شديدة حتى إن أكولينا اطمأنت. فلعل السيدة تريد مكافأته. - قولي، سآتي حالاً.

ونهض، وخرج. بينما تناولت أكولينا الطست، وسكبت فيه الماء من جرادل عند الباب، ومن قدر الماء الساخن على الموقد، وطوت كميها، وتحسست حرارة الماء.

- تعالي، يا ماشكا، سأغسلك.

أخذت الصبية الغاضبة الراتنة تزعق.

- تعالي، يا وسخة، سألبسك ثوباً نظيفاً. تعالي حالاً، علي أن أغسل أختك أيضاً.

وفي غضون ذلك ذهب بوليكي لا في أثر الفتاة من العالي، إلى السيدة، بل إلى مكان آخر تماماً. كان ثمة في الرواق، عند الحائط، درج يؤدي إلى العلية. خرج بوليكي إلى الرواق، وتلفت فيما حوله، وإذ لم ير أحداً، أحنى قامته، وصعد هذا الدرج بخفة وسرعة أشبه بالركض.

ـ ما معنى أن بوليكي لا يأتي ـ قالت السيدة نافدة الصبر، مخاطبة دونياشا التي كانت تمشط لها شعرها ـ أين بوليكي؟

ولماذا لا يأتي؟

هرعت أكسيوتكا إلى حوش الخدم مرة أخرى، ودخلت الرواق، وطالبت بأن يأتي بوليكي إلى السيدة.

ـ ولكنه خرج منذ وقت طويل. ـ أجابت أكولينا، وكانت قد فرغت من غسل ماشكا، ووضعت، في تلك اللحظة، ابنها الرضيع في الطست، وراحت تسكب الماء على شعره الخفيف، رغم زعيقه. كان الطفل يصرخ، ويعكنن وجهه، محاولاً أن يمسك شيئاً بيديه الصغيرتين العاجزتين. أسندت أكولينا بيد واحدة ظهره اللين المحفر كله بالنقر الصغيرة، وباليد الأخرى صارت تغسله.

قالت، وهي تدير بصرها في قلق:

ـ لعله غفا في مكان.

كانت زوجة النجار، في هذه الأثناء، قد دخلت العلية مغلولة الشعر، مكشوفة الصدر، ممسكة بتنورتها لتجلب ثوبها الذي نشرته هناك ليجف. فإذا بصيحة فزع تصدر من العلية، وإذا بزوجة النجار تهبط الدرج، كالمخبولة، مغمضة العينين، تحبو على الأربع ناكصة على عقبيها، أقرب إلى التدحرج منه إلى الركض. وصاحت:

ـ ايليتش!

أطلقت أكولينا الطفل من يديها.

صرخت زوجة النجار:

ـ شنق نفسه!

خرجت أكولينا راكضة إلى الرواق، دون أن تلحظ كيف تدحرج الطفل كالشلة الصغيرة، وانطرح على ظهره، ولوى رجليه، وغطس برأسه في الماء.

ـ متدل... على الرافدة. ـ كانت زوجة النجار تقول، ولكنها توقفت حين رأت أكولينا.

اندفعت أكولينا إلى الدرج، وصعدته قبل أن يتسنى للناس أن يمسكوها، وانهبدت عليه، ولو لم يستطع إسنادها الذين تراكضوا من مختلف الأركان بأقصى قوتهم لسقطت منه، وتهشمت.

ـ ١١ ـ

ولبضع دقائق ما كان من الممكن معرفة شيء من الهرج العام.

تقاطر خلق كثير، وكان الجميع يصرخون ويتكلمون، والأطفال والعجائز يبكون. وانطرحت أكولينا فاقدة الوعي. وأخيراً صعد إلى فوق رجال والنجار والوكيل الذي جاء راكضاً، بينما حكت زوجة النجار للمرة العشرين كيف أنها «ذهبت لتجلب الطرحة، وفكرها خال من كل شيء، وعاينت هكذا، فإذا بي أرى رجلاً واقفاً. وأنظر، فأرى قبعة مقلوبة على البطانة بالقرب منه، وأعاين، فأرى رجليه تتأرجحان. فسرت بي برودة شديدة. ليس من السهل علي أن أرى إنساناً شنق نفسه. وأخطف رجلي

إلى الأسفل، وأنا لا أعي شيئاً. نجاني الله بمعجزة. رحمني الرب حقاً. فظاعة! من عالي الدرج إلى منحدره الشديد! من الممكن أن أسقط وأفارق الحياة».

والذين صعدوا إلى فوق قصوا نفس الحكاية. ايليتش معلق على رافدة وليس عليه غير قميصه والسروال، مشنوق بنفس الحبل الذي فكه من المهد. وقبعته مقلوبة البطانة مطروحة إلى جانبه، وجبته وفروته قد خلعتا، وطويت بعناية على مقربة منه.

كانت قدماه تصلان إلى الأرض، ولكن لا وجود لعلائم الحياة عليه. أفاقت أكولينا على نفسها، واندفعت ثانية إلى الدرج، ولكنها منعت من ذلك. وفجأة رتنت الفتاة من الركن بصوتها النحيل:

ـ مامي، سيمكا شهق بالماء.

حررت أكولينا نفسها ثانية، وركضت إلى ركنها. كان الطفل منطرحاً في الطست جامداً ورجلاه لا تتحركان. اختطفته أكولينا، ولكن الطفل لم يتنفس، ولم يبد حركة، ألقته أكولينا على السرير، واستندت على يديها، وأرسلت قهقهة عالية رنانة رهيبة، حتى إن ماشكا ضحكت في البداية أيضاً، ثم ضغطت على أذنيها، وخرجت راكضة إلى الفناء باكية. انثال الناس على الركن معولين باكين. وأخرجوا الطفل، وأخذوا يفركونه، ولكن كل شيء كان بلا جدوى.

كانت أكولينا تتقلب على السرير ضاحكة ضحكاً أفزع كل من سمعه.

والآن فقط كان من الممكن للمرء، بعد أن رأى هذا الخليط الحاشد من المتزوجين والشيوخ والأطفال المتجمهرين في الرواق، أن يدرك أي خلق كثير وأي أناس كانوا يعيشون في جناح الخدم.

كان الجميع يروحون ويجيئون، والجميع يتكلمون، والكثيرون يبكون، ولا أحد يفعل شيئاً. وكانت زوجة النجار ما تزال تجد من لم يسمع حكايتها، فتعود تقص كيف أن عواطفها الرقيقة قد شلها المشهد غير المتوقع، وكيف أن الرب نجاها من السقوط من الدرج.

وكان الطباخ العجوز الضئيل في بلوزة نسائية يحكي كيف غرقت امرأة في البركة في عهد السيد الراحل. أرسل الوكيل رسولين إلى مأمور الشرطة وإلى القس، وأقام حراسة. وكانت الفتاة من العالي أكسيوتكا لا تفتأ تنظر بعينين جاحظتين من الرعب إلى العلية من خلال ثقب، ورغم أنها لم تكن ترى شيئاً، لم تستطع أن تنتزع بصرها وتعود إلى السيدة. وكانت أغافيا ميخائيلوفنا، الوصيفة السابقة للسيدة القديمة تبكي وتطلب شاياً لتهدئة أعصابها. وكانت الجدة آنا قد سجت الفقيد الصغير على المنضدة الصغيرة بيديها العمليتين المنفوختين المشبعتين بزيت المصباح.

وكانت النسوة واقفات بالقرب من أكولينا، ينظرن إليها صامتات. وكان الأطفال المنكمشون في الأركان ينظرون إلى أمهم، ويأخذون بالزعيق، ثم لاذوا بالصمت، ثم عادوا فنظروا، وازدادوا انكماشاً.

وكان الصبيان والريفيون يتجمهرون عند المدخل، ينظرون بوجوههم المذعورة في الأبواب والنوافذ، دون أن يروا ولا يفهموا شيئاً، ويسأل بعضهم بعضاً ما الخبر. فكان أحدهم يقول إن النجار بتر قدم زوجته بالفأس، ويقول الآخر إن الغسالة ولدت توائم ثلاثة، ويقول الثالث إن قطة الطباخ هاجت، وراحت تعض الناس. إلا أن الحقيقة شاعت شيئاً فشيئاً، حتى بلغت السيدة أخيراً. والظاهر أنهم لم يستطيعوا حتى

تهيئتها للخبر. فإن يغور ألفظ أبلغها إياه بدون تمهيد، وبذلك أثار أعصابها، حتى إنها، بعد ذلك، ظلت وقتاً طويلاً دون أن تتمالك نفسها. وكان جمع الناس قد أخذ يهدأ، وأشعلت زوجة النجار السماور، وأعدت الشاي، أما الغرباء فرأوا من غير اللائق البقاء أكثر، وهم لم يدعوا وانصرفوا. وأخذ الصبيان يتعاركون عند المدخل. عرف الجميع حقيقة الأمر، أخيراً، فكانوا يرسمون علامة الصليب، وينصرفون. وفجأة ترددت أصوات: «السيدة، السيدة!» فعادوا، فتجمهروا، وانكمشوا ليفسحوا لها الطريق، ولكن الجميع كانوا يريدون أيضاً أن يروا ما ستفعل.

دخلت السيدة الرواق شاحبة وعلى وجهها أثر بكاء، ودلفت إلى ركن أكولينا. انحشرت عشرات الرؤوس تنظر عند الباب، وانحصرت امرأة حبلى بشدة، حتى صاحت مستغيثة، ولكنها سرعان ما استغلت ما هي عليه وانفكاك الناس عنها لتكسب لنفسها مكاناً إلى الأمام. وكيف تفوت رؤية السيدة في ركن أكولينا! إن ذلك، بالنسبة للخدم، كالضوء من الألعاب النارية في نهاية العرض، سواء بسواء. يعني مثلما يطيب لك أن يشعل الضوء من الألعاب النارية، يطيب لك أيضاً أن ترى السيدة في حريرها ومخرماتها تدخل على أكولينا في ركنها. أقبلت السيدة على أكولينا، وأمسكت يدها، إلا أن أكولينا انتزعتها. وهز الخدم العجائز رؤوسهم استياء.

وقالت السيدة:

- أكولينا، عندك أطفال. فارحمي نفسك.

أخذت أكولينا تضحك، ونهضت، وغمغمت:

ـ أطفالي كلهم قطع فضية، كلهم فضية... فأنا لا أحب النقود الورقية. نبهت ايليتش أن لا يأخذ الورقية. وها هم قد لطخوه بالقار. القار والصابون، يا مولاتي، يشفي كل بقع الجرب. وعادت تضحك بقوة أشد.

التفتت السيدة، وأوعزت بأن يحضر ممرض مع الخردل. «هاتوا ماءً بارداً»، وراحت تبحث عن الماء بنفسها، ولكن بصرها وقع على الطفل الميت والجدة آنا واقفة أمامه، فأشاحت وجهها، إلا أن الجميع رأوها تحجب عينيها بمنديل، وتأخذ بالبكاء. غطت الجدة آنا الطفل بقطعة من الخيش (من المؤسف أنه لم تر السيدة ذلك، ولو رأته لقيمته. فقد فعلت العجوز كل ذلك من أجلها).

وعدلت يد الطفل الصغيرة بيدها الرخوة الماهرة، وهزت رأسها، ومطت شفتيها، وقلصت عينيها بتأثر، وتحسرت، وكل ذلك بشكل جعل في مقدور كل إنسان أن يرى ما لها من قلب كبير. إلا أن السيدة لم تر ذلك وما كان في وسعها أن ترى شيئاً. فقد انفجرت مجهشة، وانتابتها نوبة هستيرية. فأخرجوها إلى الرواق مسندين إياها من تحت إبطيها، وأوصلوها إلى بيتها بهذه الطريقة. وفكر كثيرون: «ما الفائدة منها»، وأخذوا ينصرفون. وظلت أكولينا تضحك وتهذر. فأخرجوها إلى حجرة أخرى، وحجموها، ووضعوا كمادات الخردل، والثلج على رأسها، إلا أنها ظلت لا تعي شيئاً، وتبكي، وتضحك، وتثرثر، وتأتي أشياء لم يستطع الناس الطيبون الذين كانوا يدارونها، أن يضبطوا أنفسهم معها فضحكوا أيضاً.

كان العيد في فناء بوكروفسكويه خالياً من المرح. لم يخرج الناس إلى التنزه، رغم جمال الطقس، ولم تجتمع الفتيات للغناء، ولم يعزف شبان المعامل القادمون من المدينة لا على الأكورديون، ولا على البلالايكا، ولم يمرحوا مع الفتيات. لزم الجميع الأركان، وإذا تكلموا ففي خفوت، وكأن أحداً سيئ الطوية كان من الممكن أن يسمع ما يقولونه. ومر النهار خفيف الأوزار. ولكن ما إن اغسوسق المساء، حتى أخذت الكلاب تنبح، وزاد الأمر سوءاً هبوب الريح، وعويلها في المداخن، وتملك جميع أهالي فناء الخدم فزع غامض، فمن كان له عقب شمعة أشعلها أمام الأيقونة، ومن كان وحيداً في ركنه ذهب إلى جيرانه يرجوهم أن يقضي الليلة في مكان أكثر ناساً، ومن كان عليه أن يخرج إلى زريبة الماشية لم يخرج، ولم يشفق على بقاء الماشية بلا علف في تلك الليلة.

واستنفد في تلك الليلة كل الماء المقدس الذي كان يحفظ في قارورة. بل إن الكثيرين سمعوا شخصاً ظل يسير في العلية بخطى ثقيلة طوال الوقت، ورأى الحداد عفريتاً يطير على العلية، وفرغ ركن بوليكي من أهله، فالأطفال والمجنونة نقلوا إلى أماكن أخرى، ولم يبق هناك غير الطفل الميت مسجى، وامرأتين عجوزين وجوالة تتلو المزامير، باجتهادها الخاص، لا على روح الميت، بل بمناسبة هذه الفاجعة كلها. وهذا ما أرادته السيدة. وقد سمعت العجوزان والجوالة بأنفسهن ما أن يتلى مقطع من المزامير حتى تهتز الرافدة في الأعلى، ويئن شخص. فيقرآن «قام الرب» بخمد ثانية، وكانت زوجة النجار قد دعت أمها بالمعمودية، وفي تلك الليلة، ودون أن تناما، شربتا كل الشاي الذي وفرته لكل أسبوع. وقد

سمعتا أيضاً قرقعة الروافد في الأعلى، وكأن أكياساً كانت تسقط عليها من عل. وكان الموجيك الذين لزموا الحراسة قد مدوا الخدم ببعض الشجاعة، وإلا لمات هؤلاء الخدم هلعاً في تلك الليلة. وكان الموجيك قد استلقوا على دريس في الرواق، ثم أكدوا، فيما بعد، بأنهم سمعوا أيضاً نفس العجائب في العلية، رغم أنهم قضوا الليلة نفسها يتحادثون فيما بينهم عن التجنيد بهدوء شامل، ويعلكون الخبز، ويحكون جلودهم، والأهم من ذلك أنهم ملأوا الرواق برائحتهم الموجيكية المتميزة، حتى إن زوجة النجار، حين مرت بهم، بصقت، وشتمتهم بالموجيك. ومهما يكن الذي حدث فإن المشنوق ظل متدلياً في العلية، وكأن الروح الشريرة نفسها خيمت في تلك الليلة بأجنحتها الضخمة على الجناح، مظهرة سلطانها، مقتربة من هؤلاء الناس اكثر من أي وقت آخر. وعلى أقل تقدير كان هذا شعور الجميع. ولا أعرف إن كان هذا إنصافاً.

بل يخامرني شعور بأنه ليس إنصافاً البتة. وأظن لو أن شخصاً جسوراً حمل، في تلك الليلة الرهيبة، شمعة، أو فانوساً، واحتمى وحتى لم يحتم بعلامة الصليب، ودخل العلية، دافعاً أمامه ببطء هلع الليلة بضوء شمعته، مضيئاً الروافد، والرمل، وأنبوب المدخنة المغطى بنسيج العنكبوت، والطرحات التي أغفلتها زوجة النجار، ووصل إلى ايليتش، وإذا ما رفع فانوسه إلى مستوى وجهه، دون أن يسحقه شعور الفزع، لرأى الجسد النحيف المألوف له، بقدميه الواقفتين على الأرض (فالحبل قد نزل) مائلاً إلى جنب بلا حياة، وقميصه محلول الياقة لا يظهر الصليب من تحته، والرأس المتدلي على الصدر، والوجه البادي الطيبة بعينيه المغمضتين غير المبصرتين، والابتسامة الدمثة المعبرة عن ذنب،

والسكينة الصارمة، والسكون المخيم على كل شيء والحق أن زوجة النجار، وهي منكمشة في زاوية سريرها محلولة الشعر، مذعورة العينين، تقص كيف أنها تسمع أكياساً تسقط هي أفظع بكثير وأرهب من ايليتش، رغم أن صليبه مخلوع وموضوع على رافدة.

في العالي، أي في بيت السيدة، كان يسيطر نفس الفزع المسيطر على جناح الخدم. كانت حجرة السيدة تفوح برائحة كولونيا ودواء. سخنت دونياشا شمعاً أصفر وقطرت مذابه. وأنا لا أعرف لأي غرض بالذات هذا الشمع المذاب، ولكنني أعرف أنه يجري دائماً، حين تمرض السيدة. وقد انهارت الآن أعصابها إلى حد المرض. وقد جاءت إلى دونياشا عمتها لتبيت عندها شداً للعزيمة. وقد جلسن أربعة في حجرة الوصيفات مع فتاة يتحدثن بخفوت. قالت دونياشا:

ـ من سيذهب لجلب الزيت؟

أجابت الفتاة الثانية بحزم:

ـ لن أفعل ذلك، مهما يكن من شيء، يا أفدوتيا ميكولافنا.

ـ اذهبي مع اكسيوتكا.

ـ أذهب وحدي، لا أخاف من شيء ـ قالت أكسيوتكا وشعرت بخوف فجأة.

ـ اذهبي، يا عاقلة، واطلبي من الجدة آنا أن تصب لك زيتاً في قدح، واجلبيه، ولا تطرطشيه. ـ قالت لها دونياشا.

رفعت أكسيوتكا طرف ثوبها بيد، ورغم أنه لم يكن في وسعها، بسبب ذلك، أن تأرجح كلتا ذراعيها، فقد أرجحت واحدة بقوة مزدوجة في عرض خط سيرها، وانطلقت لا تلوي على شيء. كانت تشعر بالفزع،

وتحس بأنها ستسقط من الهلع إذا ما رأت أو سمعت بأي شيء، حتى ولو كانت أمها حية. انطلقت الدرب المعروف مقلصة عينيها.

-١٣-

«السيدة نائمة أم لا؟» - سأل صوت رجالي فجأة قرب أكسيوتكا. فتحت الفتاة عينيها المتقلصتين من قبل، ورأت شبحاً، بدا لها أعلى من جناح الخدم؛ فأرسلت زعقة، وانطلقت عائدة، حتى إن تنورتها لم تستطع اللحاق بها في سرعتها. وبقفزة واحدة كانت على المدخل، وبقفزة أخرى كانت في حجرة الوصيفات، وبولولة وحشية ارتمت على الفراش. صعق الفزع دونياشا وعمتها والفتاة الأخرى، ولكن ما كدن يفقن على أنفسهن حتى سمعن خطوات ثقيلة بطيئة مترددة في الرواق، وعند الباب. هرعت دونياشا إلى السيدة، بعد أن أوقعت مذاب الشمع، واختبأت الوصيفة الثانية وراء تنورات كانت معلقة على الحائط، وأرادت العمة الأكثر تصميماً أن تمسك الباب، إلا أن الباب انفتح، ودخل رجل الحجرة. كان هذا الرجل هو دوتلوف في خفيه الضخمين كالقاربين. ودون أن يعير التفاتاً إلى فزع الفتيات، بحث بعينيه عن الأيقونة، ولما لم يجد الأيقونة الصغيرة المعلقة في الزاوية اليسرى، رسم علامة الصليب أمام دولاب صغير للأقداح، ووضع قبعته على نافذة، ودس يده عميقاً في فروته، وكأنه يريد أن يحك إبطه، وأخرج رسالة مختومة بخمسة أختام شمعية عليها صورة مرساة.

أمسكت عمة دونياشا صدرها... وحملت نفسها حملاً على أن تنطق:

ـ أفزعتني يا ناؤوميتش لا أستطيع أن... أنطق بكلمة. تصورت أن النهاية قد حلت.

ـ هل يجوز هذا؟ ـ تكلمت الفتاة الثانية، وهي تطلع من وراء التنورات.

وقالت دونياشا، خارجة من الباب:

ـ أفزعت السيدة أيضاً. كيف تندس إلى مدخل الفتيات بدون أن تستأذن؟ موجيك اعتيادي!

كرر دوتلوف، دون أن يعتذر، أنه يريد أن يقابل السيدة.

قالت دونياشا:

ـ عندها وعكة.

وفي تلك اللحظة انفجرت أكسيوتكا ضاحكة ضحكاً عالياً بشكل غير لائق، حتى إنها اضطرت ثانية أن تخفي رأسها في وسائد الفراش، حيث قضت ساعة كاملة لا تستطيع أن تخرجه من هناك دون أن تنفجر ضاحكة، رغم تهديدات دونياشا وعمتها، وكان شيئاً انبجس في صدرها الوردي وخديها الأحمرين. فقد استولت عليها نوبة من الضحك لأن الجميع انفزع، وها هي قد أخفت رأسها مرة أخرى، وشحطت بحذائها، كالمرعوصة، واهتزت بكل جسدها.

توقف دوتلوف، وتفرس فيها، وكأنما يريد أن يتيقن ما الذي يحدث لها، ولكنه استدار، دون أن يفهم جلي الأمر، وتابع كلامه قائلاً:

ـ يعني، هناك أمر مهم جداً. قولي فقط أن رجلاً من الموجيك وجد رسالة فيها فلوس.

ـ أية فلوس؟

وقبل أن تبلغ دونياشا، قرأت العنوان، واستفسرت من دوتلوف أين وجد هذه النقود التي كان على ايليتش أن يجلبها من المدينة. وبعد أن عرفت جميع التفاصيل، ودفعت إلى الرواق الفتاة الهاربة التي لم تكف عن ضحكها، ذهبت إلى السيدة، ولكن السيدة لم تستقبل دوتلوف، على أية حال، مما أثار دهشته، ولم تقل شيئاً مفهوماً لدونياشا.

ـ لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف ـ قالت السيدة ـ أي موجيك، وأي نقود. لا أستطيع ولا أريد أن أرى أحداً. وليتركني وشأني.

ـ ماذا سأفعل، إذن؟ ـ قال دوتلوف، وهو يقلب الظرف. ـ الفلوس غير قليلة. ماذا كتبت عليها؟ ـ سأل دونياشا، فقرأت له العنوان من جديد.

وبدا دوتلوف متشككاً في شيء ما، ففكر في احتمال أن تكون النقود غير عائدة للسيدة، وأن العنوان قد قرئ بشكل مغلوط. إلا أن دونياشا أكدت له ذلك مرة أخرى. فزفر، ووضع الظرف في طية صدره، واستعد للخروج. وقال:

ـ أسلمه لمأمور الشرطة، على ما يظهر.

ـ انتظر، سأحاول مرة أخرى أن أبلغها ـ أوقفته دونياشا بعد أن راقبت باهتمام اختفاء الظرف في طية صدر الموجيك. ـ أعطني الرسالة.

أخرج دوتلوف الرسالة مرة أخرى، إلا أنه لم يسلمها رأساً إلى يد دونياشا الممتدة.

ـ قولي لها أن سيميون دوتلوف وجدها في الطريق.

ـ هاتها هنا.

ـ كنت أتصورها رسالة فقط، ولكن جندياً قرأ أن فيها فلوساً.

ـ قلت هاتها.

ـ ولم أجسر على أن أذهب للبيت من أجل... ـ قال دوتلوف دون أن يتخلى عن الظرف الثمين ـ قولي لها بهذا الشكل.

تسلمت دونياشا الظرف، وذهبت إلى السيدة مرة أخرى.

ـ آه، يا إلهي، دونياشا! ـ قالت السيدة بصوت موبخ ـ لا تحدثيني عن هذه الفلوس. ما أن أتذكر ذلك الطفل...

فعادت دونياشا تقول:

ـ ولكن الموجيك، يا سيدتي، لا يعرف لمن تأمرين بإعطاء الفلوس.

فضت السيدة أختام الظرف، وارتعشت حالما رأت الفلوس، وسهمت، وقالت:

ـ الفلوس مخيفة. كم تصنع من شرور!

سألت دونياشا:

ـ هذا دوتلوف، يا سيدتي. هل تأمرين بأن أدخله عليك، أم تحبين أن تخرجي إليه؟ هل الفلوس كاملة؟

ـ لا أريد هذه الفلوس. إنها فلوس مريعة. ما أفظع ما فعلت! قولي له: ليأخذها إذا كان يريد ـ قالت السيدة فجأة، وهي تتلمس يد دونياشا ـ نعم، نعم ـ كررت لدونياشا الذاهلة ـ ليأخذها كلياً، وليفعل ما يريد.

ـ ألف وخمسمائة روبل. ـ قالت دونياشا مذكرة، مبتسمة ابتسامة خفيفة، وكأنها تتكلم مع طفلة. فكررت السيدة في جزع:

ـ ليأخذها كلها. لماذا لا تفهمينني، إن هذه النقود منحوسة فلا تذكريها لي أبداً، ليأخذها الموجيك الذي وجدها. اذهبي، اذهبي حالاً.

خرجت دونياشا إلى حجرة الوصيفات.

سأل دوتلوف:

ـ كاملة؟

ـ عدها بنفسك فيما بعد ـ قالت دونياشا، وهي تعيد إليه الظرف ـ أمرتني بأن أردها لك.

وضع دوتلوف قبعته تحت إبطه، وانحنى، وراح يعدها.

ـ ألا يوجد معداد؟

فهم دوتلوف أن السيدة لبلادتها لا تحسن العد فأمرته أن يعدها.

ـ عدها في البيت! إنها لك! نقودك! ـ قالت دونياشا. ـ السيدة تقول: لا أريد أن أراها، فرديها لمن جاء بها.

ثبت دوتلوف بصره في دونياشا، دون أن يعدل انحناءة جسمه.

وضربت عمة دونياشا كفاً بكف.

ـ يا للقديسات! ها هو الرب قد وهبك السعادة! يا للقديسات!

ولم تصدق الوصيفة الثانية:

ـ هل تمزحين، يا أفدوتيا نيقولايفنا؟

ـ أي مزاح! أمرتني بردها إلى الموجيك... هيا، خذها وانصرف ـ قالت دونياشا، دون أن تخفي انزعاجها ـ بلايا أناس سعادة لآخرين.

قالت العمة:

ـ ألف وخمسمائة روبل ليست هينة.

فقالت دونياشا مؤكدة:

ـ بل أكثر. ـ ثم أضافت ساخرة ـ أوقد شمعة بعشر كوبيكات لميكولا. أما تزال لا تعي؟ ليتها كانت من نصيب المسكين! أما هذا فله فلوس كثيرة.

فهم دوتلوف أخيراً أن الأمر جد، فأخذ يستعد للانصراف، ويضع في الظرف الفلوس التي بسطها ليعدها، إلا أن يديه ارتجفتا، وكان طوال الوقت يتطلع إلى الفتيات ليتيقن من أن الأمر ليس مزحة.

ـ ما يزال ذاهلاً من سروره ـ قالت دونياشا مظهرة أنها على كل حال، تزدري بدوتلوف الموجيك والنقود معاً. ـ دعني أضعها لك.

وأرادت أن تأخذ الفلوس. إلا أن دوتلوف لم يعطها، ووعكها، ودسها في مكان أعمق في طية صدره، وتناول قبعته.

ـ فرحان؟

ـ ولا أدري ماذا أقول! بالضبط...

ولم يتم جملته، بل هز ذراعه باستهانة، وأهتف بابتسامة ساخرة مقتضبة، وكاد ينفجر باكياً، وخرج.

رن الجرس الصغير في غرفة السيدة.

ـ هل رددتها؟

ـ رددتها.

ـ وكان فرحان جداً؟

ـ صار كالمجنون تماماً.

ـ آه، استدعيه. أريد أن أسأله كيف وجدها. ادعيه إلى هنا، أنا لا أقدر على الخروج.

هرعت دونياشا، ولحقت بالموجيك في الرواق. كان قد أخرج محفظة نقوده، دون أن يرتدي قبعته، وانكب وراح يفتحها، قابضاً على النقود بأسنانه. فلعله تصور أن النقود لن تكون له ما لم تكن في محفظة نقوده. وعندما نادته دونياشا ارتعب.

ـ مـاذا عندك يا أفـدوتيـا... أفـدوتيـا مـيـخـائيلوفنا؟ هل تـريد استرجاعها، على الأقل، لو شفعت لي، إذن، لجلبت لك عسلاً، والله.

ـ لا أعرف أبخل منك!

وفتح الباب مرة أخرى، وقادوا الموجيك للمثول أمام السيدة.

وقد ركبه الغم، وكان يقول لنفسه: «آه، ستطلب الفلوس مني!» ولسبب ما كان يرفع قدمه عالياً، حين كان يمر بالغرف، وكأنه يطأ عشباً عالياً، محاولاً ألا يضرب الأرض بخفيه. وكان لا يفهم ولا يرى ما كان حوله. مر بمرآة، ورأى زهوراً، ورجلاً من الموجيك يرفع قدميه المنتعلتين بخفين، وصورة رجل يضع على عينيه عدسة، وبرميلاً أخضر، وشيئاً أبيض... وما هي إلا لحظة وتكلم هذا الشيء الأبيض، فإذا هو السيدة. ولم يكن دوتلوف يفهم شيئاً، واكتفى بالبحلقة. كان لا يعرف أين هو، وكان كل شيء يبدو له وكأنه ملفوف في ضباب.

ـ أهذا أنت، يا دوتلوف؟

ـ نعم، يا سيدتي. إنها كما هي، لم أمسسها ـ قال دوتلوف.

ـ لست مسروراً، والله العظيم! كنت أستحث حصاني بشدة...

ـ لا بأس، لتكن من نصيبك! ـ قالت بابتسامة مزدرية طيبة. ـ خذها، خذها لك.

اكتفى بأن بحلق عينيه.

ـ أنا مسرورة لأنها صارت من نصيبك. عسى أن يجعلها الله للخير والمنفعة! هل أنت مسرور؟

ـ وكيف لا! مسرور جداً، يا مولاتي! سأدعو الله لك طوال حياتي. وكم أنا مسرور لوجودك حية بيننا. كنت أخشى أن أكون مذنباً في حقك.

ـ كيف وجدتها ؟

ـ حسناً، يعني لأجل السيدة كنا دائماً نسعى بإخلاص، وليس...

قالت دونياشا:

ـ صار يخلط كلياً، يا سيدتي.

ـ حملت ابن أخي المجند في العربة، وعدت، وفي الطريق وجدتها. لا بد أن بوليكي أوقعها منه دون أن يدري.

ـ حسناً، انصرف، انصرف، يا حلو الشمائل. أنا مسرورة.

فقال الموجيك:

ـ وأنا كثيراً، يا سيدتي.

وبعد ذلك تذكر أنه لم يشكر السيدة، ولم يتصرف كما ينبغي. ابتسمت السيدة ودونياشا، وعاد هو يسير رافعاً قدميه وكأنه يسير على عشب، لا يكاد يمنع نفسه من أن يعدو راكضاً. وطوال الوقت كان يتصور أنه سيتوقف بين لحظة وأخرى، وتؤخذ منه الفلوس.

ـ ١٤ ـ

ولما خرج دوتلوف إلى الهواء الطلق، انحرف عن الطريق نحو شجيرات الزيزفون، بل وحل حزامه، لكي يخرج محفظة نقوده على نحو أحذق، وأخذ يضع أوراق النقود واحدة فوق الأخرى. كانت شفتاه تتحركان، تمتطان وتستطيلان، رغم أنه لم يكن يصدر أي صوت. ولما فرغ من وضع أوراق النقد، وتحزم من جديد، رسم علامة الصليب، وسار كالسكران، دارجاً على الطريق الصغيرة تلقائياً، لانغماره في الأفكار التي كانت تنبجس في رأسه. وفجأة رأى أمامه شبح موجيك قادم من

الجهة المقابلة. ناداه بصوت عال. كان ذلك يفيمكا الذي كان يلزم الحراسة عند الجناح ومعه هراوة.

ـ آه، يا عم سيميون ـ قال يفيمكا، مقترباً أكثر (كان يفيمكا مستوحشاً لوحده) ـ هل أوصلتم المجندين، يا عم؟

ـ أوصلناهم. وأنت ماذا تفعل؟

ـ جعلوني حارساً هنا على ايليتش المشنوق.

ـ وأين هو؟

ـ هناك، في العلية، يقولون إنه معلق. ـ أجاب يفيمكا، مشيراً بالهراوة في الظلام إلى سقف.

نظر دوتلوف باتجاه اليد، ورغم أنه لم ير شيئاً، إلا أنه عكنن وجهه، وقلص عينيه، وهز رأسه.

قال يفيمكا:

ـ وصل مأمور الشرطة، كما قال الحوذي. وسينزلون الجثة حالاً. في الليل رهبة، يا عم. لن أصعد إلى فوق في الليل، إذا أمروني بذلك، لن أفعل مهما يكن من شيء، حتى ولو ضربني يغور ميخائيلوفيتش حتى الموت.

ـ خطيئة، خطيئة! ـ كرر دوتلوف لياقة، على ما يبدو، ودون أن يفكر مطلقاً فيما كان يقول، وهم بالذهاب في حال سبيله. إلا أن صوت يغور ميخائيلوفيتش أوقفه.

صاح يغور ميخائيلوفيتش من فوق المدخل:

ـ هاي، يا حارس، تعال هنا.

رد يفيمكا على النداء.

- من ذلك الموجيك الذي كان واقفاً معك؟
- دوتلوف.
- وأنت، يا سيميون، تعال أيضاً.

وعندما اقترب دوتلوف تبين، في ضوء المصباح الذي كان الحوذي يحمله، شخص يغور ميخائيلوفيتش، وموظفاً غير معروف له يرتدي قبعة رسمية عليها عقدة شريط، ومعطفاً. وكان ذلك مأمور البوليس.

قال يغور ميخائيلوفيتش حين رآه:

- وهذا العجوز سيأتي معنا أيضاً.

امتعض العجوز، ولكن لم يكن هناك منجى.

- وأنت، يا فتى، يا يفيمكا، اصعد إلى العلية، حيث يوجد المشنوق، وعدل الدرج، ليصعد جناب المحترم.

ركض يفيمكا نحو جناح الخدم ضارباً الأرض بحذائيه الليفيين وكأنما يضربها بقرمتين، وهو الذي لم يرد أن يذهب إلى هناك، مهما يكن من شيء.

قدح مأمور الشرطة الزناد، وأشعل غليونه. وكان يعيش على بعد فرسخين، وكان قد وبخ لتوه توبيخاً قاسياً من قبل مدير شرطة المقاطعة على سكره، ولهذا كان الآن في حالة من الاجتهاد.

وعندما وصل في الساعة العاشرة مساءً، أراد أن يشاهد المشنوق في الحال. سأل يغور ميخائيلوفيتش دوتلوف عن السبب في وجوده هنا. حكى دوتلوف خلال الطريق للوكيل عن الفلوس التي وجدها، وما أمرت السيدة أن يفعل بها. وقال دوتلوف إنه جاء يطلب السماح من يغور ميخائيلوفيتش. وارتعب دوتلوف حين طلب الوكيل الظرف منه، وراح

يتفحصه. كما أخذ مأمور الشرطة الظرف في يديه، وطلب تفاصيل، في اقتضاب وجفاف.

وفكر دوتلوف مع نفسه: «ياه، راحت الفلوس». وأخذ يقدم الاعتذارات. إلا أن مأمور الشرطة رد الفلوس إليه وقال:

ـ الجلف محظوظ!

ـ جاءت في الوقت المناسب ـ قال يغور ميخائيلوفيتش ـ منذ قليل أوصل ابن أخيه للجيش. والآن سيدفع لبديل له.

ـ اها! ـ قال مأمور الشرطة، وتقدم.

قال يغور ميخائيلوفيتش:

ـ هل ستدفع لبديل عن ايليوشكا؟

ـ كيف أدفع عنه؟ وهل الفلوس تكفي؟ وقد يكون الوقت قد فات.

ـ كما ترى ـ قال الوكيل، وسار الاثنان وراء مأمور الشرطة.

وصلوا إلى جناح الخدم، حيث كان الحراس المنتنون في انتظارهم في الرواق، ومعهم مصباح. سار دوتلوف وراءهم. كان للحراس هيئة المذنبين، لا لشيء إلا للرائحة التي يصدرونها، ذلك لأنهم لم يأتوا شيئاً قبيحاً. كان الجميع صامتين. سأل مأمور الشرطة:

ـ أين؟

ـ هنا ـ همس يغور ميخائيلوفيتش، وأضاف ـ يفيمكا، تقدم، يا فتى، إلى الأمام، ومعك المصباح!

وكان يفيمكا قد عدل الدرج في الأعلى، وبدا وكأنه فقد كل فزع. انسل إلى الأمام بوجه مرح صاعداً درجتين أو ثلاثاً دفعة واحدة، سوى أنه كان يتلفت، منيراً الطريق بالمصباح لمأمور الشرطة. وسار يغور

ميخائيلوفيتش وراء مأمور الشرطة، وحين اختفوا في الأعلى، وضع دوتلوف قدماً واحدة على درجة، وتنهد، وتوقف. ومرت دقيقتان، أو نحوهما، وتلاشى وقع خطواتهم في العلية. والظاهر أنهم وصلوا إلى الجثة.

صاح يفيمكا من الثقب:

- يا عم! ينادونك!

انسل دوتلوف صاعداً. وفي ضوء المصباح كان لا يلوح من مأمور الشرطة ويغور ميخائيلوفيتش غير أعلاهما وراء الرافدة، وخلفهما وقف شخص يدير ظهره. كان ذلك بوليكي. عبر دوتلوف الرافدة، وتوقف راسماً علامة الصليب.

قال مأمور الشرطة:

- أديروه، يا شباب.

لم يتحرك أحد.

- يفيمكا، أنت، يا فتى.

عبر الفتى الرافدة، وأدار ايليتش، ووقف بالقرب منه، منقلاً نظرة طافحة بالمرح، بين ايليتش والرئاسة، مثل عارض الأمهق* أو يوليا باسترانا ينظر تارة إلى الجمهور، وتارة إلى معروضه العجيب، مستعداً لتنفيذ كل رغبات المشاهدين.

- أدره مرة أخرى.

استدار ايليتش مرة أخرى، وهز ذراعيه، وجر قدميه على الرمل.

---

* الأمهق أو «ألبينو» هو شخص أو حيوان فاقد لون البشرة والعينين والشعر. ويوليا باسترانا «امرأة بلحية». وقد عرضت هاتان الأعجوبتان على الجمهور في روسيا في العقد الخامس من القرن التاسع عشر باعتبارها من «أعاجيب الطبيعة» - الناشر.

ـ خذه، أنزله.

ـ هل تأمرون بقطع الحبل، يا فاسيلي بوريسوفيتش؟ ـ قال يغور ميخائيلوفيتش. ـ هاتوا فأساً، يا إخوان.

واقتضى تكرار الأمر مرتين قبل أن يلبيه الحراس ودوتلوف.

أما الفتى فقد تصرف مع ايليتش، كما يتصرف مع جزرة خروف. وأخيراً قطعوا الحبل. وأنزلوا الجثة، وسجوها. وقال مأمور الشرطة أن الطبيب الشرعي سيأتي غداً، وصرف الناس.

ـ ١٥ ـ

سار دوتلوف إلى بيته متمتماً بشفتيه. كان يحس بالرهبة في بادئ الأمر، ولكن هذا الشعور كان يزايله كلما كان يزداد اقتراباً من القرية، ويسرى في قلبه شعور الفرح أكثر فأكثر.

في القرية كانت تتردد أغان وأصوات مخمورة. لم يتعاط دوتلوف الخمرة قط، فسار مباشرة إلى بيته. وكان الوقت متأخراً، حين دخل كوخه الخشبي. كانت امرأته العجوز نائمة، وابنه الكبير وأحفاده ينامون على سطح الموقد، والابن الثاني ينام في الشونة، وزوجة ايليوشكا وحدها كانت يقظى جالسة على التخت في ثوبها القذر اليومي، حاسرة الرأس، تعول. لم تخرج لتفتح الباب لعمها، بل زادت من عويلها وكلامها حالما دخل الكوخ. وكانت، حسب رأي زوجته العجوز، تنوح وتندب بسلاسة واتقان شديدين، رغم أنها لحداثة سنها، لم تكتسب مراناً بعد.

نهضت العجوز، وهيأت العشاء لزوجها. أقصى دوتلوف زوجة ايليوشكا عن الطاولة قائلاً: «كفى، كفى!» ونهضت اكسينيا، واستلقت

على التخت، دون أن تكف عن العويل. أعدت العجوز المائدة صامتة، ثم رفعتها. ولم يتفوه العجوز أيضاً بأية كلمة.

صلى للرب، وتجشأ، وغسل يديه، واختطف المعداد المعلق في مسمار، وذهب إلى الشونة. وهناك تهامس مع العجوز في بادئ الأمر، ثم خرجت العجوز، فأخذ يعد بخرز المعداد، وأخيراً أطبق غطاء الصندوق، وانسل إلى السرداب. وقضى وقتاً طويلاً منهمكاً في الشونة والسرداب. وحين دخل الكوخ، كان الظلام سائداً، إذ لم تكن مسرجة الخشب مشتعلة. كانت العجوز الهادئة في النهار عادة لا يسمع لها صوت، قد انطرحت على الألواح الخشبية المعلقة عند الموقد، وشخيرها يملأ أرجاء الكوخ. كما أن زوجة ايليوشكا الكثيرة اللغط نامت أيضاً، وانتظمت أنفاسها فلا تسمع. نامت على التخت، بما كان عليها من ثياب، ودون أن تتوسد شيئاً. أخذ دوتلوف يصلي، ثم نظر إلى زوجة ايليوشكا، وهز رأسه، وأخمد مسرجة الخشب، وتجشأ مرة أخرى، وانسل إلى سطح الموقد إلى جانب حفيده الصغير. وفي الظلام ألقى خفيه من فوق، واستلقى على ظهره، ناظراً إلى العارضة فوق الموقد، لا تكاد ترى فوق رأسه، مستمعاً إلى الصراصير تدب على الجدار، وإلى الزفير والشهيق، والشخير، وحك القدم بالقدم، وأصوات الماشية في الفناء. وظل مؤرقاً لا يراوده النوم وقتاً طويلاً. طلع الهلال، وتنور الكوخ أكثر، وصار يرى في الركن اكسينيا، وشيئاً ما يستطع تبينه، لعله قفطان نساه ابنه، أو برميل صغير وضعته النسوة، أو شخص ما واقف. ولا يدري هل غفا أم لا، ولكن ما كاد يتمعن من جديد... الظاهر أن تلك الروح الموحشة التي ساقت ايليتش إلى هذا الفعل الرهيب، والتي كان الأهالي

يحسون بدنوها في تلك الليلة ـ الظاهر أن تلك الروح مست بجناحها القرية، وكوخ دوتلوف الخشبي، حيث كانت تلك النقود التي استخدمها لهلاك ايليتش. أو هذا ما شعر به دوتلوف هنا على أقل تقدير. فلم يكن دوتلوف في أطواره. لم ينم، ولم ينهض. رأى شيئاً لم يكن يستطيع تحديده، فتذكر ايليوشكا موثوق اليدين، وتذكر وجه اكسينيا، ونواحها الموزون، وتذكر ايليتش بذراعيه العظميتين المتدليتين. وفجأة خيل للعجوز أن شخصاً مر بالنوافذ. وفكر العجوز في نفسه: «ما هذا، أو لعله العمدة جاء يطبق القانون؟» وفكر وهو يسمع خطوات في الرواق: «كيف فتح الباب المغلق؟ أو لعل العجوز لم تغلقه، حين خرجت إلى الرواق؟» أخذ كلب ينبح في الفناء الخلفي، بينما هو سار في الرواق، كما روى العجوز فيما بعد، وكأنه يبحث عن الباب، ومر وصار يتلمس الجدار من جديد، وتعثر بالبرميل، فهدر البرميل.

ثم عاد هو يتلمس من جديد، وكأنما يبحث عن الرزة. وقد أمسك بالرزة. وسرت رجفة في بدن العجوز. نوسحبها، ودخل في هيئة إنسان وعندئذ عرف دوتلوف من هو. أراد أن يرسم علامة الصليب، ولكن لم يقدر. أما هو فتقدم من المائدة التي وضع عليها مفرش فسحبه، وألقاه على الأرض، وتسلق إلى سطح الموقد، وعرف العجوز أنه في هيئة ايليتش. كان يكشر عن أسنانه، ويداه متدليتان. صعد إلى سطح الموقد. وسقط على العجوز تماماً، وأخذ يخنقه. ونطق ايليتش:

ـ إنها فلوسي.

ـ أطلقني، لن آخذها. ـ أراد سيميون أن يقول، ولم يقدر.

كان ايليتش يخنقه بثقل جبل صخري بكليته، ضاغطاً على صدره.

كـان دوتلوف يعـرف أنه إذا قـرأ دعـاء، فإنه سـيطلقه، وكـان يعـرف أي دعـاء يجب أن يقرأ. إلا أن هذا الدعاء تعصى ولم يخرج من بين لسانه. كان حفيده ينام جنبه. صرخ الطفل صرخة ثاقبة، وأخذ يبكي. فقد ضغطه جده على الحائط. وأطلقت صرخة الطفل لسان العجوز من عقاله، فقال دوتلوف: «قام الرب». فأرخى هو ثقله بعض الشيء. وغمغم دوتلوف: «وليهلك جميع الأعداء...» فنزل هو من الموقد. وسمع دوتلوف كيف كان هو يقرع الأرض بكلتا قدميه. ودوتلوف ما يزال ماضياً في قراءة الأدعية المعروفة له، يقرؤها كلها تباعاً. وسار هو نحو الباب، واجتاز المائدة، وصفق الباب بشدة جعلت الكوخ كله يهتز. ومع ذلك فقد كان الجميع نياماً ما عدا العجوز وحفيده. كان الجد يقرأ الأدعية، ويرتجف بكل بدنه، والحفيد يبكي، غاطاً في النوم من حين لآخر. وهو يلتصق بجده. سكن كل شيء مرة أخرى. كان الجد مستلقياً بلا حراك. وصاح ديك وراء الحائط على مقربة من أذن دوتلوف. وسمع دوتلوف الدجاجات تتحرك، وديكاً فتياً يحاول أن يصيح عقب ديك عجوز فلم يفلح. وتحرك شيء بين رجلي العجوز. كانت هذه القطة، قفزت على مخلبيها اللينين من الموقد إلى الأرض، وراحت تموء عند الباب. نهض الجد، ورفع ستار الشباك. كان الخارج مظلماً قذراً. كانت العربة تقف في مكانها تحت الشباك. خرج إلى الفناء حافياً راسماً علامة الصليب، قاصداً الخيول. وكان واضحاً هنا أن المالك قد وصل. كانت الفرس الواقفة تحت السقيفة عند المذود قد شربكت قدمها بالمقود، وراحت تنثر التبن، منتظرة مالكها، وقد رفعت قدمها، ولوت رأسها. وكان المهر الصغير قد سقط في الروث. أنهضه الجد على أقدامه، وفك شربكة الفرس، ووضع علفاً،

ورجع إلى البيت. نهضت العجوز، وأشعلت مسرجة الخشب. قال لها: «أيقظي الأولاد. أنا ذاهب إلى المدينة»، وأشعل شمعته من الأيقونات، ونزل معها إلى السرداب. وعندما خرج من هناك كانت الأضواء تشتعل ليس في بيت دوتلوف وحده، بل وفي بيوت جميع الجيران. نهض الأولاد، وأخذوا يتهيأون للخروج. والنسوة يخرجن ويدخلن بالجرادل وجفنات الحليب. شد ايغنات العدة إلى العربة. والابن الثاني راح يدهن العربة الأخرى. والزوجة الشابة لم تعد تعول، بل جلست على التخت بعد أن ارتدت ملابسها، وشدت رأسها بالمنديل، منتظرة الأوان للذهاب إلى المدينة لتودع زوجها.

بدا العجوز صارماً بشكل عام. لم يقل كلمة واحدة لأحد. لبس قفطاناً جديداً، وتحزم، وذهب إلى يغور ميخائيلوفيتش يحمل كل نقود ايليتش في طية صدره.

- اجهد نفسك! - صاح على ايغنات الذي كان يدير العجلات على المحور المرفوع المزيت. - سأعود حالاً، لأرى العربة مهيأة.

كان الوكيل قد استيقظ قبل حين، وشرب الشاي، وتهيأ للذهاب بنفسه إلى المدينة، ليسلم المجندين، سأل:

- ماذا وراءك؟

- أريد يا يغور ميخائيلوفيتش، أن أدفع لبديل عن الفتى.

فأرجو أن تعمل معروفاً. قبل أيام كنت تقول أنك تعرف راغباً في المدينة. فارشدني. فأنا لا أعرف شيئاً من هذه الأمور.

- هل غيرت فكرك؟

- غيرته، يا يغور ميخائيلوفيتش، خسارة ابن أخي. خسارة مهما

كان هو. والشرور منها كثيرة، من الفلوس، من هذه، فأرشدني، اعمل معروفاً. ـ كان يقول ذلك، وهو ينحني بكل جذعه الأعلى.

تمطق يغور ميخائيلوفيتش بشفتيه طويلاً في تفكير عميق وصمت، كعادته دائماً في مثل هذه الأحوال، وبعد أن قلب الموضوع، كتب رسالتين قصيرتين، وشرح كيف وماذا يقتضي عمله في المدينة.

عندما عاد دوتلوف إلى بيته، كانت الزوجة الشابة قد رحلت مع ايغنات، وكانت الفرس الشهباء البارزة البطن قد ألبست كل عدتها، ووقفت عند الباب الخارجي. قطع دوتلوف غصناً من السياج، والتف بمعطفه، وجلس في مقعد الحوذي، وساق الفرس. أطلق دوتلوف فرسه بسرعة شديدة، حتى إن بطنها البارز قد اختفى، وكف دوتلوف عن النظر إليها حتى لا تبدي شكوى. وكان يعد الظن بأنه سيتأخر في الوصول إلى مقر التجنيد، وأن ايليوشكا سيؤخذ إلى الجيش، وتبقى الفلوس المنحوسة في يديه.

ولا أريد أن أصف بالتفصيل كل ما وقع لدوتلوف في ذلك الصباح، واكتفي بالقول إن الحظ قد أسعده كثيراً. فإن صاحب الأمر الذي كتب له يغور ميخائيلوفيتش، كان قد أعد البديل. كلياً، بعد أن صرف عليه ثلاثة وعشرين روبلاً، وصودق عليه في الهيئة. كان صاحب الأمر يريد لقاءه أربعمائة روبل، وكان الشاري، وهو رجل من المدينة ظل يتردد عليه منذ أكثر من أسبوعين، يطلب أن يتنازل عنه إلى ثلاثمائة روبل. وقد حسم دوتلوف القضية بأربع كلمات، إذ قال ماداً يده: «تقبل بثلاثمائة وخمسة وعشرين؟» ولكنه قالها بشكل جعل من الواضح في الحال أنه مستعد لأن يضيف شيئاً. ولكن صاحب الأمر كان يجذب يده، ويصر

على أربعمائة روبل. فكرر دوتلوف: «لا تقبل بثلاثمائة وخمسة وعشرين؟» ممسكاً يد صاحب الأمر اليمنى بيده اليسرى، ملوحاً بأنه سيضربها بيده اليمنى، وقال فجأة: «لا تقبل؟ إذن، مع السلامة!» بعد أن ضرب يد صاحب الأمر، وأعرض عنه بكل جسمه بحركة حادة.

«هذا ما سيكون، في الظاهر! آخذه بثلاثمائة وخمسين، اكتب الوصل، وآخذ الشاب. والآن سأدفع العربون. يعني ورقتان من أم عشرة روبل؟».

فك دوتلوف حزامه، وأخرج النقود.

ورغم أن صاحب الأمر لم يسحب يده بعده، إلا أنه ما زال وكأنه غير موافق تماماً، يتحدث، دون أن يقبل العربون، عما يريده كإكرامية ووليمة للبديل.

ـ اتق الله ـ كرر دوتلوف، وهو يدس له الفلوس ـ كلنا إلى الموت ـ كررها بلهجة دمثة واعظة واثقة حتى إن صاحب الأمر قال:

ـ لا حيلة لنا ـ وضرب يده مرة أخرى، وأخذ يصلي للرب.

وقال ـ الأعمار بيد الله.

أيقظوا البديل الذي كان نائماً منذ السكرة الشديدة يوم أمس، وعاينوه لغرض في أنفسهم، وذهبوا جميعاً إلى دائرة التجنيد.

كان البديل مرحاً، طلب أن يكسر خمار البارحة بخمرة الرم، فأعطاه دوتلوف فلوساً لذلك، ولم تبد عليه الرهبة إلا حين أخذوا يدخلون رواق الدائرة. وقفا في الرواق طويلاً: صاحب الأمر العجوز في قفطان سيبيري أزرق، والبديل في فروة خروف قصيرة مرفوع الحاجبين، محملق العينين. وتهامسا هناك طويلاً، وقعدا في مكان، وبحثا عن شخص، وكانا،

لغرض ما، يرفعان قبعتيهما أمام كل كاتب، وينحنيان له، ويصغيان باستغراق إلى القرار الذي أصدره كاتب من معارف صاحب الأمر. وأخيراً انتهى كل أمل من إنهاء القضية في هذا اليوم. وعاد البديل من جديد يبدو أكثر مرحاً وانفلاتاً، حتى إن دوتلوف ما إن رأى يغور ميخائيلوفيتش حتى تشبث به وراح يترجاه وينحني له. وساعده يغور ميخائيلوفيتش جيداً، حتى إن البديل استدعي إلى الدائرة في نحو الساعة الثالثة، مما أثار استياءه الشديد ودهشته، وسجلوه في قيد المجندين. وبروح مرحة عمت الجميع، لسبب ما، ابتداء من الحارس وانتهاء بالرئيس، خلعوا ملابسه، وحلقوا رأسه، وألبسوه، وأطلقوه وراء الباب، وبعد خمس دقائق دفع دوتلوف الفلوس، وتسلم وصلاً، وودع صاحب الأمر والبديل، وذهب إلى منزل التاجر الذي كان يقيم فيه المجندون من قرية بوكروفسكويه. كان ايليوشكا وزوجته الشابة يجلسان في ركن من مطبخ التاجر، وما إن دخل العجوز حتى كفا عن الكلام، وتفرسا فيه بخنوع ونفور. صلى العجوز، على عادته دائماً وفك حزامه، وأخرج ورقة، ودعا ابنه الكبير ايغنات، وأم ايليوشكا التي كانت في الفناء وقال، وهو يتقدم من ابن أخيه:

ـ اتق الله، يا اليوخا. يوم أمس قلت لي كلمة معينة. هل من المعقول أنني لا أشفق عليك؟ أنا أتذكر كيف أوصاني أخي بك.

وهل يعقل أنني سأتخلى عنك لو كانت عندي مقدرة؟ ها هو الرب قد وفقني، فلم أبخل. هذه هي الورقة ـ قال ذلك ووضع الوصل على المائدة، ومسد عليها حريصاً بأصابعه المعوجة المتصلبة المفاصل.

دخل البيت من الفناء جميع الرجال القادمين من بوكروفسكويه،

وشغيلة التاجر، وحتى أناس أغراب. وحدس الجميع حقيقة الأمر، ولكن أحداً لم يقطع كلام العجوز المهيب.

ـ ها هي الورقة! دفعت أربعمائة روبل. فلا توبخ عمك.

نهض ايليوشكا، ولكنه لزم الصمت دون أن يعرف ماذا يقول.

كانت شفتاه ترتجفان انفعالاً، وتقدمت أمه العجوز منه ناشجة.

وأرادت أن تلقي نفسها على رقبته، إلا أن العجوز نحاها بيده ببطء وبأمر، ومضى يقول:

ـ بالأمس قلت لي كلمة معينة ـ كرر العجوز مرة أخرى ـ أنت بهذه الكلمة طعنت قلبي كما تطعنه بسكين. أبوك، حين كان على فراش الموت، أوصاني بأن تكون مثل ابني، وإذا كنت قد أسأت إليك بشيء، فلأننا جميعاً نعيش في الخطيئة. أليس كذلك، يا مؤمنون؟ ـ خاطب بذلك الرجال الواقفين حوله ـ هذه أمك أمامك، وهذه زوجتك الشابة، وهذا هو الوصل. وعفا الله على الفلوس. فاعذروني من أجل المسيح.

وطوى ذيل جبته، وركع على ركبتيه ببطء، وانكب على قدمي ايليوشكا، وعلى قدمي زوجته، وعبثاً حاول الشبان إمساكه. فهو لم ينهض إلا بعد أن مس الأرض برأسه، وبعد ذلك نفض نفسه، وجلس على التخت. بكت أم ايليوشكا وزوجته الشابة من الفرح، وتردد أصوات التأييد من المتجمعين. قال أحدهم: «كما يقتضي الحق، كما يأمر الرب»، وقال ثان: «يا للفرحة، رجل عادل، والحق يقال». والمنسبون للتجنيد وحدهم لم يقولوا شيئاً، وخرجوا إلى الفناء، لا يسمع لهم صوت.

وبعد ساعتين خرجت عربتا آل دوتلوف من ناحية المدينة.

كان العجوز وايغنات يستقلان العربة الأولى تجرها الفرس الشهباء

ببطنها البارز، ورقبتها العرقة، وعلى ظهر العربة كانت تتأرجح ربطات الكعك. في العربة الثانية التي كانت تسير على هداها جلست برصانة وهناء الزوجة الشابة وحماتها معصوبتين بمنديلين. كانت الزوجة الشابة تحتفظ وراء الستار بكوز من الفودكا بينما كان ايليوشكا في المقعد الأمامي يدير ظهره للحصان، مرتعصاً محمر الوجه، مهتزاً، يتبلغ بكعكة، ولا يكف عن الكلام. وقد اندمجت الأصوات، وكركبة العربتين على الجادة، وحمحمة الحصانين في صوت واحد مرح.

وكان الحصانان يهزان ذيليهما ويزيدان من عدوهما باستمرار مستشعرين مسيرهما نحو البيت. وكان المارة ماشين أو راكبين يلتفتون إلى العائلة المرحة، دون أن يدروا.

وعند مشارف المدينة تماماً أخذ آل دوتلوف يلحقون بفريق المجندين. كانت مجموعة المجندين تتحلق بالقرب من مشرب. كان أحد المجندين يعزف على البلالايكا بخفة وبتلك السحنة التي يضيفها الرأس الحليق على الإنسان، وقد سرح قبعته الرمادية على قفاه. وكان الآخر يرقص في وسط الحلقة حاسر الرأس، وفي يده كوز فودكا، أوقف ايغنات الحصان، ونزل من العربة ليقوي مشد العربة. أخذ آل دوتلوف جميعهم ينظرون إلى الراقص بحب استطلاع واستلطاف ومرح. وكان هذا المجند لا يرى أحداً، على ما يبدو، ولكنه كان يحس بأن الجمهور المتطلع إليه باندهاش، يتعاظم، فكان ذلك يمده بالقوة والبراعة. كان المجند يرقص بخفة، وقد انعقد حاجباه، وجمد وجهه الأحمر، وارتسمت على فمه ابتسامة صغيرة فقدت رونقها منذ زمان. وبدا وكأن كل ما في روحه من قوة موجه إلى صف قدم وراء قدم، بأسرع ما يمكن، تارة على الكعب، وتارة على

أطراف الأصابع. وكان أحياناً يتوقف فجأة، ويغمز للعازف على البلالايكا، فكان هذا يأخذ بالضرب على جميع الأوتار بخفة أشد، بل وينقر سطح البلالايكا بعظام أصابعه.

وكان المجند حتى إذا توقف وجمد يبدو وكأنه ماض في رقصه. كان يبطئ من حركته فجأة مرقصاً كتفيه قليلاً، وإذا به يقفز إلى الأعلى، وينقض ليقرفص ويرقص رقصة القرفصاء دافعاً هذه القدم وتلك زاعقاً زعيقاً وحشياً. وكان الأطفال يضحكون، والنسوة يهززن رؤوسهن، والرجال يبتسمون باستحسان. وكان ضابط الصف العجوز يقف على مقربة من الراقص، وهيئته تقول: «هذا عجيب لكم، بينما هو مألوف جداً بيننا». والظاهر أن عازف البلالايكا تعب، فتلفت بكسل، وعزف تنغيماً كاذباً، وإذا به يضرب سطح البلالايكا بأصابعه، وانتهى الرقص.

ـ هاي! الكسي! ـ قال عازف البلالايكا للراقص مشيراً إلى دوتلوف. ـ هذا أبوك في المعمودية!

ـ أين؟ أوه ياصاحبي اللطيف! ـ صاح الكسي، وهو نفس المجند الذي اشتراه دوتلوف بديلاً، واتجه نحو العربة، دافعاً قدميه المتعبتين إلى الأمام، رافعاً كوز الفودكا فوق رأسه.

ـ يا ميشا، هات قدحاً! ـ صاح، ـ يا صاحب الأمر! يا صاحبي اللطيف! أية فرحة هذه، حقاً!... ـ وأرخى رأسه المخمور داخل العربة، وراح يقدم الفودكا للرجال والمرأتين. قبل الرجال، ورفضت المرأتان. ـ بم أضيفكما يا عزيزتي؟ ـ صاح الكسي، وهو يحتضن العجوز.

كانت بائعة متجولة تقف في الحشد ببسطتها من الأطايب، رآها الكسي، فاختطف منها البسطة، وصب كل ما فيها في العربة.

ـ أظن... سأدفع ثمنها، تفاهه! ـ صاح بصوت متفجع، وفي نفس اللحظة أخرج من السروال كيس نقوده، وألقاه لميشكا.

وقف مرتفقاً على العربة، ينظر إلى الجالسين فيها بعينين نديتين. سأل:

ـ من منكما أمي بالمعمودية؟ هل أنت؟ سأهدي لك.

وغرق في التفكير برهة، ودس يده في جيبه، وأخرج منديلاً جديداً مطوياً، وفوطة كان يتحزم بها تحت معطفه العسكري، ونزع من رقبته بعجالة منديلاً أحمر، وكور كل ذلك، ودسه في ركبتي العجوز.

ـ هذا لك، هدية مني ـ قال بصوت صار يخفت أكثر فأكثر.

ـ لأي شيء؟ شكراً، يا عزيزي. انظر، أي شاب مفتوح القلب هو، ـ قالت مخاطبة دوتلوف العجوز الذي كان قد جاء إلى عربتهم.

سكت الكسي تماماً، وسهم وراح، كالمهوم، في غفوة ينزل رأسه أكثر فأكثر.

ـ أنا ذاهب للجيش من أجلكم، وسأقتل من أجلكم! قال ذلك ـ ولأجلكم أهدي هداياي.

قال أحد من المتجمعين:

ـ أظن أن أمه حية ما تزال. يا له من شاب مفتوح القلب! مصيبة!

رفع الكسي رأسه:

ـ أمي حية ما تزال ـ قال الكسي ـ وكذلك أبي. وقد نبذوني جميعاً، اسمعي، يا عجوز ـ أضاف وأمسك يد أم اليوشكا ـ ها أنا قدمت لك هدايا، فاسمعيني من أجل المسيح. اذهبي إلى قرية فودنويه، واسألي عن العجوز نيكونوفا، إنها أمي التي حملت بي، تفهمين؟ وقولي لهذه

العجوز، نيكونوفا العجوز، كوخها الثالث من طرف القرية، عند البئر الجديدة، قولي لها إن اليوخا، ابنك... الحاصل... يا عازف، اعزف!

صاح، وعاد يرقص من جديد، وهو يتحدث، ورمى على الأرض الكوز بما تبقى فيه من الفودكا.

صعد ايغنات إلى العربة، وهم بالتحرك. وكانت العجوز تقول، وهي تلف نفسها بالفروة.

ـ وداعاً... الله يعطيك...

توقف الكسي فجأة.

ـ ولوا إلى الشيطان ـ صاح مهدداً بقبضتيه المضمومتين.

ـ يا أبناء...

قالت أم اليوشكا، وهي ترسم علامة الصليب: ـ آه، يا ربي!

ساق ايغنات الحصان، وعادت العربة تكركب. وكان المجند الكسي واقفاً وسط الطريق، مضموم القبضتين، ضاري الوجه، يشتم الرجال بكل ما له من قوة.

كان يصرخ: «لماذا أنتم واقفون؟ ولوا! شياطين! آكلة لحوم البشر! سأستخدم لن تفلتوا من يدي، يا كلاب! أبالسة!».

وبهذه الكلمة تقطع صوته، وسقط بكل قامته على الأرض.

وبعد قليل خرج آل دوتلوف إلى الأرض المنبسطة، وتلفتوا، فلم يروا جمهرة المجندين. سار ايغنات سيراً حثيثاً زهاء خمسة فراسخ، ونزل من عربة أبيه، حيث كان العجوز يغفو، وقعد إلى جانب عربة ايليوشكا.

شرب الاثنان كوز الفودكا الذي اشتراه من المدينة. وبعد قليل أخذ ايليوشكا يغني، والمرأتان تصاحبانه في الغناء، وكان ايغنات يحث

الحصان مرحاً وعلى نغم الأغنية. أقبلت عليهم من الجهة المقابلة عربة صغيرة لنقل البريد منطلقة بسرعة. صاح سائقها على حصانه بهمة، حين حاذى العربتين بركابها المرحين.

التفت الساعي، الجالس في العربة الصغيرة، وغمز للوجوه المحمرة، وجوه الرجال والنساء المهتزين في العربة، على غناء مرح.

الذراع
قصة حصان

*إلى ذكرى م. أ. ستاخوفيتش**

الفصل الأول

راحت السماء تعلو، وحمرة الفجر تتسع، وفضة الندى الكالحة تبيض، والهلال يزداد ذبولاً، والغابة تزداد صداحاً، الناس قد أخذوا ينهضون من مراقدهم، وفي اسطبل الضيعة أخذت تتردد أكثر فأكثر حمحمة الخيول المتدافعة المتعاركة على شيء ما وتحركها على القش المفروش، بل وحتى صهيلها الغاضب الزاعق.

ـ هوه! تلحق! جعت للعشب! ـ قال راعي الخيول العجوز، وهو يفتح البوابة الصارفة وصاح ـ إلى أين؟ ـ ملوحاً ذراعه على فرس حشر عنقه في البوابة.

كان راعي الخيول نيستر يرتدي سترة قوزاقية مشدودة بحزام ذي حلق، وقد ألقى السوط على كتفه، ولف الخبز في فوطة وضعها خلف حزامه. وكان يحمل في يديه سرجاً ولجاماً.

---

* الموضوع من ابتكار م. أ. ستاخوفيتش مؤلف «رعي الليل» و«الفرسان». وقد قدمه أ. أ. ستاخوفيتش إلى المؤلف. (الملاحظة من ل. ن. تولستوي).

لم ترتعب الخيول قط، ولم تتكدر من لهجة راعي الخيول المضحكة، وبدا عليها وكأن كل شيء سواء لديها. فابتعدت عن البوابة متماهلة إلا فرساً واحدة عجوزاً كميتاً غزيرة العرف، فقد أسبلت أذنها، واستدارت عنه بكفلها مسرعة. وعندها صوت فرس فتي لا يعنيه الأمر كلياً كان يقف إلى الوراء، ورفس بقائمتيه الخلفيتين أول حصان صادفه.

هوه! - صاح راعي الخيول بصوت أعلى وأرهب، واتجه إلى ركن الفناء.

كان أكثر خيول الاسطبل صبراً (كانت حوالي المائة عداً) حصان مخصي أبقع واقف لوحده في زاوية تحت الظليلة، يلحس عمود السقيفة البلوطي وعيناه متقلصتان. ولا أحد يعرف أي مذاق وجد المخصي الأبقع في لحس العمود، ولكنه كان يفعل ذلك باستغراق وجدية.

- تشاكس! - خاطبه راعي الخيول بنفس اللهجة، وهو يقترب منه، ويضع السرج وغطاء الظهر المنصقل على تل الروث قربه.

كف المخصي الأبقع عن اللحس، ونظر إلى نيستر طويلاً، دون أن يأتي حركة. ولم يضحك، ولم يغضب، ولم يتجهم بل ارتعص بكل بطنه، وأرسل زفرة عميقة، واستدار. طوق راعي الخيول عنقه، وألبسه اللجام، وقال:

- لماذا تتحسر؟

هز المخصي ذيله، وكأنه يقول: «لا شيء على وجه الخصوص، يا نيستر». وضع نيستر عليه غطاء الظهر والسرج، فأرخى المخصي أذنيه، معبراً بذلك عن استيائه، ربما، ولكنه لم يتلق، على ذلك، غير الشتيمة المقذعة. أخذ نيستر يشد السيور عليه، فنفخ المخصي بطنه، ولكنه

عـوجل بوضع إصبع في فـمه، وبلكزة قطعت أنفاسه لا محالة. ومع ذلك فقد أرخى أذنيه مرة أخرى، حين أحكم نيستر شد الحياصة بسنه، بل ولم يلتفت إليه. وعلى الرغم من أنه كان يعرف بأن هذا لا يساعده في شيء، إلا أنه كان يرى التعبير عنه ضرورياً، ومريحاً له، سيظهره دائماً. وحين أسرج، ترك ساقه اليمنى المنتفخة، وراح يعلك الشكيمة، ولاعتبارات معينة أيضاً، لأن الأوان كان قد حان ليعرف أن الشكائم لا يمكن أن يكون لها طعم.

وضع نيستر قدمه على الركاب الواطئ، وامتطى المخصي وفك السوط، وسحب أذيال سترته القوزاقية من تحت ركبته، واستوى على سرجه بتلك الجلسة الخاصة بالحوذي والصياد وراعي الخيول، وجذب الرسن. رفع المخصي رأسه معلناً عن استعداده للانطلاق إلى حيث يشار إليه، ولكنه لم يتحرك. فقد كان يعرف أن ذلك يسبقه على الدوام صياح كثير يطلقه راعي الخيول من على صهوته مصدراً به الأوامر إلى فاسكا راعي الخيول الآخر، وإلى الخيول. وبالفعل أخذ نيستر يصيح: «فاسكا، يا فاسكا! هل أخرجت الأفراس؟ أين أنت، يا عفريت! هيا! أنائم أنت! افتح، ودع الأفراس تخرج أولاً» ـ إلى غير ذلك.

صرفت البوابة. وقف فاسكا عند عمودها غاضباً ناعساً يمسك الحصان من لجامه، وفسح الطريق للخيول. أخذت الخيول تمر واحداً بعد الآخر، واطئة القش بحذر، متشممة إياه: أفراس فتية، أفلاء مشذبة الأعراف، وأمهار صغار، وأمهات ثقيلات، كن يمررن ذريتهن من خلال البوابة بحذر، وواحداً واحداً. وكانت الأفراس الفتية تتزاحم في الفناء أحياناً، فتخرج مثنى وثلاث، واحدها يضع رأسه على ظهر الآخر،

وتضطرب أقدامها في البوابة، فتتلقى في كل مرة كلمات السباب من الرعاة. كانت الأمهار الصغار أحياناً تندفع نحو أرجل أمهات أخريات. وتصهل صهيلاً صداحاً رادة على حمحمة الأمهات القصيرة.

ما إن خرجت الفرس المشاكسة من البوابة حتى لوت رأسها إلى الأسفل ثم إلى جانب، ورفعت كفلها ورفست بقائمتيها الخلفيتين، وزعقت، ومع ذلك لم تتجرأ على أن تسبق الفرس الرمادية المرقطة العجوز «جولديبا» التي كانت، على عادتها، تسير أمام جميع الخيول برصانة، وبخطوات ثقيلة مقلقلة بطنها من جنب إلى جنب.

وبعد بضع دقائق خلا الاسطبل الذي كان مكتظاً حافلاً بالحركة، وران عليه الحزن. ولاحت الأعمدة تحت الظليلات الفارغة بارزة شجية ولم يبق للعيان غير القش المسحوق المبقع بالروث. ولعل المخصي الأبقع كان يشعر بالأسى من ذلك، مهما طال تعوده على هذه اللوحة الخالية. رفع وخفض رأسه ببطء، وكأنما يؤدي تحية.

وتنهد بقدر ما سمح له السير المشدود على بطنه، وسار خلف القطيع مجرجراً قوائمه المحنية المتصلبة، حاملاً نيستر العجوز على صهوته.

كان الحصان المخصي يفكر «أنا أعرف الآن، حالما سنخرج إلى الطريق، سيقدح ناره، ويشعل غليونه الخشبي بإطاره النحاسي وسلسلته. وأنا مسرورة لذلك، لأن هذه الرائحة تلذ لي مع الندى في الصباح الباكر، وتذكرني بأشياء لطيفة أخرى. والمؤسف فقط أن العجوز ما إن يضع الغليون بين أسنانه، حتى يأخذه الاعتداد بالنفس، فيتصور نفسه شيئاً ما، ويميل في جلسته جانباً، وفي كل مرة جانباً، فيوجعني الجنب الذي

يميل إليه. وعلى أية حال عفا الله عنه، فليس جديداً علي أن أتعذب لأجلب المسرة للآخرين، بل أخذت أجد في ذلك بعض المسرة التي تجدها الخيول. فدعوا المسكين يتقندل فإنه لا يفعل ذلك إلا حين يكون وحيداً، ولا أحد يراه. دعوه يجلس إلى جنب»، . إلى هذا التفكير انتهى المخصي، وسار في وسط الطريق واطئاً الأرض في حذر بقوائمه المعوجة.

الفصل الثاني

حاش نيستر قطيع الخيول نحو النهر، حيث كان عليها أن ترعى بالقرب منه، ونزل من حصانه، ورفع عنه سرجه. وخلال ذلك أخذ القطيع ينتشر في مرجة لم توطأ بعد، يغطيها الندى والبخار المتصاعد، على قدر واحد، من المرجة والنهر الذي كان يطوقها.

رفع نيستر اللجام عن المخصي الأبقع، وحك أسفل رقبته، واستجابة لذلك أغمض المخصي عينيه إمارة على الامتنان والمتعة. فغمغم نيستر: «العجوز الملعون يلتذ بذلك!» ولم يكن المخصي يلتذ قط من هذا الحك، وللمجاملة فقط تظاهر بأنه يلتذ، هز رأسه يوافقه على رأيه. ولكن نيستر دفع رأس الحصان فجأة، ودون توقع وبدون سابق إنذار، متصوراً، على ما يبدو. أن الإسراف في رفع الكلفة يمكن أن يعطي المخصي أفكاراً كاذبة عن معنى ما دار في خلده، ولوح نيستر باللجام، وضرب قدم الحصان الناحل بأزيم اللجام ضربة موجعة جداً، وصعد الكثيب، دون أن ينطق بشيء، إلى قرمة كان يجلس عليها عادة.

لم يظهر على الحصان الأبقع أي شيء، رغم أن هذه الضربة آلمته، واتجه نحو النهر يهز ذيله الهزيل ببطء، متشمماً ومقتلعاً العشب ليسري عن نفسه لا غير. لم يعر أي التفات إلى ما كانت الأمهار الصغيرة

والأفلاء تفعله مبتهجة بالصباح، وكان يعرف أيضاً أن الأكثر صحة بالنسبة لمن في سنه على وجه الخصوص، أن يشرب جيداً على الريق، وبعد ذلك يأكل، فاختار بقعة من الشاطئ أبعد مكاناً وأرحب، ودس بوزه في الماء مبللاً حوافره والنتوء ما فوق الحافر، وأخذ يشتف الماء من خلال شفتيه المشققتين، ويحرك جنبيه وذيله بأرومته الهزيلة الشعر.

تقدمت من المخصي العجوز فرس صهباء مشاكسة، كانت دائماً تناكده وتسبب له بعض المنغصات، وتظاهرت بأنها جاءت لشأن من شؤونها، ولكنها في الحقيقة جاءت لتعكير صفو الماء، حيث كان يشرب. إلا أن الأبقع كان قد أخذ كفايته من الماء، وأخرج بهدوء قدميه المتوحلتين واحدة بعد الأخرى، وكأنما لم يلحظ نية الفرس الصهباء، ونفض رأسه، وابتعد عن شبيبة الخيول، وراح يعلف.

وظل يعلف ثلاث ساعات كاملة لا يكاد يرفع رأسه، واضعاً حوافره بأشكال مختلفة، حتى لا يطأ من العشب ما لا لزوم لايطائه، أكل وشبع حتى تدلى بطنه كالكيس على أضلاعه المدورة البارزة، ووقف بالتساوي على قوائمه الأربع الموجعة، ليكون الألم أقل ما يمكن، لا سيما بالنسبة لقائمته الأمامية اليمنى، التي كانت أضعفها، وأخذه النوم.

هناك شيخوخة مهيبة، كما هناك شيخوخة مقرفة، وأخرى بائسة. كما هناك شيخوخة مقرفة ومهيبة في آن واحد، وكانت شيخوخة المخصي الأبقع من هذا النوع تماماً.

كان المخصي عالياً، لا يقل عن ذراعين وفتر وكان لون جلده أبقع داكناً. وهذا ما كان من قبل، ولكن البقع الداكنة صارت الآن بلون بني كدر. وكانت له ثلاث شيات: واحدة على رأسه منحرفة جرداء على جانب أنفه، وإلى الأعلى من رأسه حتى منتصف العنق.

وكان عرفه الطويل المبقع بالنتوءات أبيض في موضع وبنياً في موضع آخر. وكانت الشية الأخرى تمر على طول جنبه إلى نصف بطنه. والشية الثالثة على كفله لتشمل الجزء الأعلى من الذيل إلى منتصف الفخذ وكانت بقية الذيل مبيضة مبرقشة. وكان رأسه العظمي الكبير بغوريه العميقين تحت العينين، ومشفره الأسود المتدلي الذي شق في وقت ما، يتدلى ثقيلاً واطئاً، على رقبته الممدودة لهزالها، وكالمتخشبة. ومن مشفره المتدلي كان يلوح لسان ضارب إلى السواد، مائل إلى جنب، والبقايا الصفراء من أسنانه السفلى المتآكلة. وكانت أذناه، وإحداهما قد شقت، ترتخيان منخفضتين على الجانبين، ولا تتحركان إلا بتكاسل، ومن وقت لآخر، لتهشا الذباب المتكالب. وكانت إحدى خصائل الناصية الطويلة تتدلى وراء الأذن، وكان الجبين العاري غائصاً مخدداً، وكان الجلد يرتخي كالأكياس على عظام فكيه الواسعة. وكانت العروق على رقبته ورأسه تنعقد عقداً تهتز وترتعش عندما تمسها أية ذبابة. وكان وجهه يعبر عن الصرامة والصبر والتأمل العميق والعذاب. وكانت قائمتاه الأماميتان معكوفتين عند الركبتين بشدة، وعلى حافريهما كليهما انتفاخات تصل إحداهما إلى منتصف الرجل، وقد طلعت عليها، عند الركبة، عجرة بحجم قبضة اليد. وكانت قائمتاه الخلفيتان أكثر غضارة، ولكنهما محكوكتان عند الفخذين، ومنذ زمان، كما يبدو، والشعر لم يعد ينمو في هذه المواضع.

وكانت جميع القوائم تبدو طويلة بلا تناسق لما في قوامه من نحافة. وكانت الضلوع، رغم تدورها، بارزة ومقوسة، حتى لكأن الجلد قد تيبس على التجاويف بينها. وكان حاركه والظهر مبقعين بكدمات قديمة، كما

توجد قرحة أخرى إلى الخلف ما تزال طرية ومتورمة متقيحة. وكانت أرومة الذيل السوداء بفقراتها الظاهرة تبرز طويلة وجرداء تقريباً. وعلى كفله البني، قرب الذيل، جرح بحجم الكف، مغطى بشعر أبيض، يبدو كأثر لعضة، وندبة جرح آخر تلوح واضحة في منكبه الأمامي. وكانت ركبتاه الخلفيتان، والذيل متسخة بسبب اضطراب المعدة المستديم. وكان شعر الجسم كله يبرز منتصباً رغم قصره. ومع ذلك، ورغم شيخوخة هذا الحصان المقززة لا يمكن للمرء، إذا نظر إليه، ولا سيما إذا كان خبيراً، إلا أن يقول: لقد كان في زمانه حصاناً ذا جمال ملحوظ.

بل ولقال الخبير: لم يكن في روسيا غير فصيلة واحدة يمكن أن تعطى هذه العظام العريضة، وهذه الرضف الضخمة*، وهذه الحوافر، وهذه النحافة لقصبات الساق، وهذه الرشاقة للعنق، والأهم عظم الرأس هذا، والعين الواسعة السوداء المضيئة، وهذه العقد الأصيلة للعضلات قرب الرأس والعنق، وهذا الجلد وهذا الشعر. وبالفعل كان هناك ما يبعث على المهابة في قوام هذا الحصان، وفي هذا الجمع الرهيب بين علائم الهرم المقرفة ـ تعززها برقشة البشرة ـ وبين الثقة والرصانة المتبدية في طرائق التعبير عن وعيه بجماله وقوته.

وقف وحيداً، كطلل حي، وسط المرجة الندية، وعلى مسافة غير بعيدة عنه كانت تتردد كركبة الرعيل المتناثر، وحمحمته، وصهيله الفتي، وزعيقه.

---

* عظم ما فوق الركبة ، واحده رضفة . المترجم .

الفصل الثالث

أضحت الشمس فوق الغابة، وراحت تتألق ساطعة على العشب وتعاريج النهر. وكان الندى يجف، ويتجمع قطرات، وكان البخار الصباحي الأخير يتبدد في مكان ما، قرب المستنقع وفوق الغابة كالدخان. وكانت السحب تلتف، ولكن الجو كان خالياً من الريح.

ووراء النهر كان الجودار الأخضر قد اشتدت عيدانه وبدت كالشعر الخشن، وفي الهواء رائحة خضرة غضرة، وأزهار. وكان وقواق يوقوق من الغابة ببحة، ونيستر يعد وهو منطرح على ظهره، ما تبقى له من العمر. حلقت قبابر فوق الجودار والمرجة. وتأخر أرنب فوقع بين رعيل الخيل، إلا أنه أفلت إلى الخلاء، وجلس عند أجمة، وراح يتسمع. هوم فاسكا في إغفاءة، وقد دفن رأسه في العشب، وانداحت الأفراس إلى الأسفل في دائرة أوسع حوله. أما الخيول المسنة فقد كانت تترك على الندى أثراً مضيئاً، وهي تنخر، وظلت تبحث عن موضع لا يضايقها أحد فيه، ولكنها لم تأكل بعد، بل تتذوق العشب اللذيذ لا غير. تحرك الرعيل باتجاه واحد، دون أن يلحظ. ومرة أخرى أظهرت الفرس العجوز جولديبا، وهي تتقدم الآخرين برصانة، بأن في الإمكان التقدم أبعد. وكانت موشكا الفرس الدهماء الفتية التي وضعت بكرها، لا تفتأ تناغي رضيعها الخبازي اللون وتحمحم عليه، رافعة ذيلها. وكان هذا المهر يقزل حولها مرتجف الركب. وكان ثمة سنونو بني اللون أملس كالأطلس، لامع الشعر يرعى وحيداً.

خفض رأسه حتى غطت ناصيته السوداء الحريرية جبينه وعينيه، وراح يلعب في العشب، ويجتثه ويلقيه، ويضربه بقدمه المشعرة والمبللة

بالندى. وكان أحد الأمهار الرضع قد دار حول أمه ستاً وعشرين دورة، متصوراً، ربما، أنه ابتكر لنفسه لعبة، وقد رفع ذيله القصير، وكانت أمه ترعى العشب بهدوء، وقد لحقت أن تتعود على طبع ابنها، ومن حين لآخر فقط، كانت تلقى عليه نظرة من مؤخر عينها السوداء الواسعة. وكان مهر آخر من أصغر الأمهار الرضع، أسود، كبير الرأس، ذو ناصية مدهشة ببروزها بين أذنيه، وذيل ما يزال منحرفاً إلى جانب، كما كان في بطن أمه، قد صوب أذنيه وعينيه الغبيتين، ثابتاً في مكانه، وراح ينظر إلى مهر رضيع آخر كان يقفز ويترجع، ولا أحد يعرف أينظر إليه عن حسد أو عن استهجان. كان بعض الأمهار يرضع دافعاً ضروع أمه بأنفه، والبعض الآخر يركض لسبب غير معروف، ورغم نداء الأمهات، إلى الجانب المعاكس تماماً في عدو ضئيل أهوج، وكأنما يبحث عن شيء ما، ثم يتوقف، لسبب مجهول، ويصهل بصوت رنان مستميت؛ وفريق ثالث يرقد جنباً إلى جنب، ورابع يتعلم العلف، وخامس يحك ما وراء أذنه بقدمه. وهناك فرسان آخران ثقيلان يسيران على مبعدة، ماضيين في علف العشب، يحركان قوائمهما ببطء. والظاهر أن الآخرين يحترمون وضعهما، فلم يجرأ أحد من الصغار على أن يتقدم منهما، ويضايقهما. وإذا ما عن لمشاكس أن يتقدم منهما، فإن حركة واحدة من الأذن، والذيل تكفي لأن تظهر له كل حماقة تصرفه.

الأفراس ذات الأعراف والذيول المشذبة والحوالي تتظاهر بأنها رشدت ورصنت، ونادراً ما تعمد إلى القفز، أو تخالط الرفقة المرحة.

إنها ترعى العشب برزانة، حانيات أعناقها المشذبة الشبيهة بأعناق الغرانيق، وتهز مقشات ذيولها، وكأنما تقول ـ ولنا أيضاً ذيول. ومثل الكبار تنبطح على الأرض، وتتدحرج، ويحك بعضها للآخر.

ثم إن أمرح عشرة هي تلك التي انعقدت بين أفراس في الثانية والثالثة من العمر وبين الإناث العذارى. فهي دائماً تقريباً تسير سوية وعلى مبعدة في جماعة عذروية مرحة. وتصدر منها كركبة وزعيق ونخير ورفس. إنها تلتقي، ويضع أحدها رأسه على منكب الآخر، ويتشمم بعضها بعضاً، وتتواثب، وأحياناً تشخر، وترفع أذيالها كالأبواق، وتتراكض أمام رفيقاتها بكبرياء وغنج في عدو ما بين الخبب والرهو. وكان أكثر هذه الجماعة جمالاً ودعابة فرس صهباء لاهية، كلما أتت شيئاً فعل الآخرون مثلها، وأينما ذهبت سار فريق الحسناوات كله وراءها. وفي ذلك الصباح كانت هذه اللاهية في مزاج لاه بشكل خاص. اعتراها مرح عفوي مثلما يعتري البشر.

وحتى عندما كانت الخيول ترد الماء كانت هذه تركض على طول حافة النهر تمازح المخصي العجوز، وتتظاهر بأنها مرتعبة من شيء ما، وتنخر، وتنطلق في الحقل بكل قوة قوائمها، حتى اضطر فاسكا إلى أن يجري وراءها، ووراء الخيول الأخرى التي تبعتها. ثم علفت قليلاً، وبدأت تتمرغ على الأرض، ثم راحت تناكد الأفراس الكبيرة بالسير أمامهن، ثم فصلت أحد الأمهار الرضع عن أمه، وراحت تركض وراءه، وكأنما تريد أن تعضه. ارتعبت الأم، وكفت عن العلف، وصاح المهر بصوت بائس، ولكن الفرس اللاهية لم تمسه بشيء، أرعبته فقط ويسرت مشهداً لرفيقاتها اللواتي كن يراقبن أفعالها بانسجام. وبعد ذلك عن لها أن تدير رأس فرس رمادي كان أحد الفلاحين يمر عليه وسط الجودار بعيداً وراء النهر.

وتوقفت شماء، ورفعت رأسها منحرفة قليلاً، ونفضت جسدها،

وصهلت بصوت حلو رقيق ممدود. وقد انعكس في هذا الصهيل عبث وعاطفة وشيء من الحزن. كما فيه رغبة ووعد بالحب ولهفة إليه.

ها هو طائر السلوى يتنقل من مكان إلى آخر في أعواد القصب الكثيف يدعو إليه صاحبته بلوعة، وها هو الوقواق والسمان يغنيان الحب، والزهور ينثر بعضها للبعض طلعها في الريح.

«وأنا أيضاً فتية وحلوة وقوية، ـ كان صهيل الفرس اللاهية يقول، ـ ولكن لم يكتب لي حتى الآن أن أتذوق حلاوة هذه العاطفة، ولم يكتب لي أن أتذوقها بل ولم يرني أي عاشق، أي عاشق»..

وانداح هذا الصهيل الكثير الدلالة إلى الحقل في الأسفل بأسى وفتوة، ووصل من بعيد إلى سمع الحصان الرمادي. فرفع أذنيه، وتوقف. رفسه الفلاح بنعاله الليفي، وكان الحصان الرمادي مسحوراً بالصوت الفضي الذي ينشره الصهيل البعيد. فصهل أيضاً. غضب الفلاح، وجذبه من أعنته، وضربه في بطنه بنعاله الليفي ضربة جعلته يواصل السير، دون أن يكمل صهيله. ولكن الحصان الرمادي أحس بحلاوة وحزن ولفترة طويلة ظلت رنات الصهيل العاطفي المنطلق وصوت الفلاح الغاضب تتوارد إلى الرعيل من حقول الجودار البعيدة.

وإذا كانت الفتنة قد بلغت بالحصان الرمادي حد نسيان واجبه لمجرد سماع رنة هذا الصوت، فماذا سيكون معه لو أنه رأى كل جمال هذه اللاهية، وكيف كانت تدعوه إليها موترة أذنيها، فاتحة منخريها، مستنشقة الهواء، تهفو إلى مكان ما، وهي ترتعش بكل جسدها الفتي المعافى.

ولكن اللاهية لم تفكر طويلاً في انطباعاتها. وحين سكت صوت الحصان الرمادي صهلت مرة أخرى بشيء من السخرية، وخفضت رأسها

وأخذت تحفر الأرض بقدمها، ثم ذهبت لتوقظ الحصان المخصي وتناكفه. وكان الحصان المخصي دائماً هدفاً لعذاب الفتية السعداء وأضحوكة لهم، وكان يتعذب منهم أكثر مما يعاني من الناس. وهو لم يلحق ضرراً لا بهؤلاء ولا بأولئك، كان الناس بحاجة إليه، ولكن لم تعذبه هذه الخيول الفتية؟

الفصل الرابع

كان عجوزاً، وكانت فتية، وكان نحيفاً، وكانت مسمنة، وكان منقبضاً، وكانت مرحة. ومعنى ذلك أنه كان غريباً تماماً، طارئاً، مخلوقاً مختلفاً تماماً، ولا يمكن أن يشفق عليه أحد. والخيول لا تشفق إلا على نفسها، وأحياناً، على من يسهل عليها أن تتصور نفسها في جلدته. ولكن هل كان يبدو المخصي الأبقع مذنباً لكونه عجوزاً ونحيفاً ودميماً؟... لا أظن ذلك. ولكنه في نظر الخيول الأخرى كان مذنباً، والمحقون دائماً هم أولئك الأقوياء الشبان السعداء، أولئك الذين يخبئ لهم المستقبل كل شيء، وليسوا هم بحاجة إلى أن يجهدوا كل عضلة فيهم، ولا أن ترتفع ذيولهم متصلبة إلى الأعلى. ولربما كان المخصي الأبقع يفهم ذلك، ويمكن أن يوافق في لحظات الهدوء على أنه مذنب في تبديد حياته، وأن عليه أن يدفع ثمن هذه الحياة، إلا أنه كان حصاناً، على أية حال، وما كان في وسعه غالباً أن يتحمل مشاعر المهانة والحزن والحنق، وهو ينظر إلى هذه الفتية من الخيول، تعاقبه على ما سيتعرض له جميعاً في آخر العمر. كما أن قساوة الخيول هذه كانت تخفي وراءها شعوراً بالارستقراطية.

فقد كان لكل واحد منها شجرة نسب عن أبيه أو أمه تصل به إلى

سميتكانكا الشهير، ولم يكن للمخصي أي نسب. فقد كان طارئاً أشتري من السوق الريفية قبل ثلاثة أعوام بثمانين روبلاً من أوراق النقد.

تظاهرت الفرس الصهباء بأنها تتنزه، ودنت من المخصي الأبقع تماماً، ودفعته. وكان يعرف ما يعني هذا، أرخى أذنيه وكشر عن أسنانه، دون أن يفتح عينيه. وأدارت الصهباء كفلها إليه، وتظاهرت بأنها تريد أن ترفسه. ففتح عينيه، وابتعد إلى ناحية أخرى. وكان النوم قد طار من عينيه، فأخذ يعلف العشب. ومرة أخرى اقتربت الصهباء منه بمعية صويحباتها. ودنت معها فرس في الثانية من عمرها، مرطاء، شديدة البله، كانت تقلد الفرس الصهباء دائماً، وتحذو حذوها في كل شيء، وأخذت، شأنها شأن جميع المقلدين، تتطرف بكل ما فعلته البادئة، كانت الصهباء تقترب بشكل اعتيادي، وكأنما لشأن من شؤونها، وتمر أمام أنف المخصي تماماً، دون أن تنظر إليه، حتى إنه لم يعرف على وجه التحديد أيغضب أم لا يغضب. وكان ذلك مضحكاً بالفعل. وقد فعلت ذلك هذه المرة أيضاً، ولكن المرطاء التي جاءت وراءها، وأبدت مرحاً فائضاً، صدمت المخصي بصدرها على المكشوف. كشر هذا عن أسنانه مرة أخرى، وأرسل صيحة، وانطلق خلفها في عدو سريع لا يمكن توقعه منه، وعضها من فخذها. رفست المرطاء بكل قوة قائمتيها الخلفيتين، وأصابت العجوز بضربة قوية على أضلاعه النحيلة العارية. حتى صدرت من العجوز حشرجة، وهم بالاندفاع نحوها مرة أخرى، إلا أنه غير فكره، وابتعد جانباً، وهو يتنفس بعسر. ولعل فتية الرعيل كلها اعتبرت الجسارة التي سوغها العجوز لنفسه بتصرفه هذا مع الفرس المرطاء،

إهانة شخصية لها، فظلت طوال النهار لا تدعه ينال شبعه ولا تتركه بسلام دقيقة واحدة، حتى إن راعي الرعيل كان يهدئها عدة مرات، ولم يستطع أن يفهم ماذا جرى لها. وكان المخصي شديد التكدر، حتى إنه اقترب بنفسه من نيستر، حين أخذ هذا العجوز يعود بالرعيل، وشعر بأنه أكثر سعادة وطمأنينة، حين وضع السرج عليه، وركب.

والله يعلم ماذا كان المخصي العجوز يفكر وهو ينطلق بالعجوز نيستر على صهوته. أكان يفكر بمرارة في شبيبة الخيول القاسية الملحاحة تلك، أم كان يغفر للمعتدين عليه تجاوزهم بذلك الإباء الازدرائي الصموت المتأصل بالشيوخ. فهو لم يفصح عن تأملاته بشيء حتى وصوله إلى البيت.

في ذلك المساء زار نيستر عرابو أولاده، وحين كان يسوق الرعيل عبر بيوت الخدم وقع بصره على عربة بحصان مربوطة إلى مدخل بيته. وما إن أتم سوق الرعيل إلى الاسطبل، حتى بدا عليه الاستعجال، فأطلق المخصي في الفناء حتى دون أن يرفع عنه السرج، وصاح على فاسكا بأن يفك السرج عنه، وأغلق البوابة، وذهب إلى العرابين. وفي تلك الليلة وقع في الاسطبل شيء غير اعتيادي لربما بسبب الإهانة التي ألحقتها به المرطاء، ابنة حفيدة سميتانكا الصغرى، «البرذونة الجرباء» المشتراة من سوق الخيول، والتي لا تعرف أباها ولا أمها، وبذلك أهانت الشعور الارستقراطي لكل من في الاسطبل، أو بسبب المشهد الخيالي الغريب على الخيول، والمتمثل بالمخصي وهو واقف بسرجه العالي وبدون راكب.

تراكضت الخيول كلها صغيرها وكبيرها وراء المخصي مكشرة عن أسنانها، مطاردة إياه في الرحبة، وترامت أصوات الحوافر تضرب جنبيه

الأعجفين ولهاث ثقيل. ولم يعد المخصي قادراً على تحمل ذلك أكثر، ولم يستطع تحاشي الضربات أكثر، فتوقف في وسط الاسطبل، وقد انعكس على وجهه غيظ واهن مقزز، هو غيظ عاجز، ثم يأس، وأرخى أذنيه، وفجأة فعل شيئاً جعل كل الخيول حوله تخمد فجأة. تقدمت الفرس فيازوربوريخا، أكثر الخيول سناً، وتشممت المخصي، وتنهدت وتنهد المخصي أيضاً.

الفصل الخامس

وقف المخصي بقوامه العالي النحيل وسط الباحة، وعليه السرج العالي بعجرة القربوس البارزة. وكانت الخيول تقف حوله جامدة وفي صمت عميق، وكأنما عرفت عنه شيئاً جديداً غير مألوف. وبالفعل عرفت عنه شيئاً غير متوقع. وهذا ما عرفت عنه.

الليلة الأولى

ـ نعم، أنا ابن «مهذب» الأول والقروية. واسمي في شجرة النسب القروي الأول. أنا القروي الأول في شجرة النسب، وسميت بالذراع من قبل الناس في الشارع لخطوي الطويل المتساوق الذي لم يكن له ما يضارعه في روسيا. وليس هناك في العالم حصان أرفع دماً مني من حيث الأصل. وما كنت سأقول لكم هذا. وما حاجتي إلى ذلك؟ فما كان في وسعكم أن تتعرفوا علي أكثر مما تعرفت علي فيازوبوريخا، التي كانت تعيش معي في خرينوفويا، ولم تعرفني حتى الآن. وحتى الآن ما كنتم ستصدقون بي، لولا شهادة فيازوبوريخا هذه. وما كنت سأقول لكم

هذا أبد الآبدين. ولست بحاجة إلى شفقة الخيول، ولكنكم أردتم ذلك. نعم، أنا الذراع، الذي يبحث عنه هواة الخيول ولا يجدونه، نفس الذراع الذي كان الكونت نفسه يعرفه، وأخرجه من المزرعة عقاباً على إهانته لمحبوبته البجعة.

عندما ولدت لم أكن أعرف معنى الأبقع، فقد كنت أتصور أنني حصان وحسب. وأتذكر أن الإشارة الأولى إلى لون وبري صعقتني وصعقت أمي كثيراً. ولعلي ولدت ليلاً، وعند حلول الصباح وقفت على قوائمي، بعد أن لحستني أمي. أتذكر أنني كنت طوال الوقت أشتهي شيئاً وكل شيء يبدو لي مدهشاً للغاية وبسيطاً للغاية.

كانت مرابطنا في ممر طويل دافئ له باب مشبك كان كل شيء يرى من خلاله. كانت أمي تقرب مني حلمها، ولكنني كنت ساذجاً جداً، فكنت أدس أنفي تحت قائمتيها الأماميتين تارة، وتحت قائمتيها الخلفيتين تارة أخرى. وفجأة نظرت أمي إلى الباب المشبك، وتنحت ناقلة ساقها من فوقي. كان السائس النهاري ينظر إلينا في مربطنا عبر التشبيكة.

ـ آه، انظر، القروية أنجبت. ـ قال ذلك وأخذ يفتح المزلاج، وسار على بساط القش الطازج، وطوقني بذراعيه، وصاح:

ـ انظر، يا تاراس، إنه أبقع، كالعقعق تماماً.

انتزعت نفسي منه، وكبوت على ركبتي. فقال هذا:

ـ انظر إليه، هذا العفريت الصغير.

قلقت أمي، ولكنها لم تعزم على الدفاع عني، واكتفت بأن ابتعدت ناحية، بعد أن زفرت زفرة ثقيلة جداً، جاء السواس وأخذوا يتفحصونني.

هرع أحدهم ليبلغ مدير الاسطبل. ضحك الجميع، وهم ينظرون إلى شياتي، وأطلقوا علي مختلف الأسماء الغريبة. ولم أكن أنا، ولا حتى أمي، نفهم معاني تلك الكلمات. وإلى ذلك الحين لم يكن بيننا، ولا بين جميع أقاربي، حصان أبقع واحد. وما كنا نتصور أن في ذلك شيئاً قبيحاً. وحتى آنذاك أثنى الجميع على تكويني الجسدي وعلى قوتي.

كان السائس يقول:

ـ أنظر أية خفة نشطة فيه، لن نستطيع الإمساك به.

وبعد بعض الوقت جاء مدير الاسطبل، وأخذ يبدي دهشته من لوني بل بدا مغموماً أيضاً وقال:

ـ على من طلع هذا الدميم؟ لن يتركه الجنرال في المزرعة الآن. آه، يا قروية، نكت بي، ـ قال ذلك مخاطباً أمي. ـ على الأقل لو ولدت مهراً أجرد، فإن هذا أبقع تماماً.

لم ترد أمي عليه بشيء، وكما هي في مثل هذه الأحوال، زفرت مرة أخرى.

ومضى يقول:

ـ على من طلع هذا الشيطان، قروي تماماً. ولا يجوز إبقاؤه في المزرعة، فذلك عيب. ولكنه حلو، حلو جداً. ـ كان يقول ذلك، وكان الجميع يقولونه، وهم ينظرون إلي. وبعد بضعة أيام جاء الجنرال نفسه ينظر إلي، وإذا بالجميع قد ارتعبوا لسبب ما، وراحوا يكيلون السباب لي ولأمي على لون وبري. وكان كل من رآني يكرر: «ولكنه حلو، حلو جداً».

وعشنا في اسطبل الأمهار، كل على انفراد، ومع أمه، إلى حين أخذ

الثلج على سطوح الاسطبل يذوب من حرارة الشمس، فقد أخذوا يطلقوننا أحياناً مع أمهاتنا إلى الباحة العريضة المفروشة بالقش الطازج. وفيها عرفت لأول مرة كل أقاربي، الأقربين والأبعدين. وفيها رأيت كل الأفراس الشهيرة في ذلك الحين تخرج مع صغارها من أبواب مختلفة. فكانت بينها العجوز غولانكا، وموشكا ابنة سميتانكا، وكراسنوخا، وفرس الركوب دوبروخوتيخا، وجميع شهيرات ذلك الزمن، كلها كانت تجتمع هناك مع أمهارها الرضع، وتتمشى في الشمس، وتتبختر على القش، وتشم إحداها الأخرى، مثل سائر الخيول البسيطة. وحتى الآن لا أستطيع أن أنسى منظر ذلك الاسطبل المملوء بحسناوات ذلك الزمن. وغريب عليكم أن تتصوروا وتصدقوا بأنني كنت فتياً أيضاً ولعوباً، ولكن هذا ما كان بالفعل. وكانت هناك أيضاً فيازوبوريخا نفسها، حيث كانت حولية آنذاك، فرساً لطيفة مرحة ولعوباً، إلا أنها، وأنا لا أقول ذلك نكاية بها، كانت من بين أسوأ خيول تلك الذرية، رغم أنها تعتبر الآن نادرة بينكم من حيث الأصل. وستؤكد لكم هذه الحقيقة بنفسها.

وبرقشتي التي لم تعجب الناس على هذا النحو، وقعت في نفوس الخيول كلها وقعاً جميلاً للغاية، فأحاطت بي، وراحت تتملاني وتلعب معي. وقد أخذت أنسى ما يقوله الناس عن برقشتي، وشعرت بالسعادة من نفسي ولكن سرعان ما عرفت أول غم في حياتي، وأمي كانت السبب فيه. حين أخذت الثلوج تذوب، وبدأت العصافير تزقزق تحت الظليلات، وبدأت أنفاس الربيع تضمخ الهواء بقوة أشد، أخذت أمي تتغير في معاملتها لي. تغير خلقها كله. كانت تبدأ باللعب فجأة، وبدون أي سبب، راكضة في الباحة مما لا يناسب أبداً سنها المعتبرة، أو تستغرق في

التـفكيـر، وتأخـذ بالصـهـيل، أو تعض وترفس أخـواتهـا الأفـراس، أو تتـشـمـمني، وتنخـر مـسـتـا ءة، أو تضع رأسـهـا على ظهـر ابنة خـالتـهـا كويتـشـيـخـا، حين تخـرج للتشـمس، وتحك لها ظهـرها طويلاً، وبسـهـوم وتدفعني عن ضـروعـهـا. وذات مـرة جاء مـدير الاسطبل، وأمـر بأن يوضع عليها الرسن، وأخرجت من المربط. راحت تصهل، فرددت على صـهـيلها، وانطلقت وراءها، ولكنها لم تتلطف حتى بالالتفات والنظر إلي.

احتضنني السائس تاراس، وفي تلك الأثناء أغلقوا الباب على أمي بعد أن أخرجوها. انتـزعت نفسي، وأوقعت السائس على القش، ولكن الباب كان مقفلاً، ولم أسمع غير صهيل أمي، وهو يزداد ابتعاداً. ولم أعد أسمع في هذا الصهيل دعوة، بل شيئاً آخر.

ومثلمـا عـرفت فيـمـا بعـد رد على صـوتهـا من بعيـد صـوت جبار، صوت الحصان دوبري الأول الذي كان يسير للقاء أمي الغرامي يكتنفه سائسـان من يمين وشمال. أنا لا أتذكر كيف خرج تاراس من مربطي، فقد غرقت في حزن عميق. وأحسست بأنني فقدت حنان أمي إلى الأبد. وكل ذلك لأنني أبقع، فكرت بذلك، وأنا أتذكـر كـلام النـاس عن وبري، وتملكتني قوة شريرة، حتى أخذت أضـرب حيطان المربط برأسي وركبتي، ورحت أضرب حتى تسربلت بالعرق، وأصابني الانهاك.

بعـد بعض الوقت عـادت أمي إلي. سـمـعتـهـا ترقل بخطو دائب عبر الممر إلى مـربطنا. فـتـحـوا لهـا البـاب، ولم أعـرفـهـا، من كـثـر مـا احلوت وارتد إليـهـا شبابها. تشممتني، ونخرت، وأخذت تصهل. ورأيت بكل ما ارتسم عليـهـا أنها لا تحبني. راحت تحكي لي عن جمال دوبري، وحبهـا له. واستـمـرت هذه اللقاءات الغـراميـة، وصـارت عـلاقـاتي مع أمي أكـثـر برودة فأكثر.

وبعد قليل أطلقونا للرعي. ومنذ ذلك الحين عرفت مسرات جديدة عوضتني عن فقدان حب أمي. وكانت لي صويحبات وأصحاب، تعلمنا سوية كيف نعلف العشب، ونصهل كما يصهل الكبار، وندور حول أمهاتنا رافعين ذيولنا. لقد كانت تلك فترة سعيدة في حياتي. غفروا لي كل شيء، وأحبوني وتملوا بي، ونظروا بتلطف إلى كل ما فعلته. ولم يستمر ذلك طويلاً. بعد قليل حصل لي شيء مرعب. ـ وتنهد المخصي تنهيدة ثقيلة جداً، وانصرف مبتعداً عن الخيول.

كان الفجر قد طلع منذ وقت طويل. وصرفت البوابة، ودخل نيستر. وتفرقت الخيول، وعدل الراعي السرج على المخصي، وخرج بالرعيل.

الفصل السادس

الليلة الثانية

وما إن أعيدت الخيول إلى مرابطها حتى تحلقت حول الأبقع من جديد. ومضى الأبقع يقول:

ـ في شهر آب فصلوني عن أمي. ولم أشعر بحزن شديد. فقد رأيت أنها حامل بأخي الأصغر المعروف باسم أوسان، ولم أعد كما كنت من قبل. لم أكن أغار، ولكنني شعرت ببرودة نحوها. وفضلاً عن ذلك كنت أعرف أنني، بعد أن أفارق أمي، أدخل في القسم العام للأمهار، حيث كنا نقف مثنى أو ثلاث، وفي كل يوم نخرج إلى الهواء الطلق في مجموعة من الشبيبة. وكنت أشارك «المحبوب» في مربط واحد. وكان المحبوب فرس ركوب استخدمه الامبراطور نفسه لركوبه فيما بعد، وقد صوروه في اللوحات والتماثيل. وآنذاك كان مهراً بسيطاً بوبر لامع

ناعم، وعنق كعنق البجعة، وقوائم مستقيمة نحيلة كالأوتار. كان مرحاً دائماً، طيب النفس، لطيفاً، وكان مستعداً دائماً إلى أن يلعب ويلعق ويمازح الخيول أو الناس. وتصادقنا بشكل لا إرادي، ونحن نعيش سوية، واستمرت هذه الصداقة طوال شبابنا. كان بهيجاً، ولعوباً. وكان في ذلك الحين قد بدأ يحب، ويعابث الأفراس ويضحك من سذاجتي. ومن سوء حظي أنني أخذت أحاكيه بسبب من عزة النفس، وسرعان ما انغمرت بالحب. وهواي المبكر هذا كان السبب في التغير العظيم في مصيري. فقد شاء القدر أن انجذب بهذا الشكل.

كانت فيازوربوريخا أكبر مني بسنة واحدة، وكنت معها على علاقة ودية بشكل خاص، ولكنني في أواخر الخريف لاحظت أنها أخذت تنفر مني... لا أريد أن أتحدث عن مجمل القصة البائسة لحبي الأول، وهي نفسها تتذكر هواي الجارف الذي انتهى بالنسبة لي بأهم تغير في حياتي. انطلق الرعاة يصرفونها عني، ويضربونني. وفي المساء ساقوني إلى مربط انفرادي، فأخذت أصهل طوال الليل، وكأنني أتوجس أحداث الغد.

في الصباح جاء الجنرال ومدير الاسطبل، والسواس والرعاة إلى ممر مربطي، وبدأ صراخ رهيب. صرخ الجنرال على مدير الاسطبل، ومدير الاسطبل يتعذر بأنه لم يأمر بإطلاقي، وأن العمل قام به السواس من تلقاء أنفسهم. قال الجنرال إنه سيجلد الجميع، كما لا يجوز إبقاؤه فحلاً. ووعد السواس بتنفيذ كل شيء.

وهدأوا، وانصرفوا. ولم أكن أفهم شيئاً، ولكنني عرفت أنهم أضمروا لي شيئاً.

وفي اليوم الذي تلا ذلك كففت عن الصهيل إلى الأبد. وصرت كما أنا الآن. وتغيرت الدنيا كلها في نظري. ولم يعز علي أي شيء، وتعمقت في نفسي، وغرقت في التأملات. في البداية فتر حماسي لكل شيء. بل وامتنعت عن الشراب والطعام والسير، وناهيك عن اللعب. وأحياناً كان يعن لي أن أقفز، وأثب، وأصهل قليلاً، ولكن سرعان ما أطرح على نفسي هذا السؤال الرهيب: ولم؟ ولأي شيء؟ فتنهار قواي الأخيرة.

ذات مرة أخرجوني للتمشي مساءً، حين كان الرعيل يعود من الحقل. ومن مسافة بعيدة رأيت سحابة الغبار، تغطي الملامح الأليفة المغبشة لجميع أمهاتنا الأفراس. ورحت أسمع صهيلها المرح وكركبتها. توقفت، رغم أن حبل الرسن الذي كان السائس يسحبني به كان يحز في علبائي، وأخذت أنظر إلى الرعيل المقترب مثلما ينظر الناس إلى سعادة فقدوها إلى الأبد وبدون رجعة. صارت الأفراس تقترب، وأتبين كل الشخوص المألوفة إلي، الجميلة، الضخمة، المعافاة الشبعانة واحدة واحدة. والتفت إلي بعضها أيضاً. ولم أعد أشعر بالألم من جذب السائس للرسن. ونسيت نفسي، وأخذت أصهل لا إرادياً، وحسب العادة القديمة، وانطلقت أعدو، ولكن صهيلي طلع حزيناً مضحكاً وسخيفاً. لم يضحك من في الرعيل، ولكنني لاحظت أن الكثيرين من أفراده أشاحوا وجوههم عني حشمة. والظاهر أنهم شعروا بالتقزز، والإشفاق، والخجل، والضحك مني - وهذا الأهم. ضحكوا من رقبتي النحيلة الشوهاء، ومن رأسي الكبير (كنت قد نحلت في ذلك الوقت) ومن قوائمي الطويلة الخرقاء، ومن الطريقة الحمقاء التي عدوت بها، العدو الذي ألفته، وأنا

أطوف حول السائس في الزمن القديم. ولم يرد أحد على صهيلي، واستدار الجميع عني. ووعيت كل شيء فجأة، وعيت إلى أي حد صرت بعيداً، عنهم، وإلى الأبد، ولا أتذكر كيف وصلت إلى البيت وراء السائس.

كنت من قبل أيضاً أظهر ميلاً إلى الجدية والتأمل العميق، والآن حصل معي تحول حاسم. فقد حملتني إلى التعمق في نفسي برقشتي التي أثارت ازدراء غريباً في نفوس الناس، وسوء حظي الغريب غير المتوقع، ووضعي الخاص في المزرعة، ذلك الوضع الذي كنت أشعر به، ولا أستطيع توضيحه قط. أخذت أتأمل في ظلم الناس الذين أدانوني لأنني ابقع، وأفكر في هشاشة الحب الأمومي، والحب النسائي بشكل عام، واعتماده على الشروط الجسدية، والأهم أنني رحت أفكر في خصائص ذلك النسل الغريب من الحيوانات التي ارتبطنا بها هذا الارتباط الوثيق، والتي يطلق عليها اسم «البشر»، تلك الخصائص التي نشأت عنها خصوصية وضعي في المزرعة، والتي كنت أحس بها، ولا أستطيع إدراكها. وقد كشف لي الحادث التالي معنى هذه الخصوصية والطبائع البشرية التي أقيمت عليها.

حدث ذلك شتاء، أثناء الأعياد. لم يقدموا لي علفاً طوال اليوم، ولم يسقوني. لأن السائس كان سكراناً، كما عرفت فيما بعد. وفي ذلك اليوم دخل مدير الاسطبل علي، ولم يجد علفاً حولي، وأخذ يشتم السائس بأقذع الشتائم وكان السائس غائباً، ثم انصرف المدير.

وفي اليوم التالي دخل السائس مع رفيق آخر إلى مربطنا، وقدم لنا العلف، وقد لاحظت أنه كان ممتقع الوجه بشكل مخصوص وحزيناً. وكان

ظهره الطويل على وجه الخصوص، يعكس شيئاً ذا دلالة ومثيراً للعطف. ألقى العلف وراء المشبك في غضب؛ مددت رأسي عبر كتفه، ولكنه ضربني على أسفل بوزي بقبضته ضربة موجعة جعلتني أثب مبتعداً عنه. ثم تناهى بضربة أخرى على بطني بحذائه وقال:

ـ ما كان سيحدث شيئاً لولا هذا المقرح.

فسأل السائس الآخر:

ـ وماذا في الأمر؟

ـ أعتقد أنه لا يريد أن يتفقد أفراس الكونت، ولكنه يتفقد مهره «هو» مرتين في اليوم.

سأل الآخر:

ـ وهل أعطوه الأبقع؟

ـ باعوه أو أهدوه، الشيطان يعرف. لا يهمه لو ماتت جميع أفراس الكونت جوعاً، ولكن كيف تجسر فلا تقدم العلف لمهره.

يقول «استلق» وينزل عليك بالجلد. بلا رأفة. يشفق على الدابة أكثر مما يشفق على إنسان. ولا يعرف المسيح، على ما يظهر، كان هذا الهمجي يعد الجلدات بنفسه. الجنرال لم يجلد مثله. حز ظهري كله بالسياط، بلا خلق مسيحي، في الظاهر.

لقد فهمت جيداً أنهما كانا يتحدثان عن الجلد والروح المسيحية، ولكنني آنذاك كنت أجهل تماماً معنى تعبير «مهره» الذي عرفت منه أن الناس كانوا يفترضون وجود علاقة بيني، وبين مدير الاسطبل. ولم أستطع أن أفهم آنذاك ما هي هذه العلاقة.

وبعد ذلك بوقت طويل، حين فصلوني عن الخيول الأخرى، فهمت ما

معنى أن يصفوني بملك لإنسان. فقد بدت لي كلمة «حصاني» التي تعنيني كحصان حي، غريبة مثل كلمة أرضي، وهوائي، ومائي.

ولكن هذه الكلمات كان لها تأثير هائل في نفسي. فقد كنت أفكر في ذلك بلا انقطاع، وليس إلا بعد وقت طويل من العلاقات المختلفة مع الناس فهمت أخيراً المعنى الذي يعنيه الناس بهذه الكلمات الغريبة. والمعنى كالآتي: الناس يهتدون في الحياة بالأقوال لا بالأفعال. إنهم لا يحبون القدرة على أن يفعلوا ولا يفعلوا شيئاً من الأشياء، بقدر ما يحبون القدرة على التحدث بكلمات متداولة بينهم عن أشياء مختلفة. ومن الكلمات التي يعتبرونها مهمة جداً بينهم ما يتعلق بضمائر الملكية المطبقة على مختلف الأشياء والمخلوقات والأغراض، حتى حين يتحدثون عن الأرض، والناس، والخيول. لقد اتفقوا فيما بينهم على أن يكون لواحد منهم فقط الحق في أن يقول عن أحد الأشياء إن هذا «لي».

ويعتبرون أسعد الناس فيهم من يستطيع أن يقول عن أكبر عدد من الأشياء إن هذه «لي»، حسب هذه اللعبة المتفق عليها بينهم. وأنا لا أعرف لم هذا، ولكن هذا هو الجاري بينهم. لقد حاولت طويلاً ومن قبل أيضاً، أن أستوضح لنفسي فائدة مباشرة من ذلك، ولكنني وجدت ذلك منافياً للحقيقة.

إن الكثيرين من أولئك الذين سموني حصانهم، على سبيل المثال، لم يركبوني، ولكن الذي ركبني أناس آخرون. كما أنهم لم يطعموني، بل أطعمني آخرون مختلفون تماماً. والذين فعلوا لي خيراً ليس هم الذين كانوا يسمونني حصانهم، بل الحوذية والبياطرة، والغرباء بشكل عام. وفيما بعد، بعد أن وسعت نطاق ملاحظاتي، اقتنعت بأن مفهوم هذا

«لي» وهذا «لك» الذي لا يطبق علينا، نحن الخيول، فقط لايقوم على أساس غير غريزة الناس الحيوانية الوضيعة التي سموها الشعور أو حق الملكية. يقول الإنسان: «هذا بيتي» ولا يعيش فيه أبداً، ويهتم فقط في بناء البيت وصيانته ويقول التاجر «هذا دكاني». «هذا دكاني للأجواخ»، مثلاً، وهو لا يضع على نفسه ثياباً من أحسن الأجواخ التي يحفظها في دكانه. وهناك أناس يسمون الأرض أرضي، وهم لم يروا تلك الأرض أبداً، ولا مروا بها قط. وهناك أناس يقولون عن أناس آخرين بأنهم توابع لهم، بينما هم لم يروا أولئك الناس، وكل ملاقاتهم مع هؤلاء الناس لا تتعدى إنزال الضرر بهم. وهناك أناس يسمون نساء بأنهن نساؤهم أو زوجاتهم. بينما هؤلاء النسوة يعشن مع رجال آخرين. إن الناس لا يسعون في الحياة إلى أن يفعلوا ما يعتبرونه خيراً، بل إلى أن يسموا أكثر ما يمكن من الأشياء بأنهم أشياؤ «هم». وأنا موقن الآن أن هذا هو الفارق الجوهري الذي يفصل الناس عنا. ولهذا نستطيع أن نقول بجرأة من هذه الناحية وحدها، ناهيك عن مزايانا الأخرى التي تفضلنا عن الناس، بأننا نقف على سلم المخلوقات الحية في مرتبة أعلى من الناس: فإن نشاط الناس، وعلى الأقل أولئك الذين كنت على علاقة معهم، توجهه الكلمات، بينما العمل يوجه نشاطنا. وقد حصل مدير الاسطبل على هذا الحق في أن يسميني حصانـ«ه» ومن جراء هذا الحق جلد السائس. وقد أذهلني هذا الاكتشاف بشدة، وهو، بالإضافة إلى الأفكار والأحكام التي أثارها لوني الأبقع في الناس، وما تركته خيانة أمي من تأمل عميق في نفسي، جعلني أصير ذلك المخصي الجاد والعميق التفكير الذي هو أنا الآن.

لقد كنت سيئ الطالع ثلاثاً. فقد كنت أبقع، وكنت مخصياً.

وكان الناس لا يتصورونني ملك الرب، وملك نفسي، مثل أي كائن حي، بل ملك مدير الاسطبل.

وقد نجم عن هذا التصور عني أشياء كثيرة. أولها أنهم احتفظوا بي على انفراد، وأطعموني أفضل، وربوني أكثر، ووضعوا اللجام علي في وقت أبكر. وضعوا اللجام علي لأول مرة وأنا في العام الثالث من عمري. وأتذكر في المرة الأولى كيف أن مدير الاسطبل نفسه، ذلك الذي كان يتصورني ملكاً له، أخذ يضع عدة الحصان علي مع جمهرة من السواس منتظرين مني خفة وإزوراراً.

وشرطوا شفتي وشدوني بالحبال، وحصروني بين عريشين، ووضعوا على ظهري سيراً عريضاً متصالباً، وربطوه بالعريشين، حتى لا أرفس برجلي الخلفيين، بينما كنت أتحين الفرصة فقط لأظهر رغبتي وحبي للعمل.

واندهشوا من أنني سرت كحصان محنك. وأخذوا يسوسونني وصرت أتدرب على العدو السريع. ومع كل يوم كنت أقوم بنجاحات كبيرة وكبيرة، حتى إن الجنرال نفسه بعد ثلاثة أشهر وآخرين كثيرين أثنوا على سيري. ولكن الغريب في الأمر أن سيري اتخذ عندهم معنى آخر، لا لشيء إلا لأنهم لم يتصوروني حصانهم بل حصان مدير الاسطبل.

أما أخوتي الفحول، فكانوا يدربونها على العدو ويقيسون سرعتها، ويخرجون للتفرج عليها، ويشدونها إلى العجلات المذهبة، ويلقون على ظهورها البرادع الغالية. وكنت أجر عجلة مدير الاسطبل البسيطة لقضاء شؤونه في تشيسمينكا، والقرى الأخرى.

وكل ذلك لأنني أبقع، والأهم لأنني لم أكن، حسب رأيهم، من أفراس الكونت، بل ملكاً لمدير الاسطبل.

غداً إذا بقينا أحياء، سأحدثكم عن الأثر الذي خلفه في حق الملكية هذا الذي أعطاه مدير الاسطبل لنفسه.

طوال ذلك اليوم عاملت الخيول الذراع باحترام. ولكن معاملة نيستر بقيت فظة، كما كانت. تقدم حصان الفلاح الرمادي من الرعيل، وأخذ يصهل، وعادت الفرس البنية إلى غنجها.

الفصل السابع

الليلة الثالثة

طلع الهلال كالمنجل النحيل، وأضاء قوام الذراع الواقف وسط الفناء. وكانت الخيول تتجمهر حوله.

ومضى الأبقع يقول:

ـ وكانت العاقبة الرئيسية المدهشة بالنسبة لي باعتباري ملكاً لمدير الاسطبل وليس لله ولا للكونت، هي أن مشيتي السبطة التي هي منقبتنا الأساسية، نحن الخيول، صارت سبباً لطردي. أخذوا يركبون البجعة للتدريب في الحلبة، بينما ركبني مدير الاسطبل من تشيسمينكا، ووقف عند الحلبة. مرت البجعة بنا. كانت تسير سيراً حسناً، ولكنها كانت تتبختر، على أية حال، وتفتقر إلى الحذاقة التي طورتها في نفسي وتتمثل في أن يمس حافري الأرض في اللحظة التي يرتفع فيها الحافر الآخر دون تضييع أقل جهد جزافاً، وتوفير كل جهد للاندفاع إلى الأمام. مرت البجعة بنا. صبوت إلى الحلبة، ولم يمنعني مدير الاسطبل من ذلك.

وصاح «ماذا لو يجرب حصاني الأبقع؟»، وحين حاذتنا البجعة للمرة الثانية تركني أذهب. وكانت البجعة قد أخذت المضمار في السرعة، ولهذا تأخرت عنها في الدورة الأولى، ولكنني في الدورة الثانية أخذت أضيق المسافة، وأقترب من العجلة، وصرت أحاذيها، وأسبقها حتى سبقتها. أعادوا المحاولة، وإذا بالنتيجة نفسها. كنت أسرع منها. فتملك الجميع الرعب. فقرروا أن يبيعوني إلى أبعد مشتر، حتى لا يسمعوا خبراً عني. وكانوا يقولون: «مصيبة لو يعرف الكونت». وباعوني إلى تاجر الخيول كحصان رئيسي في الجر. مكثت عند تاجر الخيول أسبوعاً. بعده اشتراني ضابط فرسان جاء لشراء الخيول لوحدته. وكل ذلك كان من الغبن والقسوة، بحيث سررت حين أخرجوني من خرينوفويا، وفرقوني إلى الأبد عن كل أقاربي وأحبائي. فقد كان العيش بينهم يرهقني كثيراً. لقد كان لهم الحب والاحترام والحرية، ولي العمل والإذلال، الإذلال والعمل إلى آخر حياتي! ولأي شيء؟ لأنني كنت أبقع، وبسبب ذلك كان علي أن أكون ملكاً لأحد.

لم يتمكن الذراع من الاستمرار في الحديث في ذلك المساء. فقد وقع في الاسطبل حادث أوقع الفزع الشديد في الخيول كلها. كانت كويتشيخا الفرس الحبلى التي لم تلد بعد تصغي إلى القصة في البداية، وإذا بها تستدير فجأة، وتنصرف إلى تحت السقيفة، ومن هناك أخذت تولول ولولة عالية لفتت انتباه جميع الخيول، وبعد ذلك انطرحت، ثم نهضت ثانية، وعادت فانطرحت. وفهمت الأمهات الكبيرات ما بها، ولكن الخيول الشابة قلقت، وتركت المخصي، وأحاطت بالعليلة. وعند الصباح ولد مهر جديد كان يتمايل على قوائمه. صاح نيستر على مدير

الاسطبل، وسيقت الفرس ومولودها إلى مربط، وخرجت الخيول إلى المرعى بدونها.

الفصل الثامن

الليلة الرابعة

في المساء، حين أغلقت البوابة، وهدأ كل شيء تابع الأبقع حديثه قائلاً:

- استطعت أن أجمع الكثير من الملاحظات حول الناس والخيول، أثناء كل تنقلاتي من أيد إلى أخرى. وأطول مدة قضيتها هي عند مالكين لي أحدهما أمير هو ضابط فرسان، والثاني امرأة عجوز قرب كنيسة القديس نيكولا صانع المعجزات*.

قضيت عند ضابط الفرسان أحسن فترة في حياتي.

ورغم أنه كان سبباً في تهلكتي، ورغم أنه لم يكن يحب أحداً من الناس ولا غير الناس، إلا أنني كنت أحبه لهذا السبب بالذات، وما أعجبني منه بالذات كونه جميلاً، سعيداً، غنياً، ولهذا لم يحب أحداً. أنتم تفهمون هذه العاطفة الرفيعة عندنا، نحن الخيول. لقد كانت برودته، وقسوته، واعتمادي عليه تعطي قوة خاصة لحبي نحوه. وكنت أفكر في أيامنا السعيدة تلك: «اقتلني، اركبني قدر ما تشاء، فإنني سأكون أسعد حالاً».

وكان قد اشتراني من بائع الخيول الذي باعني مدير الاسطبل له لقاء ثمانمائة روبل. وقد اشتراني لأن ما من أحد كان يملك حصاناً أبقع. وكان

---

* كنيسة بهذا الاسم في موسكو في شارع أرباط . الناشر .

ذلك أحسن فترة في حياتي. وكانت لضابط الفرسان عشيقة. وقد عرفت ذلك لأنني كنت أحمله إليها كل يوم، وأحملها، وأحياناً كنت أحملهما سوية. وكانت عشيقته جميلة، وهو أيضاً كان وسيماً، وحوذيه كان وسيماً. وقد أحببتهم جميعاً على جمالهم. وكنت ألتذ في حياتي. وكانت حياتي تسير على المنوال التالي: في الصباح يأتي السائس لينظفني، لا يأتي الحوذي نفسه، بل السائس. وكان السائس فتى حيوياً أخذ من الفلاحين. وكان يفتح الباب، ويترك بخار الخيول يخرج، ويرفع الروث، ويخلع البرادع، ويأخذ يقشط جسدي بالمحسة، ويترك القشور تسقط في صفوف بيضاء على قش الأرضية المحفورة المثلمة وكنت أعض ردنه مزاحاً، وأضرب بحافري. ثم كانوا يأخذوننا واحداً بعد الآخر إلى صهريج الماء البارد، ويتمعن الفتى بحافري العريض، وفي كفلي اللامع وظهري المستقيم كالفراش. وكانوا يضعون الدريس وراء المشبكات العالية، ويصبون الشوفان في مذاود بلوطية. وبعد ذلك كان يأتي فيوفان رئيس الحوذية.

كان المالك والحوذي متشابهين. فهذا وذاك لم يكونا يخشيان شيئاً، ولا يحبان أحداً ما عدا نفسيهما، وعلى ذلك كان الجميع يحبونهما. كان فيوفان يرتدي قميصاً أحمر وسروالاً من الخمل القطني الرخيص الأسود، وقفطاناً داخلياً قصيراً بلا أكمام. وكنت أحبه حين كان يأتي إلى الاسطبل في العيد بقفطانه ذاك مدهون الشعر بمرهم عطري، ويصيح: «أها، يا حيوان، نسيتني!» ويوخز فخذي بمقبض المذراة، ولكن دون أن يؤلمني قط، بل لمجرد المزاح. وكنت أفهم المزحة فوراً، وأرخي أذني، وأطقطق بأسناني.

كان عندنا فحل أسحم يعمل مع حصان آخر. وكانوا يشدونني معه إلى عربة في الليالي. كان «بولكان» هذا لا يحب النكات، وكان شيطاناً غضوباً تماماً. كنت أقف إلى جانبه في المربط المجاور، وأحدنا يعض الآخر عن جد، وليس عن مزاح. وكان فيوفان لا يهابه.

فكان أحياناً يتقدم منه تماماً، ويصيح، وكأنما سيقتله، ولكنه يمر به، ويعود ليلبسه الرسن. وذات مرة انطلقت أعدو معه إلى الأسفل في شارع كوزنيتسكي موست. لم يرتعب مالكنا ولا الحوذي، وراح كلاهما يضحك، ويصيح بالناس ويكبحنا، ويستدير فلم يصب أحد.

لقد ضيعت في خدمتهم أفضل صفاتي، ونصف عمري. فقد تركوني أشرب كثيراً وأتلفوا قوائمي. ومع ذلك، فقد كان ذلك أفضل فترة في حياتي. وفي الساعة الثانية عشرة كانوا يأتون، ويشدونني، ويدهنون حوافري، ويبللون ناصيتي وعرفي، ويضعونني بين العريشين.

كانت الزلاجة من القصب المضفور المدبج بالمخمل، والعدة ذات أبازيم فضية صغيرة، والأعنة حريرية وكذلك الشبكة وكانت العدة محكمة بحيث إذا ربطت كل السيور والأحزمة وشبكت لا تستطيع أن تتبين أين تنتهي العدة، وأين يبدأ الحصان. وغالباً ما يشدون العدة في السقيفة. وكان فيوفان وكتفاه أعرض من الخلف، ونطاقه تحت إبطيه، يتقدم ويتفقد العدة، ويركب، ويعدل قفطانه، ويضع قدميه في الركاب، ويمزح بشيء على عادته دائماً، ويعلق السوط الذي لا يكاد يسوطني به للمظهر فقط، ويقول: «انطلق»، وأغادر البوابة، متفنناً بكل خطوة، فتتوقف الطباخة على العتبة، وقد خرجت لتسكب ماء الغسيل، ويحملق الريفيون الذين كانوا يجلبون الحطب إلى الفناء. ونخرج. ونمر بهم، ونتوقف.

ويخرج الخدم، ويقترب الحوذية، وتجري الأحاديث. وننتظر جميعاً، ثلاث ساعات أحياناً واقفين عند المدخل، وأحياناً نروح ونجيء، ونتوقف ثانية.

وأخيراً تحدث ضجة عند الباب، ويأتي تيخون الأشيب الأكرش راكضاً في سترته الفراك: «قدم العربة!». في تلك الأوقات لم تكن هذه الطريقة الحمقاء في حث الحصان: «إلى الأمام»، وكأنني لا أعرف أن العربة تسير إلى الأمام، وليس إلى الخلف. ويتمطق فيوفان. ويقترب، ويخرج عجولاً متهاوناً، وكأنما لا شيء يثير الدهشة لا في هذه الزلاجة، ولا في الحصان، ولا في فيوفان الذي يحني ظهره، ويمد ذراعيه بشكل يجعلك تظن أن من المستحيل أن يظل على هذا الوضع وقتاً طويلاً، ويخرج الأمير في قبعة عسكرية، ومعطف ذي ياقة رمادية من فراء السمور، يحجب وجهه المتورد الجميل الأسود الحاجبين، وهو في غنى عن حجبه. يخرج مصلصلاً بسيفه ومهمازيه، وكعبيه النحاسيين، يطأ البساط كالمستعجل، ودون أن يلتفت إلي ولا إلى فيوفان مخالفاً بذلك جميع الناس الذين لا يكفون عن النظر والاستمتاع به ويصدر فيوفان مطقة بلسانه، فأسحب الأعنة، وأسير في خطى رصينة ونتوقف. وألقي نظرة جانبية على الأمير، وأهز رأسي الأصيل بناصيته الناعمة. والأمير رائق المزاج، يمزح مع فيوفان، وفيوفان يرد عليه مميلاً رأسه الجميل قليلاً، ويحرك العنان دون أن يخفض يديه، حركة لا تكاد تلحظ، أفهمها أنا، فأخب موسعاً خطاي، وكل عضلة تنبض في، قاذفاً الثلج الموحل من تحت حوافري إلى مقدمة الزلاجة. في تلك الأوقات أيضاً لم تكن هناك تلك الصيحة البلهاء «ايخ!» وكان الحوذي يعلن بها عن شيء يوجعه، بل كان

هناك شيء آخر غير مفهوم هو «احترس!» وفيوفان يصرخ بـ «احترس» هذه، والناس يتنحون، ويتوقفون، ويميلون برقابهم لينظروا إلى المخصي الجميل، والحوذي الجميل، والسيد الجميل.

كنت أحب أن أسبق العداء من الخيول. فحين نبصر ـ فيوفان وأنا ـ عربة بعيدة تستحق منا بذل الجهد، نأخذ بالتسابق في انطلاقة العاصفة، ونأخذ بالاقتراب أكثر فأكثر، حتى يصيب رشاش الوحل ظهر الزلاجة، وأحاذي الراكب فيها، وأصهل فوق رأسه، وأصاقب وسط الحصان، والقوس، ثم أخلفه ورائي فلا أبصره، بل أسمع صوته المتنائي عنه. وجميعنا صامتون: الأمير وفيوفان وأنا، نتظاهر بأننا سائرون في شؤوننا غير ملتفتين إلى من يصادفنا من المستقلين عربات تجرها خيول رديئة. لقد كنت أحب التسابق، ولكنني كنت أحب أيضاً أن ألتقي بعداء جيد قادم من الجهة المقابلة فما هي إلا لحظة وصوت ونظرة، نفترق بعدها، ثم نعود إلى السير وحيدين، كل إلى وجهته.

صرفت البوابة، وتردد صوت نيستر وفاسكا.

الليلة الخامسة

أخذ الطقس يتغير. السماء ملبدة منذ الصباح، ولا قطرة ندى، ولكن الجو دافئ، والبعوض يضايق. وما إن عاد الرعيل إلى مرابطه حتى تحلق حول الأبقع، فأنهى هذا قصته على هذا النحو:

ـ انتهت حياتي السعيدة سريعاً، ولم تستمر غير عامين. وفي نهاية الشتاء الثاني وقع أبهج حدث بالنسبة لي، أعقبه أكبر فاجعة حلت بي. وكان ذلك في أيام المرافع، حين حملت الأمير للسباق الذي جاء أطلس

وبيتشوك للاشتراك فيه. أنا لا أعرف ماذا فعل الأمير أثناء وجوده في التعريشة، ولكنني أعرف أنه خرج منها، وأمر فيوفان بأن يأخذني إلى الحلبة. أتذكر أنهم أنزلوني إلى الحلبة. وأنزلوا أطلس أيضاً. وكان أطلس مربوطاً إلى عجلة خفيفة، وأنا إلى زلاجة المدينة، كما كنت. تخطيته في المنعطف، فاستقبلت بالضحك وهدير الانشراح.

وحين أخرجوني من الحلبة سار ورائي حشد من الناس، وعرض خمسة أشخاص ألوف الروبلات على الأمير. فاكتفى هذا بالابتسام كاشفاً عن أسنانه البيضاء.

وكان يقول:

- ليس هذا حصاناً، بل صديق، لن أبادله بتل من الذهب. إلى اللقاء، يا سادة.

وأزاح غطاء الزلاجة وجلس فيها.

- إلى ستوجينكا*.

وكان منزل عشيقته يقع هناك. فانطلقنا إليه. وكان ذلك يومنا السعيد الأخير.

وصلنا إليها. كان يقول إنها لي. ولكنها أحبت رجلاً آخر، ورحلت معه. وقد عرف ذلك لدى وصوله إلى منزلها. كانت الساعة تشير إلى الخامسة، ولكنه لم يفكني من الزلاجة، وانطلق بي يلاحقها. وحدث ما لم يحدث من قبل، إذ أخذوا يسوطونني، ويحثونني على العدو. وتعثرت لأول مرة، فخجلت من نفسي، وأردت أن أكفر عن زلتي، إلا أنني سمعت الأمير يصرخ فجأة بأعلى صوته: «اسرع!»، وهز السوط في

---

* أو «أوستوجينكا». تسمية قديمة لأحد شوارع موسكو. الناشر.

الهواء، وساطني، فانطلقت أعدو ضارباً رجلي بحديدة المقدمة. ولحقنا بها بعد خمسة وعشرين فرسخاً. أوصلته إليها، ولكنني ظللت أرتعش طوال الليل، ولم أستطع أن آكل شيئاً. وفي صباح اليوم التالي قدموا لي الماء. شربت، ومنذ ذلك الحين لم أعد ذلك الحصان الذي كنته وإلى الأبد. مرضت، فعذبوني وعقروني - أو على حد تعبير الناس: عالجوني. ارتخت حوافري، وأصابتها القرح، وتقوست قوائمي، وانخسف صدري، ودب الوهن والضعف في كل جسمي. فباعوني إلى تاجر خيول. فكان هذا يطعمني الجزر، وطعاماً آخر، وجعل مني مخلوقاً لا يشبهني تماماً، إلا أن الجاهل في الخيول يمكن أن ينخدع به. ولكنني لم أعد أقوى على شيء، ولا أقدر على الجري. وفضلاً عن ذلك أخذ تاجر الخيول هذا يعذبني بالدخول إلى مربطي حالما يأتي راغب في شرائي، ويضربني بالسوط لتخويفي، حتى جن جنوني. وبعد ذلك كان يمسح آثار السياط عني، ويخرج بي. اشترتني امرأة عجوز من تاجر الخيول هذا.

فظلت تسير بي إلى كنيسة القديس نيكولا صانع المعجزات، وتضرب حوذيها بالسوط. فكان الحوذي يبكي في مربطي. وعند ذلك عرفت أن للدموع مذاقاً مالحاً لطيفاً. ثم توفيت العجوز. فأخذني وكيل أعمالها إلى القرية، وباعني إلى صاحب حانوت، وبعد ذلك أكثرت من أكل القمح فتفاقم دائي. فباعوني إلى فلاح. أخذت أحرث له. ولا أكاد أتناول شيئاً من الطعام، وأضرت سكاكين المحراث بقدمي. فعاودني المرض. فقايضني مع غجري. وعذبني عذاباً مريراً وأخيراً باعني إلى الوكيل الحالي. وها أنا هنا.

الفصل التاسع

في مساء اليوم التالي حين كان الرعيل عائداً إلى مرابطه التقى بمالك الخيول ومعه ضيف. وبينما كانت جولديبا تقترب من البيت رمقت بمؤخر عينها شخصين أحدهما المالك الشاب بقبعته القشية، والثاني عسكري طويل القامة بدين مترهل. رمقت الفرس العجوز هذين الشخصين، ومرت سائرة على مقربة. أما الخيول الأخرى، الشابة، فقد ارتبكت، واضطربت، لا سيما حين دخل المالك وضيفه بينها عن قصد. وراحا يتحدثان وأحدهما يشير بشيء إلى الآخر.

كان مالك الخيول يقول:

ـ اشتريت هذا الحصان الرمادي الأرقط من فويبكوف.

وكان الضيف يسأل:

ـ لمن هذا الحصان الأسحم الفتي الأبيض القوائم؟ إنه حصان جميل.

وتفقدا خيولاً كثيرة، راكضين وراءها، موقفين إياها. كما وقع اختيارهما على المهر البني. قال المالك:

ـ لقد بقي هذا من نسل خرينوفويا لخيول الركوب.

لم يستطع الرجلان تفقد كل الخيول، أثناء سيرها. صاح المالك ينادي نيستر، فجاء العجوز هذا يرقل على الحصان الأبقع واخزاً جنبيه بكعبيه. راح الأبقع يقزل برجل واحدة، باذلاً قصارى جهده، فبدا واضحاً أنه لن يتردد في العدو إلى آخر الدنيا قدر ما تسعفه قواه. بل وكان مستعداً لأن يرقل، ويجهز على قدمه اليمنى.

ـ أتجرأ على القول إن هذا المهر أفضل حصان في روسيا، ـ قال المالك مشيراً إلى أحد الأمهار. وأبدى الضيف إعجابه. كان المالك يسير

هنا وهناك منفعلاً، ويركض، ويشير ويتحدث عن تاريخ ونسل كل حصان. والظاهر أن الضيف ضجر من الاستماع إلى مالك الخيول، فكان يختلق الأسئلة ليظهر بمظهر المهتم بذلك. كان يردد ساهماً:

- نعم، نعم.

وكان المالك يقول دون أن يرد على أسئلته:

- أنظر، أنظر إلى هذه القوائم... كلفتني ثمناً باهظاً، ولكنها ولدت للمرة الثالثة حصاناً عداء.

قال الضيف:

- يعدو جيداً؟

وعلى هذا المنوال تفقد الرجلان جميع الخيول تقريباً، ولم يبق شيء يشاهدانه. فسكتا.

- طيب، هل نذهب؟

- لنذهب. - وسارا في البوابة. وكان الضيف مسروراً بانتهاء العرض، والذهاب إلى البيت، حيث كان من الممكن أن يأكل ويشرب ويدخن، وبدا عليه الانشراح. وحين مر الضيف بنيستر الذي كان راكباً على صهوة الأبقع منتظراً الأوامر، ربت بيده الكبيرة الممتلئة على كفل الأبقع وقال:

- يا له من مزركش! كان لي حصان أبقع مثله. لقد حدثتك عنه. أنت تذكر.

ولم يول المالك أذناً لمحدثه، وهو يذكر حصاناً آخر وراح يتفقد خيوله منقلاً بصره بينها.

وفجأة بلغ سمعه صهيل واهن شائخ. وكان هذا الصهيل صادراً من الأبقع، إلا أنه بدا كالمرتبك، فانقطع دون أن يتمه.

ولم يثر هذا الصهيل انتباه الضيف، ولا مالك الخيول. سار الرجلان إلى البيت. وعندئذ عرف الذراع في شخص ذلك العجوز المترهل صاحبه المحبوب سيربوخوفسكي الثري الوسيم اللامع فيما سبق.

الفصل العاشر

ظل المطر ينث. وكان الاسطبل مظلماً، بينما كان الوضع في بيت السيد مختلفاً جداً. فقد كانت مائدة الشاي المسائية الفاخرة معدة في غرفة الطعام الفاخرة. وقد جلس السيد والسيدة والضيف القادم يحتسون الشاي.

كانت سيدة البيت حاملاً، يبدو ذلك بوضوح شديد من بطنها المرتفع، ومن وضعها المتصلب المقوس، ومن امتلائها، ومن عينيها الواسعتين على الأخص، المستغرقتين في الداخل بدماثة خلق، وهي جالسة وراء السماور.

كان سيد البيت يحمل في يده علبة سيغار فاخر مخمر لعشر سنين لا يملكه أحد غيره، على حد تعبيره، وقد تهيأ ليفخر به أمام ضيفه. كان هذا السيد وسيماً في نحو الخامسة والعشرين من العمر، غضاً، متأنقاً، مصفف الشعر. وكان وهو في بيته، يرتدي بدلة قشيبة من القماش الصوفي السميك مفصلة في لندن. وفي سلسلة ساعته تحليات ثمينة كبيرة. وفي كمي قميصه زران كبيران، ضخمان أيضاً من الذهب والفيروز. ولحيته على طراز نابليون الثالث، وطرفا شاربيه الشبيهان بذيل الفأر مدهونان ناتئان بطريقة لا تؤتى إلا في باريس. وسيدة البيت في ثوب حريري شفاف محلى بباقات زهور زاهية، تضع على رأسها

دبابيس ذهبية كبيرة ذات طراز خاص تصف بها شعرها الكتاني الكثيف الجميل رغم أنه ليس شعرها الأصلي. وفي يديها الكثير من الأساور والخواتم وكلها ثمينة. والسماور فضي، وعدة الشاي من الصيني الرقيق.

والخادم المهيب في سترة الفراك والصدار الأبيض والرباط يقف عند الباب كالصنم، منتظراً الأوامر. والأثاث محفور ومدور وساطع، وورق الحائط داكن ذو أزهار كبيرة. وقرب المائدة كلب بيتي أصيل يصلصل بسلسلته الفضية، ناعم بشكل غير اعتيادي، له اسم إنكليزي صعب جداً، لا يستطيع كلاهما أن ينطق به، لجهله باللغة الإنجليزية. وفي الركن بيانو incrusté* يقف وسط الزهور. وكل شيء يشع جدة وترفاً وندرة. وكل شيء جيد جداً، لولا ذلك الطابع المعين من البذخ والثراء وغياب الاهتمامات العقلية.

كان سيد البيت مولعاً بسباق الخيول، قوياً بادي الحيوية، من أولئك الذين لا تنطفئ شعلتهم أبداً، والذين يرتدون معاطف فراء السمور، ويلقون باقات الزهور للممثلات، ويشربون أغلى أنواع الخمور، ومن أجد الماركات، في أغلى المطاعم، ويقدمون الجوائز بأسمائهم، ويعيلون أغلى المحظيات.

والضيف، نيكيتا سيربوخوفسكوي، رجل في نحو الأربعين من العمر، مديد القامة، أصلع، له شاربان كبيران، وقذالان. لا بد أنه كان وسيماً جداً في صباه. أما الآن فقد انهد، كما يبدو، جسدياً، ومعنوياً، ومالياً.

* مرصع . (بالفرنسية في الأصل) .

كان غارقاً في الديون بحيث اضطر إلى أن يخدم في وظيفة ليقي نفسه من طائلة السجن للتعويض عن ديونه. وقد جاء هذه المرة إلى الولاية يرأس مؤسسة تربية الخيول. وقد حصل له على هذه الوظيفة أقرباؤه ذوو الشأن. كان يرتدي صدرة عسكرية، وبنطلوناً أزرق. والصدرة والبنطلون كلاهما لا يتوفران إلا للأغنياء من الناس، وثيابه الداخلية أيضاً وساعته إنجليزية، وحذاؤه الطويل ذو نعلين رائعين بسمك الاصبع.

كان نيكيتا سيربوخوفسكوي قد بذر في حياته ثروة تقدر بمليوني روبل، وهو الآن مدين بمائة وعشرين ألف روبل. ومثل تلك الثروة توفر للإنسان دائماً أهلية وإمكانية لأن يعيش عشر سنين إضافية عيشة رفاه تقريباً. وقد انقضت هذه السنون، واستنفد نيكيتا أهليته، وصارت حياته كئيبة. فأخذ يلجأ إلى الشراب، أي يسكر، وهو شيء لم يحصل له من قبل. وفي الحقيقة لم يبدأ نيكيتا بالشرب ولم ينته منه قط. لقد كانت حالته المنهارة تلوح، قبل كل شيء، في قلق نظراته (بدأت عيناه تزيغان) وفي تخلخل كلامه وحركاته. والمبهر في هذا القلق أنه حديث النشأة، على ما يبدو، فقد كان واضحاً أن نيكيتا قد تعود منذ زمن بعيد على أن لا يخاف شيئاً ولا أحداً من الناس طوال حياته، وأن همومه المضنية الحديثة قد أوصلته منذ أمد ليس بالبعيد إلى حالة الرعب هذه، الطارئة جداً على طبيعته. وكان سيد البيت وسيدته يلحظان ذلك، ويتبادلان النظرات فيما بينهما دلالة على أن أحدهما يفهم الآخر، ويؤجلان إلى وقت النوم مناقشتهما المفصلة عن هذا الموضوع، صابرين على نيكيتا المسكين، بل ومهتمين به. وكان لألاء السعادة البادي على

صاحب الدار الشاب يجعل نيكيتا يشعر بالضعة، ويقسره على أن يحسده بشكل ممرض، متذكراً ماضيه الذي لا يعود.

ـ ألا تنزعجين من تدخيننا السيغار، يا ماري؟ ـ قال مخاطباً السيدة بتلك اللهجة المعينة المراوغة التي لا تتأتى إلا لمن له خبرة كبيرة ـ اللهجة المهذبة الودود وغير المترعة بالاحترام التام، والتي يتحدث بها رجال المجتمع مع عشيقاتهم وليس مع زوجاتهم. لا لأنه كان يريد أن يهينها، بل على العكس، كان يريد التودد إليها وإلى سيد البيت، وإن كان من غير الممكن أن يعترف بذلك. ولكنه كان قد تعود على أن يتحدث بهذا الشكل إلى سيدات مثلها. وكان يعرف أنها ستندهش، بل وستتكدر لو يعاملها كما يعامل سيدة. وفي الوقت ذاته كان عليه أن يحتفظ بتلك النبرة المعروفة من الاحترام ليخاطب بها زوجة حقيقية لصديق ند له. إنه كان يعامل مثل هؤلاء السيدات باحترام دائماً، لا لأنه يعتنق ما يسمى بالمعتقدات التي يبشر بها في المجلات (فقد كان لا يقرأ قط مثل هذه السفاسف) عن احترام شخصية كل إنسان، وتفاهة الزواج وما إلى ذلك، بل لأن جميع الناس المعتبرين يتصرفون هذا التصرف، وقد كان إنساناً معتبراً، ولو كان منهاراً.

أخذ سيغارا. ولكن سيد البيت تناول حفنة من السيغارات بطريقة سمجة وقدمها للضيف.

ـ خذها، وسترى كم هي جيدة.

رفض نيكيتا السيغارات بحركة من يده، ورف في عينيه طيف لا يكاد يبين من الإهانة والخجل.

ـ شكراً. ـ وأخرج علبة سيغاراته ـ جرب سيغاراتي.

كانت السيدة ذات إحساس رهيف. فطنت إلى ذلك، وأسرعت تتحدث إليه:

ـ أحب السيغار كثيراً. ولولا أن الجميع حولي يدخنون، لدخنت أنا نفسي.

وابتسمت ابتسامتها الجميلة اللطيفة. فرد عليها بابتسامة مترددة كشفت عن فراغ سنين مفقودتين من أسنانه. ومضى صاحب الدار القليل الإحساس:

ـ لا، الأفضل أن تأخذ هذا. السيغارات الأخرى أضعف، ـ ونادي:

يا فريتز Bringen sie noch eine Kasten–

ثم أضاف: dort zwei*

جلب الخادم الألماني علبة أخرى.

ـ أي السيغارات تحب أكثر؟ القوية منها؟ هذه جيدة جداً. خذها كلها، ـ مضى على إصراره. والظاهر أنه كان مسروراً بأن يتفاخر بنوادره أمام شخص ما، ولم يكد يلحظ شيئاً. أشعل سيربوخوفسكوي سيغاراً، وأسرع يتابع ما انقطع من الحديث:

ـ إذن، كم كلفك أطلسني؟

ـ كلفني غالياً، ما لا يقل عن خمسة آلاف، ولكنه عوض لي ما دفعته ثمناً له. ثم ما أروع ذريته!

سأل سيربوخوفسكوي:

ـ عداءة؟

---

* اجلب علبة أخرى. هناك اثنتان (بالألمانية في الأصل).

ـ جداً. في هذه السنة حصل ابنه على ثلاث جوائز: في تولا، وموسكو، وبطرسبورغ. تسابق مع حصان فوييكوف الأسحم. ولولا ارتكاب راكبه الوغد أربع غلطات لنال قصب السبق.

قال سيربوخوفسكوي:

ـ رطب بعض الشيء. فيه الكثير من الدم الهولندي. هذا رأيي.

ـ وماذا عن المهترين؟ سأريك إياهما غداً. دفعت ثلاثة آلاف عن دوبرينيا وألفين عن لاسكوفيا.

وعاد المالك يعدد ثروته من جديد. فطنت سيدة البيت إلى أن ذلك يثقل على سيربوخوفسكوي وأنه يتكلف الاستماع. سألت:

ـ ألا تريدان المزيد من الشاي؟

ـ لا أريد.

قال سيد البيت، ومضى في حديثه. فنهضت. أوقفها الرجل، وعانقها، وقبلها.

شرع سيربوخوفسكوي يبتسم لهما وهو ينظر إليهما، ابتسامة مصطنعة، ولكن وجهه تغير فجأة، حين نهض صاحب الدار، وخرج معها إلى الباب وهو يحتضنها، وزفر سيربوخوفسكوي زفرة ثقيلة، وارتسم القنوط فجأة على وجهه المترهل. بل ولاح الغيظ عليه.

الفصل الحادي عشر

عاد صاحب الدار، وجلس مقابل نيكيتا مبتسماً صمت الاثنان.

ثم قال سيربوخوفسكوي، وكأنما ذلك عرضاً:

ـ أها، قلت إنك اشتريته من فوييكوف.

ـ نعم، اشتريت أطلسني منه، كما كنت أقول. ولدي رغبة مستديمة في أن أشتري فرساً من دوبوفيتسكي. ولكن لم يبق لديه غير التوافه.

ـ لقد أفلس. ـ قال سيربوخوفسكوي، وتوقف فجأة، وتلفت فيما حوله. فقد تذكر أنه مدين لهذا المفلس بعشرين ألف روبل.

وإذا كان يصفه بـ «المفلس» فماذا سيقول الناس عنه هو؟ لزم الصمت.

غرق كلاهما ثانية في صمت طويل. كان صاحب الدار يستجمع في ذهنه ما يفخر به أمام الضيف. وكان سيربوخوفسكوي يفكر في أن يقول شيئاً ينفي عنه الإفلاس. ولكن كليهما كان في ضنك من التفكير، رغم أنهما كانا يحاولان أن يختارا لنفسيهما سيغاراً. فكر سيربوخوفسكوي: «متى سيقدم لي شراباً؟» وكان صاحب البيت يفكر: «يجب أن نحتسي شيئاً، وإلا سيقتلني الضجر منه».

قال سيربوخوفسكوي:

ـ هل ستمكث هنا مدة طويلة؟

ـ حوالي شهر آخر. حسناً، هل نتعشى؟ فريتس، هل العشاء جاهز؟

وخرجا إلى غرفة الطعام، حيث وضعت تحت المصباح مائدة صفت عليها الشموع وأغرب الأشياء: صفاح المياه الغازية، وزجاجات عليها سدادات من الدمى ونبيذ غير اعتيادي في قوارير، ومشهيات غير اعتيادية، وفودكا. شربا وأكلا، ثم شربا مرة أخرى وأكلا، وانعقد الحديث بينهما. احمر سيربوخوفسكوي وأخذ يتحدث دون تهيب.

صارا يتحدثان عن النساء. هذا له عشيقة غجرية، وذلك راقصة، وهذا فرنسية. وسأل المضيف:

ـ يعني ما تركت ماتيه؟

وهي العشيقة التي خربت سيربوخوفسكوي.

ـ ليس أنا الذي تركتها، بل هي التي تركتني. آه، يا أخ، حين يتذكر المرء ما ضيع في حياته! والآن أنا سعيد بالحصول على ألف روبل، وسعيد بالابتعاد عن الجميع. لا أستطيع العيش في موسكو بعد الآن. ذلك مؤكد.

كان المضيف يشعر بالضجر من الاستماع إلى سيربوخوفسكوي فقد كان يريد التحدث عن نفسه، والتباهي. بينما كان سيربوخوفسكوي يحب التحدث عن نفسه، وعن ماضيه اللامع. صب المضيف قدحاً لضيفه، وانتظر أن يفرغ من حديثه، ليحدثه عن نفسه، وكيف أقام منشأته على نحو لم يكن لأحد مثيل له من قبل.

وأن ماريا لا تحبه لماله فقط، بل ومن صميم قلبها. وأنشأ يقول:

ـ كنت أود أن أحدثك أن في منشأتي...

إلا أن سيربوخوفسكوي قاطعه، وقال:

ـ يمكنني القول إنني في وقت من الأوقات أحببت وقدرت أن أعيش. ها أنت تتحدث عن ركوب الخيل، طيب، قل لي ما هو أسرع حصان لديك؟

سر صاحب البيت من سنوح الفرصة للتحدث مرة أخرى عن خيوله، فشرع يقول، ولكن سيربوخوفسكي قاطعه ثانية قائلاً:

ـ نعم، نعم، هذا عندكم، عند مربي الخيول، للمباهاة فقط، وليس للاستمتاع، وليس للحياة، ولم يكن هذا شأني. لقد كنت أحدثك قبل قليل أنني كنت أملك حصان ركوب أبقع، كذلك الذي كان يمتطيه راعي

خيولك. آه، أي حصان كان! ما كنت ستصدق. كان ذلك عام ١٨٤٢، وكنت قد وصلت إلى موسكو لتوي، وذهبت إلى بائع خيول فرأيت عنده حصاناً مخصياً أبقع، مواصفاته جيدة، أعجبتني.

والسعر؟ ألف روبل. أعجبني فاشتريته، وأخذت أستخدمه لركوبي. لم يكن لي، ولن يكون لك أيضاً، مثل هذا الفرس. لم أعرف أحسن منه عدواً ولا ضلاعة ولا جمالاً. كنت في ذلك الحين صبياً، وما كان لك أن تعرف، ولكنك سمعت عنه، على ما أظن.

كانت موسكو كلها تعرفه.

قال صاحب الدار على مضض:

- نعم، سمعت. ولكن كنت أريد أن أحدثك عن خيولي.

- كيف سمعت. لقد اشتريته على الماشي، دون أن أعرف أصله ولا فصله، وقد عرفت فيما بعد. توصلت إلى ذلك مع فوبيكوف، فعرفت أنه ذراع بن مهذب الأول. يذرع الأرض ذرعاً.

وهبوه لمدير الاسطبل في منشأة خرينوفويا بسبب تبقعه، فخصاه هذا، وباعه لبائع خيول. لا نظير له في الخيول، يا أخ! آه، كان ذلك زمناً مشهوداً! آه، يا شبابي! - تغنى بهذا البيت من أغنية غجرية. فقد بدأ يسكر. - كان زمناً رائعاً. كنت في الخامسة والعشرين، وكان لي آنذاك سبعون ألف روبل فضي من الدخل، وما من شعرة شيب واحدة، وأسناني كلها منضودة كاللآلئ، وأوفق في كل ما أقدم عليه، وقد ضاع كل شيء.

قال صاحب الدار منتهزاً التوقف عن الكلام:

- في ذلك الزمان لم تكن للخيول هذه السرعة. سأريك كيف صارت خيولي الأولى تسير بلا...

ـ خيولك! في ذلك الزمان كانت هناك خيول أسرع.

ـ كيف أسرع؟

ـ أسرع. وكما أتذكر الآن خرجت عليه لأشاهد السباق في موسكو ذات مرة. ولم تكن لي خيول سباق، فقد كنت لا أحبها، كانت لي خيول أصائل: جنرال، وشوليه، وماغوميت. وكنت أستخدم الأبقع في عربتي، كما كان لي حوذي شاب رائع كنت أحبه. صار يعكف على الشراب أيضاً. وقد ذهبت إلى هناك، فقالوا لي: سيربوخوفسكوي، متى ستربي خيول سباق؟ قلت لهم: اللعنة على خيولكم الريفية كلها، فإن حصاني الأبقع الذي يجر عربتي سيغلب كل خيولكم. قالوا: لن يغلبها. قلت لنتراهن على ألف روبل. فاتفقنا. وأطلقنا الخيول. وسبقها بخمس ثوان وكسبت الألف روبل من الرهان. وهذا لا شيء. ذات مرة قطعت على ترويكا من ثلاث خيول عداءة مائة فرسخ في ثلاث ساعات. وموسكو كلها تعرف ذلك.

وأخذ سيربوخوفسكوي يكذب ببراعة وطلاقة، حتى إن مضيفه لم يستطع أن يتدخل بكلمة واحدة، فجلس قبالته جزع الوجه، يصب النبيذ في الأقداح لضيفه ولنفسه للهو فقط.

بدأت الدنيا تتنور، وهما ما يزالان على جلستهما. وقد ضجر المضيف ضجراً موجعاً. فنهض.

ـ إذا حل النوم نمنا، ـ قال سيربوخوفسكوي وهو ينهض مترنحاً، وسار إلى الحجرة المخصصة له نافخاً الهواء بخديه.

كان صاحب الدار يضطجع مع عشيقته.

ـ لا، إنه لا يحتمل مطلقاً. سكر وظل يكذب طوال الوقت.

ـ ويغازلني.
ـ أخشى أن يستدين نقوداً مني.
واستلقى سيربوخوفسكي في السرير في كامل ثيابه، ونفخ خديه. وفكر: «يبدو أنني كذبت كثيراً. ولكن لا يهم. النبيذ جيد، ولكن الرجل خنزير كبير. متاجر. وأنا أيضاً خنزير كبير ـ قال محدثاً نفسه وضحك. ـ كنت أعيل الآخرين، وهم الآن يعيلونني.
أجل، امرأة فينكلر تعيلني. وأنا آخذ منها فلوساً. هذا ما يستحقه. على أية حال يجب أن أخلع ملابسي. صعب أن أخلع حذائي».
ـ هاي! هاي! ـ نادى سيربوخوفسكي، ولكن الخادم الذي خصص له كان قد ذهب لينام منذ وقت طويل.
جلس، وخلع صدرته، وصداره، واستطاع أن يخلع البنطلون عنه بطريقة ما، ولكنه ظل يعالج طويلاً ليجر حذاءه، وكرشه الرخو كان يعيقه. سحب فردة على نحو ما، وظل يصارع الأخرى، ويصارع، ويلهث حتى تعب. وبهذا الشكل ارتمى، والفردة الأخرى ما تزال في ساقه، وراح يشخر، مالئاً الحجرة كلها برائحة التبغ والنبيذ والشيخوخة العفنة.

الفصل الثاني عشر

كان من الممكن أن يتذكر الذراع أشياء أخرى في تلك الليلة، لو لم يشغله فاسكا. ألقى عليه قماشة الظهر، وانطلق عليه، وأبقاه حتى الصباح عند باب حانة مع حصان عائد إلى فلاح. لحس أحدهما الآخر، وفي الصباح انضم الذراع إلى الرعيل، وظل يهرش جلده. وكان يقول لنفسه: «شيء يوجعني فاهرشه».

مضت خمسة أيام. واستدعي الطبيب البيطري. فقال بسرور:

ـ جرب. بيعوه إلى الغجر.

ـ ولم؟ انحره ولن تبقى له على أثر منذ اليوم.

الصباح هادئ صاف. خرج الرعيل إلى المرعى، وبقي الذراع في مربطه. جاء رجل غريب، نحيل، أسود، قذر، في قفطان ملطخ بشيء ما. كان ذلك هو السلاخ. تناول رسن الذراع دون أن ينظر إليه، وساقه إلى الخارج. سار الذراع بهدوء، دون أن يتلفت، يجرجر أرجله، كما هو دائماً، مشربكاً قائمتيه الخلفيتين بالقش. ولما ترك البوابة، دفع جسمه نحو البئر، إلا أن السلاخ جذبه، وقال: «لا حاجة بك للماء بعد الآن».

وصل السلاخ وفاسكا الذي كان يسير في الخلف إلى وهدة وراء سقيفة آجرية. وتوقفا وكأن في هذا المكان الاعتيادي شيئاً ملفتاً للنظر، وأعطى السلاخ المقود إلى فاسكا، وخلع قفطانه، وطوى ردنيه، وأخرج من رأس حذائه سكيناً ومسناً، وأخذ يشحذ السكين على المسن. مال المخصي إلى الرسن يريد أن يعلكه دفعاً للضجر، ولكن ذلك كان بعيداً عنه، فتنهد، وأغمض عينيه.

وتدلى مشفره، وتكشفت أسنانه الصفراء المنخورة، وصار يهوم ناعساً على أصوات السكين وهي تشحذ، لولا اختلاجة رجله الموجعة المقرحة. وفجأة شعر بأنه يؤخذ من بلعومه، ويرفع رأسه إلى فوق. فتح عينيه. فرأى أمامه كلبين، أحدهما يتشمم الهواء باتجاه السلاخ، والثاني جالس ينظر إلى المخصي وكأنما ينتظر شيئاً منه بالذات. نظر المخصي إليهما، وأخذ يحك وجنته باليد التي تمسك به.

وفكر مع نفسه: «أعتقد أنهم يريدون أن يعالجوني. فليعالجوني!».

وبالفعل شعر بأنهم فعلوا شيئاً لحنجرته. شعر بالألم، وارتعش، ورفس بقدمه، ولكنه تحامل على نفسه وأخذ ينتظر ما سيحصل فيما بعد، وما حصل فيما بعد هو أن سائلاً انسكب في دفق غامر على عنقه وصدره. استنشق الذراع الهواء بكل جنبيه، وأحس بأن ضيقه قد خف كثيراً. خف كل ثقل حياته. أغمض عينيه، وأخذ يميل برأسه، ولم يعد أحد يمسك به. ثم أخذ يحني رقبته، ثم راحت قوائمه ترتعش، وجسمه يترنح بكليته. كان مندهشاً أكثر مما هو مرتعب. صار كل شيء جديداً عليه كل الجدة. وفي دهشته صار يحاول الاندفاع إلى الأمام، إلى الأعلى. ولكن بدلاً من ذلك انزلقت أرجله، وارتجت، فأخذ يتهاوى على جنبه. حاول أن يحرك رجليه، إلا أنه سقط إلى الأمام على جنبه. حاول أن يحرك رجليه، إلا أنه سقط إلى الأمام على جنبه الأيسر. انتظر السلاخ انقضاء اختلاجاته وطرد الكلبين اللذين راحا يقتربان، ثم أمسك رجل المخصي، وقلبه على ظهره، وأمر فاسكا بأن يمسك رجله، وأخذ يسلخه.

قال فاسكا:

ـ كان حصاناً جيداً في زمانه.

قال السلاخ:

ـ لو كان مغذى أكثر لكان جلده جيداً.

في المساء، بينما كان الرعيل يسير على التل، رأت الخيول التي كانت تسير في الحافة اليسرى شيئاً أحمر في الأسفل تحوم قربه كلاب نشطة، وتحلق غربان وحداء. أنشب أحد الكلاب مخالبه في ذلك السقط المهمل، وغرز أنيابه فيه مديراً رأسه، حتى انتزع قطعة منه محدثاً

صوتاً. توقف الفرس البني، واشرأب برأسه ورقبته، وظل يستنشق الهواء وقتاً طويلاً. ولم يصرف عن ذلك إلا بالقوة.

في الفجر أعولت صغار الذؤبان الكبيرة الرؤوس في فرخ، عند وهدة الغابة القديمة المتحولة في الأسفل إلى فرجة مكشوفة.

كانت خمسة ذئاب، أربعة منها متقاربة الأحجام وواحد صغير ذو رأس أكبر من جسده. خرجت ذئبة نحيلة حائلة اللون من أجمة تجرجر على الأرض بطناً كاملاً بحلماته المتدلية، وجلست مقابل الذؤبان الصغار التي وقفت أمامها في نصف دائرة. دنت من أصغرها، وأسبلت ذيلها، وعكفت بوزها إلى الأسفل، وقالت بحركات مرتعصة، ثم فتحت شدقها ذا الأنياب، ووترت عضلاتها، وأخرجت من فمها قطعة كبيرة من لحم الحصان، وألقتها. اندفعت الذئاب الأكبر حجماً نحو القطعة، إلا أن الذئبة اقتربت منها مهددة، وقدمت القطعة كلها للصغير. هدر الصغير كالغاضب، وأمسك القطعة تحته، وراح يأكلها. وبهذه الشكل أخرجت الأم قطعة للابن الثاني، والثالث، وللخمسة جميعاً. وعند ذاك انطرحت قبالة أولادها تستريح.

وبعد أسبوع لم يبق عند السقيفة الآجرية غير جمجمة كبيرة، وعظمي الحوض، أما قطع الجسد الأخرى فقد جرجرت في أنحاء شتى. وفي الصيف أخذ الفلاح جامع العظام هذين العظمين والجمجمة، واستخدمها في غرض من أغراضه.

أما جسد سيربوخوفسكوي الميت فقد دفن في الأرض بعد ذلك بزمن طويل، بعد أن مشى في دروب الدنيا، وأكل وشرب. ولم ينفع لشيء لا جلده، ولا لحمه، ولا عظامه. ومثلما كان جسده الذي فارق الحياة وقراً

كبيراً على الجميع خلال عشرين عاماً قضاها يضرب في دروب الدنيا، كذلك لم يكن دفن ذلك الجسد في الأرض، غير عناء زائد للناس الذين دفنوه. فقد كف ذلك الجسد منذ زمان عن أن يكون نافعاً لأحد، وظل منذ زمان رهقاً على الجميع. ومع ذلك فإن الأحياء الذين يدفنون الأموات وجدوا من اللازم أن يلبسوا هذا الجسد الذي تقلص فوراً، وانتفخ بزة جيدة، وحذاء طويلاً جيداً، ويضعوه في تابوت جديد جيد، له شراشيب جديدة في أركانه الأربعة، ثم أن يضعوا هذا التابوت الجديد في تابوت قصديري آخر، وأن ينقلوه إلى موسكو، وأن ينبشوا هناك عظام الموتى منذ زمن بعيد، وأن يدفنوا في تلك البقعة بالذات ذلك الجسد الآخذ بالتفسخ، والحافل بالدود في بزته الجديدة، والحذاء المصقول، ويواروا عليه التراب.

عام ١٨٥٦

أسير القفقاس
(قصة حقيقية)

- ١ -

كان يخدم في القفقاس ضابط يدعى جيلين.

تلقى رسالة مرسلة إليه من بيته، تكتب فيها أمه العجوز: «صرت عجوزاً، وأريد أن أرى ابني الحبيب، قبل أن أموت. فتعال لوداعي، ولدفني، وبعد ذلك عد، في رعاية الرب، إلى الخدمة. وجدت لك عروساً عاقلة، حلوة، ولها ضيعة أيضاً. وقد تعجبك، فتتزوج، وتبقى عندنا نهائياً».

وراح جيلين يفكر: «حقاً أن العجوز قد تردت حالها، ولربما لا ألحق أن أراها. فلأسافر. وإذا كانت العروسة جيدة، فقد أتزوج».

وذهب إلى العقيد، وحصل على إذن بإجازة، وتوادع مع رفاقه، وقدم لجنوده أربعة جرادل من الفودكا للتوديع، وتهيأ للرحيل.

كانت الحرب ناشبة في القفقاس آنذاك. لا حركة على الطرق لا في الليل ولا في النهار. والروسي، ما يكاد يبتعد عن القلعة راكباً أو ماشياً حتى يقتله التتار، أو يأخذوه إلى الجبال.

وقد جرت العادة أن يخرج جنود مرافقون من قلعة إلى قلعة مرتين في الأسبوع. يسير الجنود في المقدمة وفي الخلف، والناس في الوسط.

كان ذلك صيفاً. تجمعت طوابير العربات وراء القلعة فجراً، وخرج الجنود المرافقون، وساروا في الطريق، كان جيلين يركب فرساً، والعربة الحاملة لأمتعته تسير في طابور العربات.

وكان يجب قطع ٢٥ فرسخاً. سار الطابور على مهل. تارة يتوقف الجنود، وتارة تخرج عجلة إحدى العربات، أو يتوجع حصان. ويقف الجميع، ينتظرون.

تجاوزت الشمس سمت الظهيرة، ولم يقطع الطابور غير نصف الطريق. غبار، وحر، والشمس ترسل شواظها، وما من مخبأ عنها. سهب أجرد. وما من شجيرة، ولا مجمع عشب في الطريق.

كان جيلين يسير في المقدمة. توقف ينتظر اقتراب الطابور. إلى الخلف منه يسمع صوت البوق ـ هذا توقف آخر. وفكر جيلين: «ماذا لو ذهبت لوحدي، بدون حماية جنود؟ الحصان الذي أمتطيه لطيف. وإذا وقعت على التتار، هربت به. أم لعلني لا أسافر؟...».

توقف يقلب الأمر في ذهنه. فيتقدم منه ضابط آخر، هو كوستيلين، يمتطي فرساً، ومعه بندقية، ويقول:

ـ لنذهب، يا جيلين، لوحدنا. لم تعد لي قوة على التحمل. وأنا جوعان. ثم هذا القيظ، وقميصي يمكنك أن تعصره. ـ وكوستيلين رجل ثقيل الجرم، بدين، أحمر بكليته، والعرق يتصبب منه دائماً. ويفكر جيلين قليلاً، ويقول:

ـ وهل بندقيتك معبأة؟

ـ معبأة.

ـ فلنذهب، إذن. ولكن لنتعاهد على ألا نفترق.

وسارا متقدمين في الطريق. يشقان السهب، ويتحدثان، ويتلفتان يمنة ويسرة. ومدى البصر حولهما بعيد.

وما كاد السهب ينتهي، حتى امتد الطريق بين جبلين في مضيق جبلي. فيقول جيلين:

- يجب أن نصعد على الجبل، ونتطلع. فقد يثبون علينا هنا، من حيث لا ندري.

فيقول كوستيلين:

- وما الحاجة إلى التطلع؟ لنواصل السير.

ولا يطيعه جيلين، ويقول:

- لا، انتظر أنت في الأسفل. وسأصعد أنا لألقي نظرة.

وأطلق فرسه في الجبل إلى اليسار، كان الحصان الذي يمتطيه جيلين حصان صيد (اشتراه بمائة روبل في رعيل للأمهار، وروضه بنفسه) وقد صعد به المرتقى، وكأنما على جناحين. وما كاد يبلغ رأس الجبل، ويلقي نظرة حتى أبصر قدامه زهاء ثلاثين رجلاً من التتار على خيولهم متجمهرين. ولما رآهم أخذ يستدير للعودة، والتتار رأوه أيضاً، ونزلوا نحوه، وهم يخرجون بنادقهم من أغلفتها أثناء عدوهم. هبط جيلين المنحدر بكل ما لدى حصانه من أيد، ويصيح بكوستيلين:

- اخرج بندقيتك! - بينما يقول هو لحصانه في سره: «يا حبيبي، اطلع بي، ولا تتعثر، فتسقط، وأهلك أنا. إذا بلغت البندقية، لن أستسلم لهم».

أما كوستيلين، فبدلاً من أن ينتظره، انطلق نحو القلعة، بكل ما فيه من قوة، حالما وقع بصره على التتار. ويلهب الحصان بسوطه على هذا الجنب، وعلى ذاك. ومن خلال الغبار لا يرى غير الحصان يدور ذيله.

ويرى جيلين أن الوضع سيئ. فالبندقية قد رحلت، وبالسيف وحده لا يمكن أن يفعل شيئاً. أطلق الحصان عائداً به إلى الجنود، يظن أنه سيتخلص. ويرى ستة رجال منحدرين يعترضون طريقه.

تحته حصانه كريم، وتحتهم خيولهم أكرم، ثم إنهم يأخذون عليه طريقه. شرع يوقف حصانه، وأراد أن يديره ليعود به، ولكن الحصان انطلق لا يلوي على شيء، متجهاً نحوهم تماماً. ويبصر، فإذا بتتري ذي لحية حمراء، على فرس رمادي يقترب منه. ويهر التتري، وقد كشر عن أسنانه، وهيأ بندقيته.

ويفكر جيلين في نفسه: «أنا أعرفكم، أيها الشياطين. إذا مسكتم أحداً حياً، حبستموه في حفرة، وهرأتم جلده بالسوط. فلن أستسلم حياً».

ولم يكن جيلين طويلاً، وإن كان شديد البأس. استل سيفه، وأطلق حصانه صوب التتري تماماً، وهو يفكر: «إما أن أدقه بحصاني، أو أقطعه بسيفي».

وما كاد جيلين يصل قيد حصان من التتري حتى أصابت حصانه رصاصات أطلقت عليه من بنادق خلفه. وسقط الحصان على الأرض بكل ثقله، وانهد على رجل جيلين.

أراد جيلين أن ينهض، ولكن تتريين منتنين لحقا أن يبركا عليه ويلويا ذراعيه وراء ظهره. حرر نفسه، وألقى عنه التتريين، إلا أن ثلاثة آخرين قفزوا عليه من خيولهم، وأخذوا يضربونه بأخامص بنادقهم، غامت عيناه، وراح يترنح.

أمسك التتار به، ونزعوا السيور الإضافية من السروج، وقيدوا ذراعيه وراء ظهره، وربطوه ربطة تترية، وجروه إلى السرج.

خلعوا عنه قبعته، وانتزعوا حذاءه. وتلمسوا كل شيء، وأخرجوا النقود والساعة، ومزقوا جلبابه إرباً. نظر جيلين إلى حصانه، فإذا هو راقد على جنبه على سقطته الأولى، سوى أنه، يا ويل قلبي، يرفس بأرجله، ولكن دون أن يصل الأرض، وفي رأسه ثقب، ومن الثقب يشخب دم أسود، وقد بلل الثرى حوله بمقدار ذراع.

تقدم أحد التتار من الحصان، وأخذ يخلع عنه سرجه. وهو ما يزال يرفس، فاستل خنجره، وحز حلقومه. وأرسل الحلقوم صفيراً، وارتعص الحصان، وزهقت الروح.

فك التتار السرج والعدة. وركب التتري ذو اللحية الحمراء حصانه، ورفع الآخرون جيلين، وأجلسوه وراء سرجه، وخشية سقوطه ربطوه بحزام التتري، واقتادوه إلى الجبال.

وجيلين وراء التتري يهتز، ووجهه يضرب في ظهر التتري المنتن. ولا يرى أمامه غير ظهر التتري الناصح، وغير الرقبة المعروقة، والقفا الحليق الأزرق يلوح من تحت القبعة. ورأس جيلين مصاب، والدم تخثر فوق عينيه. ولا مجال له لأن يعدل جلسته على الحصان، ويمسح الدم. فقد لويت ذراعاه لياً يوجع عظم الترقوة.

ساروا وقتاً طويلاً من جبل إلى جبل، وقطعوا نهراً مخاضة، وطلعوا إلى الطريق، ومضوا في وهدة.

أراد جيلين أن يلحظ إلى أين يؤدي الطريق، ولكن عينيه ملطختان بالدم، والالتفات متعذر عليه.

أخذ المساء يغسوسق. اجتازوا نهيراً آخر، وراحوا يرتقون جبلاً صخرياً. وفاحت رائحة دخان، وطفقت كلاب تنبح.

لقد وصلوا إلى «أوول»*. ترجل التتار من خيولهم، وتجمع صبيان تتاريون، وأحاطوا بجيلين متلهللين، وراحوا يقذفونه بالحجارة.

طرد التتري الصبيان، وأنزل جيلين من الحصان، ونادى شغيلاً. فجاء رجل ناغائي بارز الوجنتين ليس عليه غير القميص. والقميص ممزق، والصدر عار بكليته. أمره تتري بشيء. جاء الشغيل بالقيد، وهو خشبتان من البلوط ملبستان بطوقين من الحديد، وفي أحد الطرفين مشد وقفل.

فكوا ذراعي جيلين، ووضعوه في القيد، وساقوه إلى سقيفة، ودفعوه في داخلها، وقفلوا عليه الباب. سقط جيلين على روث. ظل منطرحاً بعض الوقت، وتلمس، في الظلام، مكاناً ألين، واستلقى.

ـ ٢ ـ

لم ينم جيلين الليل كله تقريباً. كانت الليالي قصيرة. وينظر فإذا بضوء الفجر يتسرب من خلال خصاصة. نهض جيلين، ووسع الخصاصة قليلاً، وأخذ ينظر.

كان يرى، من خلال الخصاصة، طريقاً يسير عند سفح جبل، وإلى اليمين بيتاً، بالقرب منه شجرتان. وعلى العتبة يرقد كلب أسود، وعنزة تسير مع صغارها، تهز ذيولها. ويرى تترية شابة آتية من سفح الجبل، في ثوب ملون غير محزم، وسروال، وحذاء عالي العنق. ورأسها مغطى بقفطان، وعلى الرأس جرة ماء كبيرة من الصفيح. وتسير الشابة، وظهرها يهتز قليلاً، ويتقصف.

---

* الأوول : قرية تترية (الملاحظة لليف تولستوي).

والشابة تقود بيدها طفلاً تترياً صغيراً حليق الرأس، ليس عليه غير القميص. دخلت التترية حاملة الماء إلى البيت، وخرج منه تتري الأمس ذو اللحية الحمراء، في قفطان حريري، وفي حزامه خنجر فضي، ينتعل حذاء على قدمين عاريتين وعلى رأسه قبعة طويلة من فراء الخروف، سوداء، مائلة إلى القفا. خرج يتمطى ويمسد على لحيته. وقف برهة، وأوعز للشغيل بشيء، وذهب إلى جهة ما.

وجاء، بعد ذلك، شابان إلى المسقى على فرسيهما. وللفرسين خطم رطب. ثم طلع صبيان آخرون حليقو الرؤوس، ليس عليهم غير القمصان، بدون سراويل، والتأموا في ثلة، وجاءوا إلى السقيفة، وتناولوا غصناً طويلاً، وحشروه في الخصاصة. زجرهم جيلين، فارسلوا زعيقاً، وتراكضوا مبتعدين، لا تلوح إلا ركبهم العارية لامعة.

وجيلين عطشان، حنجرته يبست. فيقول لنفسه: ليتهم على الأقل، يأتون ليتأكدوا من وجودي. ويسمع قلقلة المفتاح في باب السقيفة. جاء التتري ذو اللحية الحمراء ومعه آخر أقصر منه له شعر أسود وعينان سوداوان، وضيئتان، وخده مورد، ولحيته صغيرة، مشذبة. وجهه جذل، دائم الضحك. وصاحب الشعر الأسود أحسن لباساً. قفطانه حريري، أزرق، مطرز بشراشيب صغيرة.

وخنجره في الحزام كبير، فضي، والحذاء صغير أحمر من الجلد المراكشي مطرز بالفضة أيضاً، وعلى الحذاء الصغير حذاء آخر سميك. والقبعة عالية من فراء الجدي الأبيض.

دخل التتري الأحمر، وتكلم شيئاً، وكأنه يشتم. وتوقف. وضع مرفقه على عضادة الباب، وحرك خنجره، وكالذئب راح ينظر شزراً إلى

جيلين. أما الأسود ـ السريع، النشيط، فكأنما يسير على زنبركات ـ فقد أقبل على جيلين رأساً، وجلس القرفصاء، مكشراً عن أسنانه، وربت على كتفه، وراح يرطن بلغته سراعاً، ويغمز بعينيه، ويتمطق بلسانه، ويردد: «كروشو أورروس! كروشو أورروس!».

لم يفهم جيلين شيئاً، فيقول: «أريد أن أشرب. أعطني شيئاً من الماء لأشرب!».

ويضحك الأسود، ويظل يرطن بلغته ـ «كروشو أورروس».

أشار جيلين بشفتيه، ويديه يريد أن يعطوه ماء.

فهم الأسود، وضحك، وتطلع في الباب، ينادي أحداً: «دينا!».

جاءت فتاة راكضة، رقيقة الجسم، نحيلة، في نحو الثالثة عشرة من العمر، تشبه الأسود في الوجه. والظاهر أنها ابنته. عيناها أيضاً سوداوان، وضيئتان، والوجه مليح، ترتدي ثوباً طويلاً أزرق عريض الكمين، وبلا حزام، مؤطراً بشريط عند الذيل، وعلى الصدر، وعلى الكمين. في ساقيها سروال، وفي قدميها حذاء صغير، فوقه حذاء آخر عالي الكعبين. وفي رقبتها قلادة من قطع النقد الروسية من فئة الخمسين كوبيكاً. رأسها حاسر، وضفيرتها سوداء، وفي الضفيرة شريط، وعلى الشريط علقت قطع معدنية، وروبل فضي.

أمرها أبوها بشيء. فخرجت راكضة، وعادت ثانية تحمل جرة من الصفيح. قدمت الماء، وجلست القرفصاء أيضاً، وتكورت حتى إن كتفيها كانتا أسفل ركبتيها. وظلت جالسة، وقد فتحت عينيها، تنظر إلى جيلين يشرب الماء، وكأنها تنظر إلى حيوان غير أنيس.

أعاد جيلين الجرة لها. فوثبت عائدة، كالمعزة البرية. حتى انتزعت

الضحك من أبيها. أرسلها في مهمة أخرى. تناولت الجرة، وركضت، وجاءت بخبز ماسخ على لوحة مستديرة، وجلست ثانية، وتكورت ترنو إليه لا يرف لها جفن.

انصرف التتار، وقفلوا الباب من جديد.

بعد قليل يأتي النوغائي إلى جيلين، ويقول:

ـ آيدا، يا أوسطه، آيدا!

لا يعرف الروسية أيضاً، ولكن جيلين فهم أن النوغائي يأمره بأن يأتي معه.

سار جيلين في قيده، يعرج، لا يستطيع أن يطأ الأرض، فكان يحرف قدمه جانباً. خرج جيلين مع النوغائي، فرأى قرية تترية؛ نحواً من عشرة بيوت، وكنيستهم ذات البرج*. عند أحد البيوت ثلاثة خيول مسرجة، يمسك صبيان بمقاودها. خرج من هذا البيت التتري الأسود، ولوح بذراعه يريد أن يأتي جيلين إليه، ويعود إلى ضحكه، ويظل يتكلم بلغتهم، ويختفي في الباب. دخل جيلين البيت. حجرة الجلوس لطيفة، والجدران ملساء مملوطة بالطين. وعند الجدار المقابل، نضدت وسائد زاهية الألوان من الريش؛ وعلى الحائطين الجانبين علقت أبسطة غالية. وعلى الأبسطة بنادق، ومسدسات، وسيوف، وكلها في فضة. وعند حائط موقد صغير في مستوى الأرض. والأرض ترابية، نظيفة كالمذرى. والركن الأمامي كله مفروش باللباد، وعلى اللباد أبسطة، وعلى الأبسطة وسائد من ريش. وعلى الأبسطة يجلس التترى الأحمر، وثلاثة ضيوف، وأحذيتهم في أقدامهم. وظهورهم جميعها مسندة إلى وسائد الريش،

---

* هكذا ورد بالأصل ، ويعني به الجامع . المترجم .

وأمامهم على بسطة خشبية مستديرة أرغفة الدخن، ودهن بقري مذاب في طاسة، وجعة تترية أو بوزة في جرار صغيرة. ويأكلون بأيديهم، وأيديهم مشبعة كلها بالدهن.

نهض الأسود، وأمر بأن يجلس جيلين في ناحية، على الأرض العارية، لا على البساط، وانسل ثانية ليقعد على البساط، مقدماً لضيوفه الخبز والبوزة. أجلس الشغيل جيلين في موضع، وخلع هو حذاءه الخارجي، ووضعه عند الباب، إلى جانب الأحذية الأخرى، وجلس على لبادة، أقرب إلى أهل البيت. ينظر إليهم يأكلون، ويمسح لعابه.

أكل التتار الأرغفة. جاءت تترية تلبس مثل الثوب الذي تلبسه الفتاة، وفي سروال أيضاً، والرأس معصوب بمنديل، ورفعت الدهن، والأرغفة، وجاءت بطست جميل، وإبريق ضيق الرقبة. أخذ التتار يغسلون أيديهم. ثم صفوا أيديهم، وركعوا على ركبهم، ونفخوا في جميع الجهات، وقرأوا الدعوات. تكلموا بلغتهم قليلاً. ثم التفت أحد الضيوف إلى جيلين، وأخذ يتكلم بالروسية:

ـ أسرك قاضي محمد، ـ ويشير إلى التتري الأحمر، ـ وأعطاك لعبد المراد، ـ ويشير إلى التتري الأسود. ـ وعبد المراد الآن سيدك. ـ وجيلين صامت.

أخذ عبد المراد يتكلم، ويشير إلى جيلين أثناء كلامه، ويضحك ويقول: «سولدات أوروس. كوروشو أوروس»*.

ويقول المترجم: «يأمرك بأن تكتب رسالة إلى أهلك، ليرسلوا فدية عنك. سيطلق صراحك، حالما تأتي النقود».

---

* ما معناه بالروسية المحرفة: «جندي روسي، روسي جيد». المترجم.

فكر جيلين قليلاً، ويقول: «وهل يريد فدية كبيرة؟».
تحدث التتار قليلاً فيما بينهم، ويقول المترجم:
ـ ثلاثة آلاف.
فيقول جيلين:
لا. أنا لا أستطيع أن أدفع ذلك.
نهض عبد المراد بحدة، أخذ يشمر ذراعيه، ويقول شيئاً لجيلين، يظن أن جيلين يفهمه. ترجم المترجم، فيقول: «كم ستدفع؟».
فكر جيلين قليلاً، ويقول: «خمسمائة روبل».
وهنا أخذ التتار يتكلمون سريعاً، وكلهم دفعة واحدة. أخذ عبد المراد يصيح على الأحمر، ويرطن بسرعة شديدة حتى إن اللعاب صار يتطاير من فمه. ويكتفي الأحمر بتضييق عينيه، والتمطق بلسانه.
خلدوا إلى الصمت. ويقول المترجم:
ـ قليل على سيدك خمسمائة روبل فدية. فقد دفع عنك مائتي روبل كانت له ديناً على قاضي محمد. أخذك لقاء دينه. لا يمكن إطلاق سراحك بأقل من ثلاثة آلاف روبل. وإذا لم تدفع ستوضع في حفرة، وتجلد بالسوط.
ويفكر جيلين مع نفسه: «آه، الجبن معهم يجعل الأمر أسوأ».
ويثب على قدميه، ويقول:
ـ ولكن قل لهذا الكلب ـ لن أدفع له فلساً إذا كان يريد أن يرهبني، بل ولن أكتب لأهلي. أنا لم أخف، ولن أخاف منكم يا كلاب!
نقل المترجم كلامه. وعادوا يتكلمون كلهم دفعة واحدة.
رطنوا طويلاً، وثب الأسود، اقترب من جيلين، ويقول:

ـ أورروس جيكيت، جيكيت أورروس!

والجيكيت بلغتهم تعني «الصنديد». ويضحك الأسود، ويقول شيئاً للمترجم، فيقول المترجم:

ـ أعط ألف روبل.

أصر جيلين على رأيه: «لن أدفع أكثر من خمسمائة روبل. وإذا قتلتموني لن تحصلوا على شيء».

تحدث التتار قليلاً، وأرسلوا الشغيل إلى جهة ما، وظلوا يتطلعون تارة إلى جيلين، وتارة إلى الباب. جاء الشغيل، وخلفه رجل بدين حافي القدمين، ممزق الثياب، وفي قدمه قيد أيضاً.

أرسل جيلين آهة. لقد عرف كوستيلين. يعني، أسروه أيضاً.

أجلسوا كوستيلين إلى جانبه. أخذ الاثنان يقص أحدهما للآخر، والتتار صامتون ينظرون. قص جيلين ما حدث له. وروى كوستيلين أن الحصان تحته توقف، والبندقية كبت، وأن عبد المراد هذا نفسه طارده، وقبض عليه.

نهض عبد المراد قائماً، يشير إلى كوستيلين، ويقول شيئاً.

ترجم المترجم أن كليهما الآن ملك لمالك واحد، ومن سيدفع الفدية قبل، سيطلق صراحه قبل.

ويقول لجيلين:

ـ أنت تحقد، بينما رفيقك وديع، كتب رسالة لأهله ليرسلوا خمسة آلاف روبل. وها هم يطعمونه وسيكرمونه، ولا يسيئون إليه.

فيقول جيلين:

ـ ليفعل الرفيق ما يشاء، فقد يكون غنياً، بينما أنا لست غنياً.

أنا أعني ما قلته. فإذا أردتم قتلي فلن تحصلوا على فائدة. لن أكتب عن أكثر من خمسمائة روبل.

لزموا الصمت. وفجأة يقفز عبد المراد من مكانه، ويتناول صندوقاً صغيراً، ويخرج منه ريشة، وقصاصة ورق، وحبراً، ويضعها في يد جيلين، ويربت على كتفه، يشير: «اكتب». وافق على خمسمائة روبل.

فيقول جيلين للمترجم:

ـ انتظر قليلاً. قل له أن يطعمنا بشكل جيد، ويوفر لنا اللباس والحذاء، كما ينبغي، وأن يبقينا سوية، فذلك أبهج لنا، وأن يرفع القيد عن أقدامنا.

وينظر إلى مالكه هذه المرة، ويضحك. فيضحك المالك أيضاً. استمع إلى كلامه. ويقول:

ـ سأعطيهما أحسن الثياب. سترة تشركسية، وحذاء طويلاً يصلح للعرس، وسأطعمهما كأميرين. وإذا أرادا أن يقيما سوية، فليقيما في السقيفة. أما القيد فلا يمكن خلعه، فسيهربان. سنخعله في الليل فقط. ـ وتقدم منه يربت على كتفيه. ـ يا حلوتي، يا حلو!

وكتب جيلين رسالة. وعنون الرسالة بحيث لا تصل. وفي سره يفكر: «سأهرب».

اقتادوا جيلين وكوستيلين إلى السقيفة، وجلبوا لهما إلى هناك قش ذرة، وجرة ماء، وخبزاً، وسترتين تشركسيتين قديمتين، وحذائين مستهلكين من أحذية الجنود. والظاهر أنهم أخذوا من جنديين قتيلين. وفي الليل خلعوا عنهما القيدين، وقفلوا الباب.

-٣-

على هذا النحو عاش جيلين ورفيقه شهراً كاملاً، والمالك يضحك طوال الوقت، ويرطن بكلمة أو كلمتين روسيتين محرقتين، ولا يقدم إلا هزيل الطعام: خبز الدخن الماسخ على شكل أرغفة مخبوزة، وأحياناً عجيناً غير مخبوز البتة.

كتب كوستيلين رسالة أخرى إلى أهله، وظل ينتظر النقود، ويستوحش. يقضي أياماً كاملة في السقيفة، يحسب الأيام التي تستغرقها الرسالة لتصل إليه، أو ينام. بينما كان جيلين يعرف أن رسالته لن تصل، فلم يكتب رسالة أخرى.

وهو يفكر مع نفسه من أين ستأخذ أمي كل هذه النقود، لترسلها إلي. لا سيما وأنها كانت تعيش على ما أرسل لها من الفلوس.

وإذا كان لها أن تجمع خمسمائة روبل، فإنها ستفقد كل ثروتها تماماً. الله كريم. سأخلص نفسي بنفسي».

ويمضي وقته في تفحص الأشياء، والتعرف على سبيل هربه. يسير في القرية صافراً، أو يقعد ليصنع شيئاً يدوياً، يصنع دمى من الطين، أو يضفر مضفورات من الأغصان. وكان جيلين بارعاً في كل عمل يدوي.

صنع ذات مرة دمية لها أنف ويدان ورجلان، وعليها رداء تتري، ووضع الدمية على السطح.

مرت تتريات للاستقاء. ورأت دينا، ابنة مالكه، الدمية، ودعت التتريات. تركن جرارهن، ينظرن، ويضحكن. أنزل جيلين الدمية، وقدمها لهن. وهن يتضاحكن ولا يجرؤن على تناولها. وضع الدمية، وانصرف إلى السقيفة، ينظر ماذا سيحدث.

ركضت دينا، وتلفتت، واختطفت الدمية، وهربت.

ويتطلع في اليوم التالي، فيرى دينا تخرج على عتبة بيتها عند الفجر، تحمل الدمية، وقد زينتها بالخرق الحمراء، وتهدهدها كالطفلة، وتترنم لها بلغتهم. خرجت أمها العجوز، وشرعت تقرعها، واختطفت الدمية، وحطمتها، وأرسلت دينا في شغل.

صنع جيلين دمية أخرى، أحسن من الأولى، وأعطاها لدينا.

ذات مرة جلبت دينا جرة صغيرة، ووضعتها، وجلست تنظر إليه، وتضحك، وتشير إلى الجرة الصغيرة.

ويفكر جيلين مع نفسه: «ما هذا الذي يثير ضحكها؟». تناول الجرة، وأخذ يشرب مما فيها. يظنه ماء، فإذا هو حليب. شرب الحليب، ويقول «لطيف». وتضاعفت فرحة دينا كثيراً!

- لطيف، إيفان، لطيف!

ووثبت قائمة، وصفقت بيديها، وانتزعت الجرة، وركضة منصرفة.

ومنذ ذلك الحين أخذت دينا تجلب الحليب إليه كل يوم خلسة. والتتار يصنعون من حليب الماعز رقائق، ويجففونها على السطوح، وهذه أيضاً كانت تجلبها إليه خلسة. وحين نحر المالك خروفاً، جلبت إليه قطعة من لحم الضأن في ردنها. تلقيها، وتنصرف راكضة.

ذات مرة وقعت عاصفة رعدية شديدة، وانصب المطر طوال ساعة، وكأنما ينسكب من قربة. وجاشت الجداول بالماء، في مخاضة العبور، وارتفع الماء هناك ثلاثة أذرع، وراح يقلب الصخور.

والنهيرات تهدر في كل مكان، والهدير يدوي في الجبال. وحالما هدأت العاصفة، راحت الجداول تسيل في كل أرجاء القرية. طلب جيلين

من سيدة سكيناً، ونحت محوراً وألواحاً وهيأ عجلة، وثبت دميتين على العجلة من كلا جانبيها.

جلبت الفتيات له خرقاً، فكسى الدميتين. إحداهما بلباس رجل، والأخرى بلباس امرأة، وضبطهما، ووضع العجلة على جدول. فتدور العجلة، وتتقافز الدميتان.

اجتمعت القرية كلها صبياناً، فتيات، نساء. وجاء رجال أيضاً، يتمطقون بألسنتهم.

ـ آه، أوروس! أوه، إيفان!

كانت لدى عبد المراد ساعة روسية معطلة. دعا جيلين، وراح يشير إليها، ويتمطق بلسانه. فيقول جيلين:

ـ أعطها لي لأصلحها.

أخذها. فك أجزاءها بالسكين. رتب هذه الأجزاء أمامه، وجمعها من جديد، وأعادها. فإذا الساعة تعمل.

فرح المالك. جلب إليه قفطانه القديم، المهلهل، وأهداه له. قبله جيلين مضطراً. هذا أيضاً ينفع، يتغطى به ليلاً.

ومنذ ذلك الحين شاع أن جيلين صانع ماهر. أخذوا يتوافدون عليه من قرى بعيدة. بعضهم يجلب متراس بندقية أو مسدساً ليصلحه، وبعضهم ساعة. وجلب المالك إليه أدوات: كلابتين، مثاقب، مبرداً.

مرض تتري ذات مرة. جاءوا إلى جيلين يدعونه لعلاجه. وجيلين لا يعرف كيف يعالج المرضى. ذهب وفحص. وهو يفكر «أظنه سيشفى لحاله». عاد إلى السقيفة. تناول شيئاً من الماء، والرمل، وخلطهما.

ووسوس على الماء بحضور التتار، وأعطاه ليشربه المريض. وشفي

المريض لحسن حظه. أخذ جيلين يفهم لغتهم قليلاً. وبعض التتار ألفوه. وعند الحاجة ينادونه «إيفان، إيفان!»، وبعضهم ظل ينظر إليه شزراً، وكأنه وحش.

لم يحب التتري الأحمر جيلين. ما أن يراه حتى يتجهم، ويعرض عنه أو يشتمه. وكان هناك عجوز أيضاً لا يسكن القرية، بل كان يأتي من سفح الجبل. كان جيلين لا يراه إلا حين يأتي ليصلي في المسجد. كان قصير القامة، يلف فوطة بيضاء على قبعته. لحيته وشارباه مشذبة بيضاء كالريش وجهه متغضن، أحمر كالقرميد. أنفه معكوف كأنف العقاب. يسير لابساً عمامته، متكئاً على عكازة، ينظره ما نظرة الذئب. وما أن يرى جيلين، حتى يفح، ويشيح وجهه.

ذات مرة جاء جيلين إلى سفح الجبل ليرى أين يسكن العجوز. نزل في درب، فرأى حديقة صغيرة، وسياجاً حجرياً، ومن وراء السياج رأى كرزاً، ومشمشاً مجففاً، وبيتاً خشبياً صغيراً ذا سطح مستو. اقترب، فشاهد بيوت نحل، مضفورة من القش، والنحل يطير، يطن. أما العجوز فكان يركع قرب بيت نحل ينشغل بشيء ما. صعد جيلين أعلى، ليعاين، طقطق القيد. يلتفت العجوز، وتصدر منه زعقة، يختطف المسدس من تحت حزامه، ويطلق النار على جيلين. كادت الرصاصة تصيبه، لو لم يلحق ليحتمي وراء صخرة.

جاء العجوز ليشتكيه إلى مالكه. دعا المالك جيلين. ويضحك المالك، ويسأل:

- لماذا ذهبت إلى العجوز؟

- لم أرد أن أمسه بسوء. أردت أن أرى كيف يعيش.

نقل المالك كلامه. يحتدم العجوز، ويهس، ويرطن بشيء. وتبرز أنيابه، ويشمر ذراعيه على جيلين.

لم يفهم جيلين كل شيء، ولكنه فهم أن العجوز يأمر المالك بأن يقتل الروسيين، ولا يبقيهما في القرية. انصرف العجوز.

أخذ جيلين يسأل سيده: أي رجل هذا العجوز؟ فيقول المالك:

- رجل كبير! كان أول جيكيت. قتل روساً كثيرين، وكان غنياً. كانت له ثلاث زوجات، وثمانية أبناء، كان جميعهم يعيشون في قرية واحدة. وجاء الروس، وهدموا القرية، وقتلوا سبعة من أبنائه. وبقي ابن واحد انحاز للروس. سافر العجوز، وانحاز أيضاً للروس. وعاش عندهم ثلاثة أشهر، ووجد ابنه، وقتله بيده، وهرب. ومنذ ذلك الحين ترك القتال، وسافر إلى مكة للحج. ولأجل ذلك صارت له عمامة. من يسافر إلى مكة يسمى حاجاً، ويلف عمامة. إنه لا يحب قومك، ويأمرني بأن أقتلك، ولكن لا يجوز أن أقتلك، فقد دفعت عنك نقوداً. كما إنني. يا إيفان، أحببتك ولولا الكلمة التي أعطيتها لما تركتك ترحل، فكيف أن أقتلك.

ويضحك، ويرطن بالروسية كلمات مفككة.

- ٤ -

عاش جيلين على هذا النحو شهراً. في النهار يتجول في القرية، أو يصنع شيئاً يدوياً. وحالما يهبط الليل، وتسكن القرية، يحفر في السقيفة، وكان من الصعب الحفر في الصخور. فكان يبرد الصخور بالمبرد، حتى صنع ثقباً تحت الجدار يتسع لجسمه. ويفكر مع نفسه: «فقط أن أتعرف على المكان جيداً، لأعرف إلى أي جهة أتجه. إلا أن التتار لن يدلوه.

واختار للهروب ساعة رحيل المالك. خرج بعد الغداء إلى الجبل، وراء القرية يريد أن يتفقد المكان من هناك. ولكن المالك ساعة رحيله، كان قد أمر ابنه الصغير بأن يلاحق جيلين، وألا يصرف عنه بصره. ويركض الصغير وراء جيلين، ويصيح:

ـ لا تذهب! نهى أبي عن ذلك. سأدعو الناس حالاً.

راح جيلين يستميله، ويقول:

ـ أنا لا أذهب بعيداً. فقط أن أصعد إلى هذا الجبل. لأجمع العشب. وأعالج قومكم. لنذهب سوية. فأنا لا أستطيع الفرار، والقيد في رجلي. وبالمقابل سأصنع لك قوساً وسهاماً يوم غد.

وأقنع الصغير، وذهبا. الجبل يبدو غير بعيد، إلا أن القيد يعيقه. سار جيلين وسار، حتى صعد الجبل بعسر شديد. وجلس، وراح يتفحص المكان. في الجنوب، وخلف الجبل وهدة، ورعيل من الخيول يسرح، وفي المنخفض قرية أخرى. وبعد القرية جبل آخر أشد ارتفاعاً. ووراء هذا الجبل جبل آخر. وبين الجبلين تلوح غابة مزرقة، وبعدها جبال أخرى ترتفع أعلى فأعلى أكثرها ارتفاعاً جبال بيضاء، كالسكر، قائمة تحت الثلج. وأحد الجبال الثلجية يقف كالقبعة أعلى من الجبال الأخرى. والجبال لا تتغير في الشروق والغروب. وفي الشعاب الجبلية قرى ترسل أدخنتها. ويفكر جيلين «تلك هي ناحيتهم». وراح ينظر إلى الجانب الروسي: تحت قدميه نهير صغير، قريته التترية، والحدائق فيما حوله. وفي النهر تقعد النسوة كالدمى الصغيرة يشطفن غسيلهن. ووراء القرية، إلى الأسفل، جبل، وبعده جبلان آخران، عليهما غابة. وبين الجبلين يلوح مكان منبسط مزروق. وعلى هذا المكان المنبسط، في المدى البعيد ما يشبه الدخان

المفروش. أخذ جيلين يتذكر أين كانت تشرق الشمس وتغرب، حين كان يقيم في منزله في القلعة. ويدقق النظر. لا بد أن قلعتنا في هذا الوادي بالضبط. وبين هذين الجبلين بالذات يجب أن يسلك طريقه إلى الهروب.

أخذت الشمس تأفل، والجبال الثلجية تتحول من بيضاء إلى قرمزية، وتعتم الجبال الداكنة، وبتصاعد بخار من الوهدة، وذلك الوادي، حيث توجد قلعتنا، على ما يبدو، يشتعل بالشفق وكأنما يشتعل بنار. راح جيلين يمعن النظر. في الوادي يتراءى شيء كأنه دخان خارج من مدخنة. فيتصور أن ذلك هو القلعة الروسية.

حل العشاء. وتردد آذان المؤذن. القطيع يعود، والأبقار تخور.

والصغير لا يفتأ يقول: «لنعد»، وجيلين لا يحب مغادرة المكان.

عادا إلى البيت. ويفكر جيلين مع نفسه «الآن أعرف المكان. ويجب أن أهرب». وأراد أن يهرب في تلك الليلة. والليالي كانت مظلمة - القمر في محاقه. ومن سوء الطالع أن التتار عادوا في المساء. أحياناً كانوا يأتون فرحين يسوقون معهم ماشية. وفي هذه المرة لم يسوقوا معهم شيئاً، بل كانوا يحملون على السرج تترياً قتيلاً، هو أخو الأحمر. جاءوا غضاباً، واجتمعوا سوية ليدفنوه. وخرج جيلين أيضاً ليتفرج. لفوا الميت في كفن، بدون تابوت، وحملوه تحت أشجار الدلب وراء القرية، ووضعوه على العشب.

جاء الملا، واجتمع الشيوخ، وشدوا الفوط وتعمموا حول قبعاتهم، وخلعوا أحذيتهم، وجلسوا جنباً إلى جنب على أعقابهم أمام الميت.

الملا في المقدمة، وخلفه ثلاثة شيوخ في عمائم، وإلى جانبهم، وإلى الخلف منهم تتار آخرون. جلسوا مطرقين صامتين. وطال صمتهم. رفع الملا رأسه وقال كلمة واحدة:

ـ الله!

وعادوا فنكسوا رؤوسهم، وصمتوا طويلاً، لا يبدون حراكاً. رفع الملا رأسه ثانية ويقول:

ـ الله! ـ وصاح الجميع: «الله». وغرقوا في صمتهم مرة أخرى. الميت راقد على العشب ساكن لا يريم وهم أيضاً ساكنون كالموتى. لا يتململ واحد منهم. وأوراق الدلب الصغيرة وحدها تتقلب من النسيم. ثم تلا الملا دعاء. ونهض الجميع. رفعوا الميت على أيديهم. وحملوه إلى حفرة. الحفرة ليست بسيطة، بل لها تجويف جانبي كالسرداب. حملوا الميت من إبطيه ومن ظهر ركبتيه، وطووه وأنزلوه باحتراس، ودسوه في التجويف قاعداً، وعدلوا يديه على بطنه.

جلب النوغاني قصباً أخضر، وغطوا الحفرة به، ونثروا التراب عليها على عجل وسووها، ووضعوا حجراً قائماً في موضع رأس الميت. ودكوا الأرض بأقدامهم. وجلسوا ثانية جنباً إلى جنب أمام القبر. وصمتوا طويلاً.

ـ الله! الله! الله! ـ وتنهدوا، ونهضوا.

وزع الأحمر النقود على الشيوخ، ثم نهض، وتناول سوطاً، ولطم به جبهته ثلاث مرات، وعاد إلى بيته.

في صباح اليوم التالي يرى جيلين الأحمر يقود فرساً وراء القرية، وخلفه ثلاثة تتار. طلعوا من القرية. خلع الأحمر قفطانه. طوى ردنيه. ذراعاه ناصحتان، أخرج خنجراً، شحذه على مسن. رفع التتار رأس الفرس إلى الأعلى. تقدم الأحمر، وشق حلقوم الفرس، وألقاها أرضاً، وراح يسلخها، داساً قبضتيه تحت جلدها. جاءت نسوة وفتيات، وأخذن

يغسلن الأمعاء والأحشاء الأخرى. ثم قطعوا الفرس أجزاء، وحملوها إلى البيت. واجتمعت القرية كلها في بيت الأحمر للنواح على الميت.

ظلوا يأكلون لحم الفرس ثلاثة أيام، ويشربون البوزة، ويبكون على الميت. كان التتار جميعهم في القرية لا يبرحونها. وفي ظهيرة اليوم الرابع يراهم جيلين يتهيأون للطلوع. أخرجوا خيولهم، وأعدوا أنفسهم، وخرجوا زهاء عشرة أشخاص، وخرج الأحمر أيضاً. ولم يبق في بيته إلا عبد المراد. كان الهلال في أوله، والليالي ما تزال ظلماء.

ويفكر جيلين مع نفسه: «يجب أن أهرب اليوم» ويخبر كوستيلين. ولكن كوستيلين يعلن عن مخاوفه.

- ولكن كيف نهرب؟ حتى الطريق لا نعرفه.

- أنا أعرف الطريق.

- ثم إن الليل لا يكفينا للوصول.

- سنبيت في الغابة، إذا لم نصل. هيأت أرغفة. فلماذا تظل قاعداً؟ لطيف أن يرسلوا النقود. ولكن ربما لا يجمعونها. والتتار الآن حانقون، لأن الروس قتلوا واحداً منهم. يتحدثون فيما بينهم، ينوون قتلنا.

فكر كوستيلين ملياً.

- إذن، لنذهب.

- ٥ -

انسل جيلين من الثغرة، ووسعها ليستطيع كوستيلين أن ينسل منها هو الآخر، ويجلسان منتظرين أن تسكن القرية.

ما كاد الناس في القرية يخلدون إلى بيوتهم، حتى انسل جيلين من

تحت الجدار، وخرج. ويهمس لكوستيلين: «انسل». انسل كوستيلين أيضاً. ولكنه تعثر على حجر برجله، وأحدث صوتاً. وكان لصاحب البيت حارس: كلب حاد الطبع، يسمونه «أولياشين». كان جيلين قد أطعمه مقدماً. سمع أولياشين الصوت.

فأخذ ينبح: واندفع، وراء كلاب أخرى. صفر جيلين صفيراً خفيفاً، ورمى قطعة خبز. عرفه أولياشين. أطبق ذيله. وكف عن النباح.

سمع صاحب البيت النباح. فرد عليه من داخل البيت «غايت! غايت! أولياشين!».

وجيلين يحك أولياشين من خلف اذنيه. ويصمت الكلب، ويحتك بقدميه، ويحرك ذيله.

لبثا وراء المنعطف بعض الوقت. هدأ كل شيء. لا شيء غير سعال الغنم في الزريبة، وخرير الماء بين الصخور في الأسفل.

ظلام. النجوم عالية في السماء الهلال أخذ يحمر فوق الجبل، وقرناه إلى الأعلى. في الوهاد ضباب يبدو أبيض كالحليب.

نهض جيلين، ويقول لرفيقه «هيا، يا أخ، لنذهب!».

غادرا مكانهما. وما كادا يبتعدان، حتى سمعا أذان الملا على السطح: «الله! بسم الله! الرحمن!»* يدعو الناس إلى المسجد.

كمنا ثانية مختفيين تحت جدار واطئ. قعدا وقتاً طويلاً، ينتظران أن يمر الناس. ساد الهدوء مرة أخرى.

ـ والآن، في رعاية الرب! ـ رسما علامة الصليب، وسارا.

---

* هكذا ورد في الأصل، والتحريف واضح. المترجم.

اجتازا الفناء، تحت المنحدر نحو الجدول. وقطعا الجدول. وسارا في الوهدة. وجيلين يهتدي بالنجوم ليعرف الجهة التي يسلكها. في الضباب طراوة، والسير سهل، سوى أن الحذاء غير مريح لميلان كعبه من كثرة الاستعمال. خلع جيلين حذاءه، وألقاه، وسار حافياً.

ويقفز من صخرة إلى أخرى، ويعاين النجوم. أخذ كوستيلين يتأخر عنه. يقول:

ـ على مهلك. حذائي لعين حك قدمي كلها.

ـ اخلعه، وسيسهل عليك المشي.

سار كوستيلين حافياً. فكان الحفي أسوأ عليه. جرحت الصخور كل قدميه، فظل يتأخر. ويقول جيلين له:

ـ لا بأس عليك إذا جرحت قدميك. سيندملان. ولكن إذا لحقوا بك قتلوك. وهذا أسوأ.

وكوستيلين لا يقول شيئاً. يسير ويئن لا غير. سارا في الوهدة وقتاً طويلاً. وهما يسمعان الكلاب تنبح إلى اليمين. توقف جيلين. أجال بصره فيما حوله. تسلق في الجبل، متلمساً طريقه بيديه. ويقول:

ـ أوه، أخطأنا الطريق. انحرفنا يميناً. هذه قرية أخرى. رأيتها من الجبل. يجب أن نعود، ونميل يساراً في الجبل. هناك غابة، على الأرجح.

ولكن كوستيلين يقول:

ـ انتظر قليلاً، على الأقل، دعني أستريح. قدماي داميتان كلية.

ـ أوه، يا أخي، سيندملان. أقفز بخفة أكثر. هكذا!

أخذ جيلين يركض، متجهاً يساراً إلى الجبل، إلى الغابة.

وكوستيلين لا يفتأ يتأخر، ويتوجع. وجيلين يستحثه، ويواصل سيره.

صعدا إلى الجبل. هناك غابة بالفعل. دخلا الغابة. مزقت الأشواك آخر رداء لهما. وقعا على درب في الغابة. يسيران فيه.

ـ قف!

كركبة على الطريق. توقفا يتسمعان. كركبة، مثل كركبة حصان، كركبت قليلاً، وتوقفت. تحركا. عادت الكركبة من جديد. يتوقفان، فتتوقف الكركبة. زحف جيلين، ينظر إلى الطريق في الضوء. هناك شيء. واقف، يشبه الحصان. وعلى الحصان شيء أسود لا يشبه الإنسان. حمحمة. يرهف جيلين السمع. «أية أعجوبة هذه!» ويصفر جيلين صفيراً خفيفاً. وينطلق شيء هادر من الطريق إلى الغابة، وتهتز الغابة، كأنها العاصفة، وتتكسر أغصان.

وقع كوستيلين من الذعر. وجيلين يضحك ويقول:

ـ هذا أيل. ألا تسمع الأغصان تتكسر بقرونه؟ نحن نخافه، وهو يخافنا.

واصلا سيرهما. أخذت الثريا تتغور. الصباح غير بعيد، ولا يعرفان إلى أين يتجهان ويتصور جيلين أنهم سلكوا هذا الطريق، حين جلبوه، وأن القلعة لا تبعد الآن إلا ما يقرب عن عشرة فراسخ.

وما من علامة موثوقة يستدل بها. وهناك الليل، والإنسان يصعب عليه الاهتداء في الليل. خرجا إلى فرجة في الغابة. جلس كوستيلين، ويقول:

ـ افعل ما تشاء. أما أنا فلن أصل. رجلاي لا تطيعانني.

أخذ جيلين يستميله. ويصر كوستيلين:

ـ كلا، لن أصل. لا أقوى.

احتدم جيلين غيظاً، بصق، شتمه.

ـ سأذهب لوحدي إذن. وداعاً!

وثب كوستيلين قائماً، وسار قاطعاً حوالي أربعة فراسخ. تكاثف الضباب في الغابة أكثر من ذي قبل. والمرء لا يرى أمامه شيئاً. والنجوم لا تكاد ترى.

وفجأة يسمعان كركبة فرس إلى الأمام. يسمعان ارتطام حذواته بالصخر. انبطح جيلين على بطنه، وأخذ يتسمع من خلال الأرض.

ـ بالضبط. خيال قادم نحونا.

انحرفا عن الطريق، وقعدا في أجمة ينتظران. زحف جيلين نحو الطريق، فيرى خيالاً تترياً قادماً، يدمدم بينه وبين نفسه. مر التتري. عاد جيلين إلى كوستيلين.

ـ وقانا الرب شره. انهض، لنذهب.

أخذ كوستيلين ينهض، فوقع.

ـ لا أقدر. والله العظيم، لا أقدر. لا قوة لي.

والرجل جسيم، مترهل. فأخذ يعرق. ومسه الضباب البارد في الغابة، وتقرحت قدماه فتفكك. أخذ جيلين ينهضه بالقوة. ويزعق كوستيلين:

ـ آه، يوجعني!

ذهل جيلين ذهولاً شديداً:

ـ ما هذا الصراخ؟ والتتري على مقربة. وسيسمع.

ويفكر في سره: «حقاً إنه وهن. فماذا أفعل معه؟ لا يجوز التخلي عن رفيق». ويقول:

ـ هيا، انهض. اقعد على ظهري لأحملك، إذا كنت لا تقوى على السير.

وأجلس كوستيلين على ظهره، وأمسك فخذيه بيديه، وخرج إلى الطريق يجرجره. ويقول:

ـ فقط أن لا تضغط بيديك على حلقومي، بحق المسيح.

أمسكني من كتفي.

ناء جيلين بحمله. وقدماه داميتان أيضاً. فأصابه التعب. يحني قامته، ويعدل حمله، يدفعه إلى أعلى، ليستقر عليه بشكل جيد، ويسير مثقلاً به في الطريق.

والظاهر أن التتري سمع صيحة كوستيلين. يسمع جيلين شخصاً يسير وراءه، ويزعق بلغة قومه، اندفع جيلين إلى داخل الأجمة. أشهر التتري بندقيته، وأطلق رصاصة. طاشت الرصاصة فزعق التتري بلغته بشيء ما وانطلق مبتعداً في الطريق.

ويقول جيلين:

ـ وقعنا، يا أخ! سيجمع هذا الكلب التتار الآن، وسيلاحقوننا.

سنقع بأيديهم إذا لم نقطع ثلاثة فراسخ. ويقول بينه وبين نفسه عن كوستيلين: «وهذا الشيطان يضايقني. لو كنت وحدي لخلصت بنفسي منذ زمان».

ويقول كوستيلين:

ـ اذهب لوحدك، فلا حاجة لأن توقع نفسك من أجلي.

ـ كلا، لن أذهب. لا يجوز التخلي عن رفيق.

حمله على كتفيه ثانية، وسار ينوء به. سار زهاء فرسخ آخر، عبر

الغـابة طوال الوقت، ولا يرى مـخرجاً. أخذ الضـباب ينقشع، والسـحب أيضاً، كما يظهر، ولا يرى نجوماً. تعب جيلين تعباً شديداً.

وجد في الطريق ينبـوعاً صـغـيـراً أحيـط بالصـخور. توقف، وأنزل كوستيلين، ويقول:

ـ دعني أستريح، وأشرب ماء. ولنأكل رغيفاً، فالقلعة غير بعيدة، على ما يبدو.

وما كاد ينطرح ليشرب، حتى سمع كركبة خلفهما. اندفعا مرة أخرى إلى أجمة، ناحية اليمين، تحت المنحدر واختفيا هناك.

ويسمعان أصوات تتار. توقف التتار في نفس البقعة التي انحرفا منها عن الطريق. تحدث التتار قليلاً، ثم بدا وكأنهم يستعدون الكلاب. يسمعان خشخشة في الأجمات ويتجه نحوهما كلب أسود غريب. توقف الكلب. وراح ينبح.

وينسل تتار، غرباء أيضاً. أمسكوهما، شدوا وثاقهما، وأجلسوهما على حصانين، ومضيا بهما.

ساروا زهاء ثلاثة فراسخ، فيلتقي بهم مالكهما عبد المراد ومعه تتريان. تحدث قليلاً مع التتريين، أجلسهما على فرسين له، وعادوا بهما إلى القرية.

وعبد المراد لا يضحك، ولا يتكلم معهما كلمة واحدة.

وصلوا بهما إلى القرية عند الفجر، وأنزلوهما في الشارع. وجاء الصبيان متراكضين، يضربونهما بالحجارة، والمقارع، ويزعقون.

اجتمع التتار في حلقة. وجاء العجوز الساكن في سفح الجبل. أخذوا يتكلمون. ويسمع جيلين أنهم يتناقشون في شأنهما، وماذا

يفعلان بهما. يقول بعضهم: يجب إقصاؤهما في مكان أبعد في الجبال، ويقول العجوز: «يجب أن يقتلا». وعبد المراد يجادل، ويقول: «دفعت عنهما نقوداً، وسأحصل على فدية عنهما» فيقول العجوز: «لن يدفعا لك شيئاً، ولن تجني منهما غير البلايا ومن الإثم إطعام الروس. اقتلهما، وينتهي الأمر».

تفرقوا. تقدم المالك من جيلين، وصار يقول له:

- إذا لم يرسلوا لقاءكما فدية، فسأجلدكما حتى الموت بعد أسبوعين. وإذا عمدتما إلى الهرب ثانية، قتلتكما قتل الكلب. اكتبا رسالة، اكتباها بشكل جيد!

جلبوا إليهما أوراقاً. فكتبا رسالتين. شدوا القيد عليهما، واقتادوهما وراء المسجد، حيث كانت هناك حفرة بعمق خمسة أذرع تقريباً، وأنزلوهما في هذه الحفرة.

-٦-

صارت عيشتهما سيئة تماماً. لم يعودوا يرفعون القيدين عنهما، ولم يطلقوهما خارج الحفرة. كانوا يلقون إليهما عجيناً غير مخبوز، كما يلقى للكلاب، وينزلون إليهما جرة ماء. وفي الحفرة نتانة، واحتباس هواء، ورطوبة. تكالب المرض على كوستيلين تماماً، وانهد، ودب الوجع في كل جسمه، فظل يئن أو ينام. وركب الجزع جيلين، فالوضع سيئ. وهو لا يعرف كيف يخرج من الحفرة.

بدأ يحفر الأرض، ولكن أين يلقي التراب؟ رأى المالك ذلك، وهدد بأن يقتله.

يجلس، ذات مرة، في الحفرة مقرفصاً، يفكر في الحياة الطلقة، ويحس بالوحشة. وفجأة سقط رغيف خبز على ركبتيه، ثم آخر، وتناثرت حبات الكرز. رفع بصره إلى فوق، فرأى دينا. نظرت إليه برهة، وضحكت، وانصرفت راكضة. ويفكر جيلين: «لعل دينا تساعد؟».

نظف في الحفرة موضعاً صغيراً، واستخرج منه الطين، وراح يصنع دمى. صنعها على هيئة رجال، وخيول، وكلاب، ويقول لنفسه: «حالما تأتي دينا، سأرميها لها».

ولكن دينا لم تأت في اليوم التالي. ويسمع جيلين كركبة خيول. جاء رجال، واجتمع التتار عند المسجد يتناقشون، ويتصايحون، ويرد ذكر الروس في كلامهم. ويسمع صوت العجوز.

لم يسمعه بشكل جيد، ولكنه يحدس أن الروس على مقربة، والتتار خائفون من أن يدخلوا القرية، ويجهلون ما يفعلونه، بالأسيرين.

تحدثوا وقتاً، ثم انصرفوا. وفجأة يسمع جيلين خشخشة في الأعلى. فيرى دينا جالسة القرفصاء، وركبتاها تبرزان أعلى من رأسها. أنزلت رأسها، فتدلت قلادتها، وتأرجحت فوق الحفرة. وعيناها الصغيرتان تلمعان كنجمتين. أخرجت من ردنها فطيرتين بالدبنة، وألقتهما له. تناولهما جيلين، ويقول:

ـ لماذا لم تأتي منذ زمان؟ لقد صنعت لك لعباً. هذه هي، خذيها، ـ وأخذ يقذفها لها واحدة واحدة. ولكنها تهز رأسها، ولا تنظر.

ـ لا أريد، ـ تقول ذلك، وتصمت قليلاً، وتلبث قاعدة، ثم تقول: ـ إيفان! يريدون أن يقتلوك. ـ وتشير بيدها إلى رقبتها.

ـ من يريد قتلي؟

ـ أبي. الشيوخ أشاروا إليه بذلك. وأنا مشفقة عليك.

فيقول جيلين:

ـ اجلبي لي عصا طويلة، إذا كنت مشفقة علي.

فتهز رأسها ممتنعة. طوى ذراعيه، وراح يتضرع إليها.

ـ دينا، أرجوك! اجلبيها لي، يا حلوة!

فتقول:

ـ غير ممكن. الجميع في البيت: وسيرونني، ـ وانصرفت.

ويقعد جيلين في المساء يفكر: «ما العمل؟». ويظل يتطلع إلى فوق. النجوم طالعة، والهلال لم يطلع بعد. وأذن المؤذن. وهدأ كل شيء. وأخذ جيلين ينعس ويفكر أيضاً: الفتاة خائفة.

وفجأة تناثر طين على رأسه. فرفع بصره إلى فوق. فإذا بعصا طويلة تتخبط على حافة الحفرة هناك. تخبطت برهة. وراحت تهبط، وتنزل في الحفرة. فرح جيلين، وأمسكها بيده، وأنزلها. كانت عصا متينة. وكان من قبل قد رأى هذه العصا على سطح بيت المالك.

نظر إلى فوق. النجوم تلمع عالية في السماء، وفوق الحفرة تماماً تلمع عينا دينا في الظلام، مثل عيني قطة. تطل بوجهها من حافة الحفرة، وتهمس: «إيفان! إيفان!» وتشور بذراعيها قرب وجهها تريد أن تقول: «على مهلك، إيفان!».

فيقول جيلين:.

ـ ماذا؟

ـ غادر الجميع، ولم يبق إلا اثنان في البيت.

فيقول جيلين:

ـ هيا، كوستيلين، لنذهب. لنحاول للمرة الأخيرة. سأعينك.
وكوستيلين لا يريد حتى سماع ذلك. فيقول:
ـ لا. يظهر أنني لن أخرج من هنا. إلى أين أذهب، وأنا لا أقوى حتى على أن أدير جسمي؟
ـ إذن، وداعاً، لا تعتب علي.
وتبادلا القبل.
أمسك بالعصا، وطلب من دينا أن تمسكها، وتسلق عليها. أفلت مرة أو مرتين، فقد كان القيد يعيقه. أسنده كوستيلين، فصعد إلى فوق أخيراً. وتجذبه دينا بيديها من قميصه، بكل ما لها من قوة، وتضحك.
أخذ جيلين العصا، ويقول:
ـ أعيديها إلى مكانها، يا دينا. فقد يتذكرونها، ويضربونك.
أخذت العصا، بينما سار جيلين إلى سفح الجبل. وتسلق المنحدر، وأخذ حجراً حاداً، وأخذ يعوج قفل القيد. القفل قوي، فلا ينكسر، وفي الأمر حرج. ويسمع جيلين شخصاً ينزل من الجبل، قافزاً بخفة. ويفكر: «لعلها دينا مرة أخرى». جاءت راكضة، وتتناول الحجر وتقول:
ـ هات عنك.
جلست على ركبتيها، وأخذت تلوى القفل. ولكن يديها رقيقتان كعودين. ولا تقوى على ذلك. ألقت الحجر. وأخذت تبكي. وعاد جيلين يعالج القفل من جديد، وقد جلست دينا القرفصاء جنبه، تمسك بكتفه. أجال جيلين بصره، فرأى وراء الجبل وهجاً أحمر يأخذ بالتوهج. الهلال يطلع. ويفكر جيلين: «يجب أن أقطع الوهدة وأصل إلى الغابة قبل طلوع القمر». نهض جيلين، وألقى الحجر. إذ يجب أن يذهب، ولو بالقيد. فيقول:

ـ وداعاً، يا دينا. سأذكرك طوال عمري.

أمسكته دينا، وتلمسته بيديها، تبحث أين تضع الأرغفة له.

تناول جيلين الأرغفة، ويقول:

ـ شكراً، عاقلة. من يصنع لك الدمى بعدي؟ ـ ومسد على رأسها.

وتبكي دينا، حاجبة وجهها بيديها، وركضت في الجبل، قافزة كالعنزة. وفي الظلام لا تسمع إلا وسوسة القطع المعدنية في ضفيرتها، وهي تتقافز على ظهرها.

رسم جيلين علامة الصليب، وأمسك قفل القيد بيده، حتى لا يصدر صوتاً، وسار في الطريق معوجاً قدمه، مديم النظر إلى الوهج، حيث القمر آخذ بالطلوع. وكان يعرف الطريق الذي يسلكه، أن يسير باتجاه مستقيم حوالي ثمانية فراسخ. فقط أن يصل إلى الغابة قبل أن يطلع القمر تماماً. قطع جدولاً. كان النور يلوح قليلاً وراء الجبل. سار في الوهدة، يتطلع أثناء سيره. القمر لم يطلع بعد. الوهج صار فاتح اللون، وتتنور ناحية من الوهدة أكثر فأكثر. ويزحف ظل على سفح الجبل، ظل يقترب منه ويقترب.

ويسير جيلين ملازماً الظلال طوال الوقت. ويسرع جيلين، والقمر يطلع أسرع منه. وإلى اليمين أخذت قمم الجبال تتنور. صار يقترب من الغابة. القمر طلع من وراء الجبال، تنورت الدنيا. واستضاءت تماماً، كما في النهار. وأوراق الشجر كلها تلوح للعيان. والجبال هادئة متنورة، كأن كل شيء قد لفه الموت. لا يسمع غير خرير جدول في الأسفل.

وصل جيلين إلى الغابة، دون أن يصادف أحداً. واختار مكاناً أكثر ظلاماً، وجلس ليستريح.

استراح، وأكل رغيف الخبز. ووجد حجراً وعاد يعمل ليكسر قيده. قرح يديه كلتاهما، ولم يكسر القيد. نهض، وسار في الطريق.

سار زهاء فرسخ، وأنهكت قواه، وقدماه تئنان عليه. سار خطوات عشرة أو نحوها، وتوقف. ويفكر: «لا مفر من الأمر. سأجرجر نفسي، ما دامت لي قوة. لو جلست، لن أستطيع أن أنهض. لا أصل إلى القلعة في هذه الليلة. عند الفجر، سأرقد في الغابة، وأقضي النهار فيها، وفي الليل أواصل السير».

سار الليل بطوله. لم يصادف غير تتريين على فرسين. سمعهما جيلين من بعيد، فاختبأ وراء شجرة.

أخذ القمر يشحب، وتساقط الندى، والفجر قاب قوسين أو أدنى إلا أنه لم يصل إلى حافة الغابة. ويفكر مع نفسه: «سأقطع ثلاثين خطوة أخرى، وانحرف إلى الغابة، وأقعد هناك». قطع ثلاثين خطوة، فيرى الغابة توشك أن تنتهي. خرج إلى حافتها. الدنيا متنورة تماماً، وأمامه السهل والقلعة مكشوفان له وكأنهما على راحة كفه، وإلى اليسار، على مسافة دانية، عند سفح الجبل، تشتعل نيران، وتهمد، وينتشر دخان، والناس قرب النيران.

يمعن النظر، فيرى البنادق تتلألأ. قوزاق، جنود.

فرح جيلين، وجمع بقايا قواه، وسار في سفح الجبل. وهو يقول لنفسه: «معاذ الله لو رآني في هذه الأرض المنبسطة خيال تتري. فلن أتخلص، ولو أنني قريب من جماعتي».

وما كاد يدير ذلك في ذهنه، وينظر، حتى يرى ثلاثة تتريين واقفين على رابية على بعد أذرع. رأوه، فنزلوا إليه. تفتت قلبه كمداً وانقطاعاً. راح يلوح بيديه، ويصيح:

ـ إخواني! أنقذوني! أخواني!

سمعه رجالنا. وطلع قوزاق فرسان. ونزلوا نحوه يعترضون التتريين. القوزاق أبعد عنه، والتتريون أقرب. ثم إن جيلين جمع آخر ما لديه من قوة، وأمسك القيد بيده، وركض نحو القوزاق، غير واع بنفسه، يرسم علامة الصليب، ويصيح:

ـ إخواني! إخواني! إخواني!

خاف التتريون، ولما لم يبلغوه، أخذوا يتوقفون. ووصل جيلين إلى القوزاق.

أحاط به القوزاق يسائلونه «من أنت، ومن أين؟» وجيلين لا يعي نفسه، يبكي ويردد:

ـ إخواني! أخواني!

جاء الجنود متراكضين، واجتمعوا حوله. منهم من يقدم له خبزاً، ومن يقدم عصيدة، ومن يقدم فودكا، ومن يدثره بمعطف، ومن يكسر القيد عنه.

عرفه الضباط، وأخذوه إلى القلعة. وسر الجنود، واجتمع الرفاق في غرفة جيلين.

روى لهم جيلين كل ما وقع له، ويقول:

ـ وها أنتم ترونني منذ سافرت إلى أهلي، وتزوجت! لا! الظاهر هذا هو نصيبي.

وبقي يخدم في القفقاس. أما كوستيلين، فلم يعتق إلا بعد شهر بفدية قدرها خمسة آلاف روبل. وجاءوا به، وليس فيه من الحياة غير رمق.

عام ١٨٧٢

روايات قصيرة وقصص
ملاحظات

في علم الأدب لم تتحدد حتى يومنا هذا المعالم الدقيقة التي تميز أشكال الأعمال الأدبية بعضها عن بعض. وينطبق هذا بشكل خاص على أشكال النثر كالقصة والرواية القصيرة. وكثيراً ما يسمي الباحثون في إبداع ل. ن. تولستوي عملاً واحداً من أعماله بالقصة تارة، وبالرواية القصيرة تارة أخرى. ويسري هذا الأمر، بشكل خاص، على العملين اللذين يضمهما كتابنا، وهما: «بوليكوشكا»، و«الذراع».

وتبعاً لهذا الرأي نستطيع أن ننسب «بوليكوشكا» و«الذراع» من بين كل الأعمال الموجودة في هذا الكتاب إلى شكل الرواية القصيرة، معتبرين جميع الأشياء الأخرى فيه قصصاً.

وبعد هذه الملاحظة التمهيدية نتوقف بشكل موجز على تاريخ كتابة كل عمل من الأعمال المجموعة في هذا الكتاب. وعلى المادة الحياتية التي وضعت في صلبه، ونذكر تاريخ صدوره لأول مرة، وبعض آراء قرائه ونقاده الأوائل.

غارة

في هذه القصة يصور تولستوي الشاب لأول مرة الانطباعات التي تركها القفقاس في نفسه، حيث سافر إليه ربيع ١٨٥١، والحرب التي اندلعت هناك في ذلك العام ضد الجبليين، حيث اشترك فيها بصفة متطوع في بادئ الأمر، وبعد ذلك كطالب عسكرية وكضابط شاب.

بعض الشخصيات المرسومة في «غارة» مستوحاة من نماذج واقعية لضباط في جيش القفقاس تعرف عليهم تولستوي بعد أن انضم إلى الوسط العسكري. فالضابط العجوز خلوبوف، على سبيل المثال، قريب الشبه بالرائد خيلكوفسكي الذي كان يخدم مع تولستوي، والذي كان تولستوي يكن له عطفاً كبيراً («الجندي العجوز، البسيط، والنبيل في الوقت ذاته، والشجاع والطيب النفس»).

نشرت «غارة» في العدد الثالث من مجلة «سوفريمنيك» لعام ١٨٥٣، وقد أعجب تورغينيف بهذا العمل إعجاباً شديداً، كما كتبت ت. أ. يرغولسكيا خالة تولستوي. وقال تورغينيف عن مؤلفها بعد أن قرأها وقرأ روايته القصيرة «المراهقة»: «إذا كان هذا الشاب سيستمر كما بدأ... فإنه سيذهب بعيداً».

ثلاث ميتات

كتب تولستوي قصة «ثلاث ميتات» في كانون الثاني عام ١٨٥٨. وصدرت في عدد كانون الثاني من مجلة «مكتبة المطالعة» لعام ١٨٥٩ .

كتبت «ثلاث ميتات» خلال بضعة أيام. وقد راقت القصة للمؤلف كثيراً، وهو الذي يزن أعماله بطريقة صارمة جداً.

كتب تولستوي إلى أصدقائه القريبين، موضحاً فحوى تلك الرواية، فقال إنه كان يريد في هذه القصة أن يمس القضية الفلسفية عن الحياة والموت، ويظهر في الوقت ذاته أفضلية البسطاء من الشعب على الأرستقراطيين، الذين كان موقف الكاتب منهم يزداد انتقاداً عاماً بعد عام.

قيم الناقد الشهير د. ي. بيساريف قصة «ثلاث ميتات» تقييماً عالياً، وذلك في مقالته المنشورة في مجلة «راسفيت» (العدد ١٢ لعام ١٨٥٩). ويتحدث بيساريف في هذه المقالة عن تولستوي كـ «سايكولوجي عميق» ويرى أن ما من أحد من الكتاب «تعمق في نفس الإنسان» كما فعل تولستوي. ويطور يساريف في مقالته الأفكار التي طرحها ن. غ. تشيرنيشيفسكي في مطالعاته عن خصائص طريقة تولستوي الفنية.

بوليكوشكا

حصلت الوقائع الموصوفة في قصة «بوليكوشكا» في ضيعة الأمراء من آل دوندوكوف ـ كورساكوف، وهي الضيعة الموجودة في ولاية بسكوف. إلا أن النماذج الأصلية لبطل القصة الفلاح بوليكي والشخصيات الأخرى استوحاها الكاتب من فلاحين أقنان وخدم، كانوا يعيشون في قرية وبيت ضيعة ياسنيا بولانا.

في يوميات تولستوي في نهاية الخمسينات جاء ذكر اسم الفلاح الخادم بوليكي غير مرة. وأسماء عوائل الفلاحين الموصوفة في القصة أسماء من ياسنيا بولانا. وهي عوائل دوتلوف ويرميلين، وكوبيلوف، وريزانوف، وكان تولستوي يعرف حياتها ومعيشتها معرفة جيدة. كما أن

تولستوي استقى شخصيتي الوصيفة آغافيا ميخايلوفنا، ووكيل الأعمال يغور ميخايلوفيتش من واقع ياسنيا بولانا أيضاً.

ومسكن الخدم في ياسنيا بولانا كما يذكر س. ل. تولستوي، ابن الكاتب الأكبر، يشبه إلى حد كبير ذلك «الجناح» ذا العشرة أذرع، حيث كان بوليكوشكا ينزوي مع عائلته في أحد أركانه.

وحتى الحصان الأبقع العريض العظام باربان كان في ياسنيا بولانا.

وقد ذكر تولستوي في يومياته أنه لشيخوخته أطلق ليرعى.

وقد حمل الأشراف من مالكي الأقنان تولستوي على ترك الوسطاء المصالحين الذين كانوا يشتغلون في تطبيق الإصلاحات، وقد أسخطهم أنه حسم جميع المسائل المتنازع عليها بين مالكي الأراضي والفلاحين «المعتوقين» من تبعية القنانة، لصالح الفلاحين.

فلا عجب أن يستقبل المنتقدون من مالكي الأقنان أعمال الكاتب الشبيهة بقصة «بوليكوشكا» بعداء سافر.

نشرت هذه الرواية القصيرة لأول مرة في عدد شباط من مجلة «روسكي فيستنيك» لعام ١٨٦٣ .

الذراع

في أواسط الخمسينات سمع ل. ن. تولستوي من صديقه الأديب أ. أ. ستاخوفيتش قصة حصان عداء شهير، كان يسمى بـ «الذراع» «مشيته الطويلة المتساوقة». وفي ذلك الحين سجل تولستوي في يومياته: «أود أن أكتب قصة حصان».

لم يحاول تحقيق هذه الرغبة إلا بعد خمسة أعوام، حين كتب في

أعوام ١٨٦١ ـ ١٨٦٣ الصيغة الأولى للرواية القصيرة عن «الذراع» على شكل مسودة. إلا أن عمله على هذه الرواية قد توقف. فقد كانت رواية «الحرب والسلم» تشغل كل أفكار الكاتب في ذلك الحين.

ظهرت «الذراع» في صيغتها المعالجة من جديد، والمطولة،- في «الأعمال الكاملة لليف ن. تولستوي» (١٨٨٥، الجزء الثالث).

أسير القفقاس

في عام ١٨٧٢ أصدر تولستوي «الأبجدية» التي صارت الكتاب المدرسي الأول لأجيال عديدة من الأطفال الروس. وكل جزء من أجزائه الأربعة يتألف من نوادر وحكايات، وألغاز، وأمثال، وقصص ممتعة.

وقد اهتم تولستوي في أن يكون كل شيء في «أبجديته» «جميلاً، موجزاً، بسيطاً، والأهم من ذلك أن يكون واضحاً». وقد وجد الكاتب أن «أسير القفقاس» الذي كتبه لـ «الأبجدية» يستجيب كلياً لهذه المتطلبات. وأعجبته هذه القصة إعجاباً شديداً حتى إنه اعتبرها في أطروحته «ما هو الفن؟» من بين الأعمال النموذجية للفن «العالمي» الميسر للجميع.

يكتب يوري الكسييفيتش غاغارين الملاح الفضائي الأول في العالم، لدى تذكره سنوات تعلمه أنه «في ذلك الحين وقع في يدي الكتاب الذي ترك أثراً لامعاً في حياتي كلها. إنه قصة تولستوي «أسير القفقاس». فقد أعجبت كثيراً بالضابط الروسي جيلين، وبصلابته وجرأته. إن مثل هذا الإنسان لن يفشل أبداً.

حين وقع في الأسر هرب، بل وساعد على هروب كوستيلين الضعيف

الإرادة. والتترية دينا كانت آسرة. وكنت حين أعيد قراءة القصة أقارن أبطالها دائماً بمعارف لي. فإن أخي فالنتين قد هرب أيضاً من الأسر. وقد وجدت فيه ملامح جيلين المحبوب لي» (ي. غارغارين. الطريق إلى الفضاء. موسكو، ١٩٦٩، صفحة ١٩).

محتويات

الكونت ليف نيكولايافيتش تولستوي

(٩ أيلول ١٨٢٨- ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٠)

من عمالقة الروائيين الروس ومن أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر والبعض يعتبره من أعظم الروائيين على الإطلاق.

ليو تولستوي روائياً ومصلحاً اجتماعياً وداعية سلام ومفكّراً أخلاقياً. أضمر الكاتب الروسي احتراماً خاصاً للأدب العربي، والثقافة العربية، والأدب الشعبي العربي. فعرف الحكايات العربية منذ طفولته. عرف حكاية "علاء الدين والمصباح السحري" وقرأ "ألف ليلة وليلة"، وعرف حكاية "علي بابا والأربعون حرامي"، وحكاية "قمر الزمان بين الملك شهرمان"، ولقد ذكر هاتين الحكايتين ضمن قائمة الحكايات التي تركت في نفسه أثراً كبيراً، قبل أن يصبح عمره أربعة عشر عاماً.

كفيلسوف أخلاقي اعتنق أفكار المقاومة السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب (مملكة الرب داخلك) وهو العمل الذي أثّر على مشاهير القرن العشرين مثل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينج في جهادهما الذي اتّسم بسياسة المقاومة السلمية النابذة للعنف.

إن القصص والروايات القصيرة المنشورة في هذا الكتاب كتبها هذا الكاتب الروسي العبقري على مدى نصف قرن، وتشمل نماذج من مجمل إبداعه.

كتب ألكسندر بوشكين: "كلمات الشاعر هي أفعاله". وهذه حقيقة عظيمة تنطبق بدرجة غير اعتيادية على ليف تولستوي الذي ظل يتحدّث ويكتب بإخلاص متناه عمّا توصّل إليه بضروب الاستقصاء الروحي المجهد، والمعاناة المضنية. وقد كتب في يومياته: "يقتطع الشاعر من حياته أفضل ما لديه، ويضعه في إبداعه" و"كتابتي هي أنا".

إن كتب ليف تولستوي ستظل لقرون عدة تذكاراً لعمل دؤوب قام به عبقري.

لوحة الغلاف: تولستوي يروي قصصاً لأحفاده



ISBN 284308044-4